

معاونیه محمد تقی

فصل  
وخواص



# مؤلفات معاوية نور

University

Library

Location

Accession

354512 B

Class Mark

8LWA

Meaning

8LWC13

مؤلفات

# معاوية نور

الجزء الثاني

قصص وخواطر

قلم التأليف والبشر  
جامعة الخرطوم

قسم التأليف والنشر  
جامعة الخرطوم  
ص . ب ٣٢١ الخرطوم  
جمهورية السودان الديمقراطية

حقوق الطبع والنشر  
محفوظة

طبع بدار الطباعة  
قسم التأليف والنشر  
جامعة الخرطوم

## فهرس

صفحة

### بحوث إجتماعية وسياسية :

١	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	العالم بعد نصف قرن
٦	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	فوضى العالم ومسئولية العلم
١٣	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	الاستعمار والحضارة

### ماذا في السودان :

٢٣	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	١ - ملاحظات عامة
٢٦	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٢ - الادارة الأهلية آخر تجربة في سياسة الاستعمار
٣١	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٣ - الادارة الأهلية ومسئولية الانجليز
٣٣	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٤ - سياسة التعليم في السودان
٣٨	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٥ - الأهالي بين المرض والصحة

### في الثقافة العامة :

٤٥	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	١ - فن التفكير
٤٨	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٢ - كيف نقرأ
٥١	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٣ - كيف نفكر
٥٤	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٤ - أنا والكتب أو الكتب وأنا
٥٨	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٥ - معنى الثقافة
٦٤	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٦ - حرفة الكتابة
٦٨	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٧ - الفن في حياتنا اليومية أو كيف نحيا حياة فنية
٧٢	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٨ - الثقافة اللاتينية وهل هي خير لنا من غيرها
٧٥	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٩ - ساعة مع أنثريه موروا
٨١	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	١٠ - الحب والقتل : انزادورا دنكان الراقصة العالمية
٨٦	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	١١ - فن التراجم الحديد لون ذائع من ألوان الأدب الغربي اليوم
٩٤	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	١٢ - شاعرة الرقص : صورة من حياة « أنا بافلوفا »



١٧٥	...	...	...	...	...	...	— بازروف ..
١٧٧	...	...	...	...	...	...	— دون كيشوت
١٧٩	...	...	...	...	...	...	— إياجو ...
١٨١	...	...	...	...	...	...	— مازاريك ..
عن معاوية :							
١٨٥	...	...	...	...	...	...	— الشهيد معاوية
١٨٧	...	...	...	...	...	...	— معاوية نور



بحوث اجتماعية وسياسية

## العالم بعد نصف قرن

من مقال للكاتب الإنجليزي الشهير هـ . ج . ولز .

نشرت مجلة « جورنال أوف لندن » في عددها الأخير مقالاً للأديب الإنجليزي الكبير « هـ . ج . ولز » تناول فيه الحالة الحاضرة للعالم، وتنبأ بما سوف يكون عليه بعد مضي خمسين عاماً . وقد أكرنا أن نأتي هنا بأهم ما جاء فيه ، لأنه قد شخص مكان الداء في العصر الحديث والأزمة العالمية الحاضرة ، خصوصاً وإن هذه أول مرة تسمع فيها صوت « ولز » القوي الدافق عن أزمة العالم الحاضرة — وليس معنى ذلك أننا نوافقه على كل ما جاء في مقاله قال :

« سألقى رئيس التحرير عما أتبنا به لحالة العالم بعد مضي خمسين عاماً ؟ والسؤال شائق ولذيذ : كما أنه صعب لايسهل معه التكهن . فربما تحصل مئات من الحوادث غير المنتظرة تؤثر على سير العالم وإتجاهه . ومثل هذا السؤال كان سهلاً قبل خمسين عاماً ولكنه ليس كذلك الآن ، إذ أننا نعيش في عصر لم يستقر بعد » .

ولقد كان العالم قبل خمسين عاماً مقسماً إلى أمم وحكومات ثابتة تعززها تقاليد موروثه متينة . وكان التقدم الميكانيكي مطرد النجاح ثابت الخطى . وكان التكهن بأختراع الاوتومبيل والطيارة وقصر المسافات وتضخم المدن سهلاً مع القياس . وكان الراديو معروفاً في المعامل والمختبرات .

وكانت كل المظاهر التي كملت وتحت الآن مرموقة منتظرة من دلائل الأحوال وطبيعة التقدم . ولم يكن هناك شيء يمنع التسلح ، ولذلك كانت الحرب الجوية أمراً مقطوعاً به متأكداً منه كئاًكدنا من اليوم التالي . وكان التنبؤ من أبسط الأشياء وأسهلها ، وأنه لرجل مغلق القلب ضيق الذهن ذلك الذي لا يصيب في كثير من تنبؤاته .

والحال على خلاف ذلك الآن . فبدلاً من التقدم المطرد تكتسح العالم من أقصاه إلى أقصاه أزمة شاملة . وليس هناك حكومة واحدة — حتى حكومة الولايات المتحدة — لها من الثبات والرسوخ مثل ما كانت عليه القوات الكبرى في أواخر القرن الماضي . بل إننا نشك الآن في صلاحية أية حكومة من الحكومات القائمة . فإن كل الحكومات المعاصرة لم تعد تصلح لمقتضيات العصر الحاضر وحاجات العالم .

والقضاء على المسافات التي كانت تبعد الأمم بعضها عن بعض قد تم : ولم تعد

الحكومات الحاضرة صالحة للبقاء . وحكومات العالم المختلفة تعمل كلها بالطرق العتيقة مزاحمة بعضها البعض بعد هذا التقدم الذى بلغه العالم أخيراً . وكان أجدد بالعالم أن يساس كوحدة عالمية كبرى .

والحياة البشرية أصبحت شيئاً يهم كل حى ولكن الحكومات ما تزال حرية ضيقة . وهذا الذى أقول قد ابتدأ بتدبره بعض المفكرين . غير أنهم لا يعلمون إلى الآن كيف يقومون بتلك التجربة الجديدة .

ويبسا نحن فى هذا فإن الأمم دائبة فى التسليح . ماضية فى سياسة السلطة . والسياسة العالمية مازالت محصورة فى جهود هذه الحكومات المختلفة . وأن تفوز كل منها على الأخرى وأن تعمل على الرخاء داخل حدودها الجغرافية ، بينما تعتدى وتجور على مصالح الشعوب الأخرى .

وهكذا تستمر هذه الحالة البالية العتيقة . لأن ليس عندنا القوة الفكرية التى نخطم بها هذه الطرق البالية .

وهنا نحن نقوم وسط حرب إقتصادية بليدة توصلنا ولاشك إلى حرب نارية حقيقية . ولقد كتبت قبل أعوام قائلا : « إن المدنية سجال بين التعليم والدمار غير أننى أزيد على ذلك الآن أن المصائب تزداد وتقطع مراحل . و « التعريف » تكبل التجارة وتمنعها من الإزدهار . والذهب مخزون ومكدس . والتسلح فى إزدياد . وأسباب الشجار والتصادم بين الدول تزداد . والحروب الجوية وحروب الغارات مقبلة . و « التعليم » لم يبدأ بعد . ليس هنالك إذأ من سجال . إن الطريق سهل مبدى « للدمار » ؟

فى مدارس بريطانيا وأمريكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا واليابان مارال المعلمون يعلمون الطلبة تلك الدروس الوطنية المضيفة التى تملأ أذهان الطلبة بالغرور القومى وكرهية الشعوب الأخرى . وفى هذه المدارس تسليح الأمم تسليحاً عقلياً !

وكلنا نذكر أفتراح الرئيس « هوفر » بتوقيف دفع الديون الحربية غير أن أثره وقى . وسرعان ما عادت الحالة إلى ما كانت عليه من قبل .

والنبي يود لو كان فى مكتبته أن يتكهن بالأشياء الحسنة . ولكن واجبه يحتم عليه أن يقول ما يرى . وهو يرى عالمياً لم يزل محكوماً بواسطة الجنود الوطنيين وأصحاب رؤوس المال . عالمياً ما زال رازحاً تحت عواطف البغض والخوف مقسماً إلى طبقات

تتناحر فيما بينها وتتحارب. ودولاب الحركة الاقتصادية واقف معطل. ونحن نرى النقص بأعيننا، فالإنتاج في نقص مستمر والتجارة في حالة إنحطاط. وسوف نسمع غداً أن تكاليف التعليم وشئون الصحة كثيرة لا تتحملها الميزانية. وبذلك تنقص المدارس وتقل العناية بالشئون الصحية.

فنحن لا نشعر بمنح الحياة المحاصرة إلا بعد خمسين عاماً عندما تقل أوقات فراغنا ويسوء طعامنا وتنشئ الأمراض. وأنه لا يبعد أن يكون السفر في ذلك العهد المشثوم من «مان فرنسكو» مثلاً إلى «لندن» أو «باريس» أصعب وأخطر بكثير من السفر من «لندن» إلى «موسكو» في القرن الثالث عشر !

فإن النبي يجب أن يقول ما يرى - وإنني لأرى بعين بصيرتي الآن كيف أن هذا العصر الذي ابتدأ بانعاً مأمولاً قد تكون خاتمته أليمة سوداء. ولكن العزاء الوحيد أن تلافى هذه الحالة المذكورة ليس مما يصعب إذا أردنا. غير أن جهودنا في هذا السيل عديدة لا تشير إلى شيء من القوة وكبر الأثر.

فإن طريق السلام مازال مفتوحاً أمامنا ووجب علينا ألا نقبل العشل طالما كان بعيداً عنا في الوقت الحاضر - غير أننا نرى بعض الناس يحثرون هذه الجهود في سبيل إنهاء الخصومات السخيفة والحروب وطرق الدمار التي إكتظت بها صحف التاريخ.

ويمكن إنهاء هذه الأزمة الطاحنة بإحياء الصفات الإنسانية مثل الشجاعة والخلق. ولكن الشيء الذي يؤسف له أن ليس هنالك بوادر قوية الأثر تشير إلى مثل هذا الإحياء ولكن من يعلم؛ فقد يكون بين شباب العالم الناشئ عناصر ذلك الإحياء.

فإن بضعة آلاف من النفوس الحية المثقفة القوية وبضعة ملايين من الجنيهاات لنشر الدعوة لهذا النظام الجديد. كفيلة بأن ترد العالم من نظام الضيق والقسوة القسوة إلى عالم النور والحياة الجديدة.

ولقد قال الأستاذ «أينشتاين» مامعناه «لو امتنع اثنان في المائة من سكان أوروبا وأمريكا عن دخول الحرب. وأشهبوا محاصمتها. لما حصلت حرب ولانتهت الأمم من جنون التسليح» !

وأنا أزيد على ذلك قائلاً إنه لو كانت هذه النسبة في دول العالم الكبرى فقط لانتهى كل هذا الذي نرى - يعني إنجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وروسيا. ولوقامت هذه الدول كلها تحاول توحيد العملة وتشرف على الديون و «الإنتاج» و «التوزيع» إذاً لإضطرت الأمم الأخرى لأن تخضع لهذه «الدكتاتورية النافعة» !

هذه هي المسألة سهلة هينة . ومن عجيب الأمور أن ساستنا وملوك المال يتنا لا يرون هذا الطريق ولا يفهمونه ، مع أن الخراب والدمار واضح جلى أمام أعيننا وضوح الشمس وجلائها .

ويبما العالم يواجه هذه المشكلة . مشكلة الموت والخراب والدمار . نرى ساستنا مشغولين بالظهور أمام آلة التصوير وطرق الدعاية الخزية الضيقة .

فإذا انتشر هذا النظر السليم وعمل به كل إنسان فأى عالم ذلك الذى يكون بعد خمسين عاماً ؟ يصبح العالم وطناً واحداً . ومعنى ذلك ؟ معناه أننا نستطيع السراح والمراح فى هذا العالم من غير رقيب ولا شروط . ونكثر أوقات فراغنا ونصبح كل صروريات الحياة . كالغذاء وطرق المواصلات والسكنى والأمن فى إستطاعة كل إنسان بعد أن يعمل لها فى بادئ الأمر كل فرد .

ويستطيع كل فرد أن يحيا حياة كاملة بعد أن تتحدد التدابير الصحية والتعليمية وتنظيم الأرباب . وليست هذه الأشياء التى أحصيتها هى خيالات كاتب حالم ، وإنما هى حقائق يؤكدها علماء الإقتصاد ويؤكدها البحث العلمى الدقيق .

فإن عشرين عاماً فى أعمال التربة والنمو والإصلاح الإقتصادى كفيلة بأن تجعل الحياة فراغاً كله للخلق والحياة الأنيقة والحركة والتجارب الواسعة .

وليس هنالك أى مبرر لقوانين الهجرة الضيقة ، أو أن يبقى أى إنسان فى هذه الحياة عبر موفور الصحة والعيش والسكن . وكل ما نراه الآن من هذا القبيل لاجل له ماديا لو عرف العالم أن بلبر شتونه كوحدة واحدة بصيها خير واحد وينالها شر واحد .

ما هو السبب إذن فى عدم هذه الوحدة العالمية ؟

السبب بسيط . هو أن معظم ساستنا — بكل بساطة — ضيق العقول أناثيون . عقولهم آسنة قديمة . ومع ذلك فهم كثيرون الدعوة كثيرون الضجيج . وهم لا يقبلون أن يكتفوا أنفسهم على حسب مطالب العصر الحديث . ونحن أيضاً أعياء كسالى لأننا لا نحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم تلك !

وفيما هم يعيشون فى حياة الرغد والنعيم نجد آلافاً من الناس يحبون حياة الفاقة والمرضى والويلات الأخرى !

ولكن بعد خمسين عاماً — إذا حصل الإحياء الذى نود — يكون العالم متعلما مثقفا يقرر مصيره ويحدده ويعلو به . وكل فرد يولد فى مثل هذا العالم يولد فى عالم نظيف

ويساهم بنصيبه فى رخاء النوع وسعادته ، وسوف تعلم المدارس تاريخاً خلاف تاريخ الحروب ونهضات الأمم والنكرات القومية ، كما أنهم سيعلمون لعباً خلاف صف الجنود وتنظيمها لكى تحطم أخيراً .

هذه الحياة الجديدة فى متناول العالم : لكن العالم عنها مقص ، وانى جدد خائف أن توضع البنادق فى أيدينا ونقتل بعضنا بعضاً فنعيد بذلك آلم صفحة وأشنعها فى تاريخ البشرية وحق الذكاء الإنسانى . ويعيد التاريخ القديم كرهه لأن ليس لنا الشجاعة الكافية لكى نقبل الجديد الحى .

## فوضى العالم ومسئولية العلم

للكاتب الإنجليزي «وليم ماكدوجال»

World Chaos: The Responsibility of Science

-تلخيص وتعليق-

الأستاذ «وليم ماكدوجال» كاتب إنجليزي فابه الذكر وباحث فى الشؤون الإجتماعية ولى منصب أستاذ علم النفس فى أكبر الجامعات الإنجليزية والأميركية . وله منحه الخامس فى «السيكولوجيا» عامة وفى «السيكولوجيا الإجتماعية» خاصة ، فإذا تكلم أو كتب عن مسائل المجتمع ومعضلة الحضارة الأوربية فقد حق لنا أن نسمع له وأن نعرف رأيه ومكانه من الصدق ، وحظه من العنق والصواب .

وقد تناولت الصحف الأدبية هذا الكتاب حين ظهوره بشيء كثير من الإهتمام والعناية وكتب عنه النقاد هناك بغير قليل من الجدل والمناقشة ، لأن المؤلف تناول فيه مسألة المسائل فى الوقت الحاضر ، وعرض لهذه الفوضى العالمية بذلك البحث اللامع فتغلغل إلى لب الموضوع وجوهره . وعرض كل ذلك بأسلوب واضح ، وحساسة بيئة .

فليس شك أن العالم الآن يمتاز أعصب فترة فى تاريخه ، وأن الحضارة الأوربية تهددها الأخطار من كل حذب وصوب . وأن رجال الفكر يتوجسون شراً أن تكون هذه الأزمة نهاية الحضارة الراهنة وارتداد العالم مئات الأعوام .

فكل بحث يتناول هذه المشكلة ، وكل كتاب يعنى بهذه الفوضى . هو بحث جذير بالنظر وكتاب يشعر العالم بأنه فى شديد الحاجة إليه .

فهذه الفوضى البادية فى كل ميادين النشاط الإنساني . وهذا الخلل الظاهر فى معظم النظم الإجتماعية . وهذه الأخطار التى تحيق بالمدينة وتكاد تودى بالحضارة مما يهيب لكل كاتب وبكل باحث أن يملأ برأيه وأن يقترح سبل الخلاص والنجاة .

وقد رسم المؤلف صورة حائلة لحالة العالم اليوم ثم عزى هذا الخلل وتلك الفوضى التى نشهد ، والتى تهدد الحضارة بوشيك الدمار . إلى طغيان العلوم الصيعية على كل مرافق الحياة العامة وصور النشاط البشرى . طغياناً أصبحت معه هذه العلوم ووسائلها ونتائجها الآلية هى الكل فى الكل . وعاد كل ماعلها صدى لها أو نفاية لا يعتد بها ولا يحسب حسابها .

وليس «مكدوجال» هو الباحث الوحيد الذى ينظر إلى الحضارة الراهنة بعين التشاؤم والخوف، ولا هو بالرجل الوحيد الذى يلاحظ مظاهر الدمار وبوارده قوية الإندفاع، غير بعيدة النتائج. بل هو واحد من رهط كتاب أجلاء، يشاطرونه الرأى، ويشايعونه النظر ولا يتسمون لدى رؤية المظاهر الكاذبة والتقدم الزائف.

غير أن الجديدهم بالحدير بالعناية فى هذا البحث أن المؤلف عزى هذه العوضى فى قوة وبصورة واضحة إلى تقدم العلوم الطبيعية تقدماً ليس فى ميدان العلوم الإجتماعية ودراسة النفسيات ما يقابله أو يقرب منه. فقرر — فى غير تلكؤ أو شك أو إستثناء — أن العلوم الطبيعية، وما يتبعها من النتائج العملية والمكتشفات الآلية، هى المسئولة أولاً ومباشرة عن هذا الإختلال فى النظام العالمى، الذى إبتدأت مظاهره تنفد فى النظم الإجتماعية والمصاعب السياسية ولأزمة الإقتصاد الحاضرة. فليس من شك فى أن العالم يعانى اليوم من أزمة لإقتصادية عنيفة لعله لم يشهد مثيلها من قبل، وأن مسائل السياسة العامة قد بلغت حداً كبيراً من التحلل وإختلاف الرأى وتعدد المذاهب. ولعلها لم تعرف فى يوم من الأيام مثل ما هى عليه اليوم من القوة والعنف.

فضعف نظام الاسرة، وانتشار الجريمة، وتفشى الرشوة وما مانلها من مظاهر النقص والتحلل الإجتماعى فى الحضارة الراهنة، ما كل ذلك إلا النتائج المباشرة لتقدم البحث العلمى وإستفحال أسر الآلة الميكانيكية، مما أصبحت معه الحياة الهادئة المطمئنة متمسرة صعبة، أو هى بالفعل وفى واقع الأمر، معدومة.

يقول المؤلف إن الحضارة الراهنة ليست وليدة العلم الحديث كما ينجيل إلى البعض. وإنما هى ترجع إلى ما هو أبعد من العلم الحديث وأكثر إيفالاً فى التاريخ من «كوير نيكوس». فهى ترجع إلى الفلسفة الإغريقية، وإلى القانون الرومانى وإلى غير ذلك من المخلفات الماضية والتراث الأدبى القديم.

والعالم لا يضطرب الآن، ولا تختل نظمته لو أنه لم ينس أو يتناسى تلك الدعائم وذلك الأساس القديم. ونتج من ذلك أن أصبح البناء أثقل من أن يحتمله الأساس الذى أهمل أمره. وفى الوقت الذى نجد فيه أن أحد جوانب هذا البناء قد تضخم واستكبر «نجد الجانب الآخر مازال هزيلًا ضامراً». وإذا تصور القارئ شكل بنيان أهمل أساسه، وثقل سقفه، وتضخم جانب من جوانبه كملت عنده صورة الحضارة الراهنة كما تبدو «لمكدوجال» وكملت لمخيلته صورة الإنهيار الذى لا بد أن يحصل.

فقد صرح الاسناذ «رمزى ميور» — وهو من الأحرار المجددين — فى حديث له



مع إحدى الصحف « إن الحضارة الراهنة مهددة بالحرب ، إذا لم تتمخض الأعوام المقبلة عن حرية واسعة للتجارة العالمية ، وإذا لم تعمل إنجلترا ضد هذا التيار الجنوني » .

وصرح دوق « نورمبرج لاند » - وهو الرجل المحافظ - بقوله « إننا على وشك أزمة كبرى في الشئون العالمية . وأن ليس في الدلائل الحاضرة ما يشير إلى التقدم المطرد . وأن الأمل في السلام العالمي لم يعد إلا حلماً جميلاً » . وكذلك الحال في شئون الاجتماع والسياسة ، فقد دلت النظم الحاضرة على إفلاسها وأنها لم تعد صالحة للوقت الحاضر ، وهذه الظاهرة التي نلمحها في التاريخ الأدبي الحديث يستبطل أمرها إلى أن تقضى على البقية الباقية من النظم القائمة . والسبب في كل ذلك أن أى حضارة إنما تقوم على أساس الدين والوطنية - وقد فقدت هذه الأشياء مكانها وسلطانها في العصر الحديث » .

ويتضح من هذا أن معظم الكتاب ورجال العلم - على اختلاف مشاربهم وأحزابهم - يرون هذه القوضى ويتوجسون شراً من دوام هذا الروح الخطر .

يقول « مكسوكال » في تعزيز رأيه إن الإنسان العصري قد إهم بالعلوم الطبيعية فنالت هذه العلوم كل الخطوة عند الباحثين والعلماء ، وكل التشجيع من جانب الجمهور والرأى العام ، لأن فوائدها نفعية مادية ، فالآلة البخارية والطيارة والأتمبيل ووسائل المواصلات الأخرى التي قربت المسافات وجعلت السفر من مكان إلى آخر لذة ومتعة ، هي في واقع الأمر النتيجة المباشرة لتقدم العلوم الطبيعية وإزدهارها .

والسينما والراديو . والنور الكهربائي والفضوغراف وأشباهاها من آلات الترف ومعدات التعميم ، هي الأخرى من ذخر العلوم الطبيعية وفيضها ومتاعها . فلماذا لا يقبل عليها الناس ويولونها العناية ويساعدون من يعمل في حقها ويقوم بالتجارب والمباحث في ميدانها ، إذ جعلت لهم الحياة جنة تجري من تحتها الأنهار .

فنحن نحترم العلوم الطبيعية هذا الاحترام الذي يقرب من العبادة في مظاهرها . ولا يختلف عن الإيمان الديني في شيء ، لأنها قد أدلت لنا الطبيعة ومكتباتها من خيراتها ، وجعلتنا السادة الحاكمين بأمرنا ، نقول « كن فيكون » .

غير أن كل ذلك الترف ، وكل تلك الملذات . قد ابتدأ ظلها يتقلص . وإتضح - ولكن أخيراً - أن الصناعة وحدها ، وأن الإنتاج الفائض ، وأن الآلة وسهولة المواصلات وما إليها ليست هي كل شيء في نظام العالم ليستقر العالم ، ويرفل الناس في حلق الرخاء والسلام والنعيم . لأن هنالك عناصر وعوامل إجتماعية وإنسانية لا يمكن أن تقوم حضارة ، أو يعم رخاء ، أو تزدهر ثقافة ، أو يستتب أمن ، أو يستقر نظام ، وتطمئن حياة ، من غير

معرفة لها والتوفر على دروسها ، والعمل بمقتضى تلك المعرفة وذلك الدرس .

في هذا العصر الذى نرى فيه كل شيء يغرى بالتبحر فى العلوم الطبيعية ، نرى من عوامل التبسيط إنصراف رجال البحث والذكاء عن ميدان العلوم الاجتماعية ، مما وقف معه كل بحث نزيه فى حقيقة الإنسان : وعلوم المجتمع والحياة عامة .

فالكثيرة مثلاً قد وقفت حجر عثرة أمام أى بحث فى التقاليد والمعتقدات ودروسها درساً حراً . ولم تسلم الجامعات - وهى المعاهد الحرة - من هذه المراقيل الرجعية . وحكم بذلك على علوم الاجتماع أن تبقى واعدة آسنة : وأصبح درس الكواكب والإلكترونات أهم عندنا بكثير وأحق بعنايتنا من درس الإنسان ، وهو « الدرس الحق » كما كان « بوب » فى قصيدته المعروفة .

يقول « مكندوجال » مامعناه : « إننا نعيش فى عصر بلغت فيه الفوضى الاجتماعية أشدها . ومرجع هذه الفوضى ولاشك هو العلوم الطبيعية . فما علاج ذلك ؟ . . العلاج من داء العلم هو زيادة العلم . ولكن أى علم ؟ ! . . عندنا الكفاية من العلوم الطبيعية وهى التى تحمل تبعه هذا الخراب . ولنفرض أننا ليزددنا بهذه العلوم عرفاناً ، وبها بصراً وقبحاً ، واكتشفنا المدهش الرائع فى ميدانها . وجاءنا « أينشتين » آخر فبرهن على أن هذا الفضاء الذى نرى لا وجود له ، ولا حقيقة فيه . فهل ذلك العلم ياترى يحل مشكلتنا الاجتماعية : الحاضرة أو يجعلنا أبصر بنظام الحكم ، وأعلم بطبيعة الإنسان ؟ ! .

فالعالم السياسة يضطرب الآن وتتجاذبه قوى مختلفة ، وتتنازع دوافع متباينة . ورجال السياسة يزعمون لنظمهم من الصدق والحق ما يجعلنا أشد رية وأكثر شكاً فى حقيقة أى نظام وصدق أية نظرية . ويقام النظم السياسية المختلفة من فاشية ودكتاتورية وديمقراطية وشيوعية إلى آخر النظم السياسية الحاضرة هو الدليل المادى على أننا لانفهم شيئاً صحيحاً عن حقيقة النظام الأصلح ، وإننا تجهل هذا الإنسان الذى نود أن نشرع له . ونسن له القوانين . ونفرض عليه الحقوق والواجبات جهلاً أقل ما يقال فيه إنه لانفهم من الإضطلاع بهذه المهمة الخطرة .

هل يستطيع الرجل السياسى الآن أن يطمئن إلى نتائج بعضها من أسباب محدودة ؟ وهل نحن نعرف الدوافع الإنسانية وإختلافها ، والظروف الخارجية وتشعبها مما يجعل نظاماً من الحكم ، أو أسلماً من النظام ينجح فى مكان ما وبين قبيل ما . ولا يكون نصيبه مثل ذلك النجاح فى مكان ثان وبين قبيل آخر ؟ ! .

وهل نحن نعرف حقيقة التباين ومداه بين الأجناس والأفراد . وهل التشابه بين

الأجناس البشرية أكثر . أو أن وجوه الاختلاف أكثر وأظهر وأبعد ؟ وهل إصلاح الفروق مستطاع عن طريق التربية والتثقيف ، أم أن لا إصلاح للنفس ولاتدريب للطباع ؟ وهل البشر يتفاوتون من حيث إنتاج الحضارات والإبقاء عليها ، أم أنهم في هذا الصدد قريب من قريب . وهل حصمة التربية وانتشار سبل الصحة هي الآن كما يجب أن تكون ؟ ! وبالإختصار ماطبيعة علم الحياة : وحقيقة « الإنسان » وصحة التنظيم الإجتماعية ؟ ! إننا لاتعلم من كل ذلك شيئاً يصح الركون إليه والإعتماد عليه . وهذا العلم — لو علما — هو وحده القدير على انتشالنا من هذه الوعدة التي تتردى فيها الإنسانية اليوم .

وعلم الإقتصاد ، هل هو علم حقا ؟ أم يمكن عرفان النتائج المحتملة من المقدمات المقررة ؟ يكفي ردأ على هذا السؤال وأمثاله أن يطالع القارئ أى صحيفة عصرية تتناول الشؤون الإقتصادية فيجد من الاختلاف فى الرأى ، والتبيل فى وجوه النظر ما يجيب عن سؤاله أشفى جواب .

ونحن لو كنا أعلم قليلا بشئون الإقتصاد والمعاملة لما وقعنا فى هذه الأزمة البطاحنة التي إختلفت الآراء وتعددت فى أسبابها . حتى أصبح كل شيء سبباً لها ، إلا جهلنا بها ! بل أن هنالك مسائل إقتصادية أولية ، مثل الأساس الذهبى للعملة ، وقانون الطلب والعرض يختلف فى شأنها هؤلاء « العلماء » الأجلاء ولا يعرفون وجه الصواب فيها .

ومع كثرة أحاديث الإقتصاديين هذه الأيام عن « الدوافع والقوى » المجهولة . وعن « الثقة » فالعالم مازال ينقى ملايين الجنهيات فى البحث عن الغازات السامة ومعدات الحروب ولا ينفق ربع ذلك المبلغ للتوفر على دراسة هذه « الثقة » مثلاً .

وليس يعد فى ظننا أن بعضهم ينتظر من علماء الكيمياء أن يكشفوا لنا مخلولاً كيميائياً تصبح « الثقة » بعد تناوله بين الأفراد والجماعات مستوفاة مزدهرة . ثم ماهى طبيعة هذه « الدوافع والقوى » النفسانية التي كثر الحديث عنها فى كتابات الإقتصاديين ؟ ! إننا بلاشك فى حاجة إلى نور يضىء ظلماتها . ولن يكون ذلك على كل حال بدراسة المريع والبحث عن معادلة لحامض القينك ! .

و « السيكلوجيا » : هذا العلم الحيوى الذى لا يمكن أن تقوم علوم الحياة والمجتمع على غير أساسه — ما حقيقته ؟ . . . إن هذا العلم — ونسميه علماً من باب التجاور — مازال مرتعاً حصصاً لمختلف الآراء المتنافرة . ومتباين الأحكام والنظريات . وفى السيكلوجيا الحديثة من النظريات والفروض والمدارس الفكرية ما يجنب للقارئ معه أن هذا « الشيء » الذى نسميه إنساناً قد يكون إلهاً . أو قد يكون آلة . أو قد لا يكون شيئاً من الأشياء على

هذا هو مجمل آراء المؤلف . وقد حاولنا تصويرها بأسلوب يقرب من أسلوبه ونسج عليه شيئاً من مرارة تهكمه وشدة حماسه ، ونكون امتناً في نقل آرائه بعد كل ذلك . والرأى الذى يخرج به الإنسان من كتابه هذا هو أن علوم الاقتصاد والتشريع والتاريخ والنفس والسياسة وخلافها من العلوم يجب أن تكون قبلة الباحثين والنبهاء إذا رغبنا فى الإبقاء على حضارتنا هذه وحفظ التوازن الضرورى بين معلومات الإنسان . ذلك لأن هذه العلوم هى الأسس التى لا يمكن أن يقوم الرقى الآلى والصناعى إلا عليها .

غير أننا نلاحظ -- ولو أننا نوافق المؤلف فى النتائج التى نوصّل إليها والدعوة التى ينادى بها -- أن الأستاذ « مكندوجال » فى اعتقادنا قد فاته أن يشير إلى أكثر الأسباب قوة ووضوحاً وصدقاً فى تقدم العلوم الطبيعية . وتختلف علوم الاجتماع . ويبدو لنا أن المنفعة المادية التى ذكرت ليست بأميز خواص العلوم الطبيعية . وإن كانت نتيجة من نتائجها . غير أنها لم تكن الحافز الأول والهام لدى العالم فى معمله . أو الرياضى فى مكتبه ، بل أن هنالك من العلوم الطبيعية : المزدهرة مائس فيها أى فوائد مادية مباشرة نتجم عنها أويقبل عليها الجمهور لفائدتها ، كأبحاث « أينشتين » مثلاً ودراسة الفلك والطبقات الأرضية الخ .

وعندنا أن السبب الأول والهام فى تقدم العلوم الطبيعية إنما هو سبب طبيعى لا سبيل إلى نكراهه أو تحطيه وهو أن العلوم الطبيعية أسهل من العلوم الاجتماعية إذ أن البحث فى العلم الطبيعى يرجع إلى ملكات الإنسان الأولية المشاعة . وأن أسلوب البحث العلمى أسهل ووسائل التثبت والفحص فيه قريبة التناول . والباحث فى العلوم الطبيعية لا يحتاج إلى أكثر من الذكاء العادى إلى جانب الملاحظة والفحص والتحرية والمثابرة - الأشياء التى يعتمد فيها على الحواس - والعلم الطبيعى فى هذا المعنى لا يعنى إلا بعالم المحسوسات ولا يهتم بالقيم الغامضة والدوافع المجهولة . والسبح وراء التأمّلات والتخيّلات . وعالمه إنما هو عالم المادة والمحسوسات وأدواته موجودة فى « حيز الفضاء والزمن » . على خلاف علوم الاجتماع ودراسة الإنسان فإن حظ الحس فيها أقل وعالم القيم والفكر فيها أكثر . ونصيب التخيل والذكاء أوسع . فنحن قد نتفق عموماً على وجود هذه الحروف والكلمات التى تكون هذا المقال . ثم نحلل هذه الصحيحة ومحتوياتها وعناصرها الكيمائية والطبيعية فرد الورق والخبر إلى أصلها والحروف والرسوم إلى طبيعتها . ولكننا قل أن نتفق على قسمة هذا المقال ، أو نفسية كاتبه ، أو اللواغ التى دفعت به إلى تسطيره ، لأن مرد هذه الأشياء إلى غير الحس وإلى غير المنطق الذى يسهل الإتفاق عليه بين معظم الناس .

فارتقاء العلوم الطبيعية إذاً شىء طبعى لم يعتمد قانون البساطة والسهولة . وليس الغريب أن ترتقى العلوم الطبيعية أكثر من علوم الإجتماع . بل الغريب أن تنعكس المسألة . والعلوم الطبيعية مهما إرتقت تكاد تكون أولية — من هذه الوجهة — إذا قيست بالدين والفلسفة وعلم النفس مثلاً . فإذا نجم عن العلوم الطبيعية بعض القوائد النفعية فليست هذه القوائد بواعث تقدمها والإقبال عليها ، وإن كانت مما يشجع على البحث فيها والمضى فى درسيها . ولعلنا ظننت أن العلم الطبعى — مهما ظن الناس بعظمته — أولى فى وسائله وفهمه إذا قيس بالدين فى صميمه ولبابه .

## الاستعمار والحضارة \*

بقلم الكاتب الإنكليزي « ليونارد ولف »

### تلخيص وتعليق

ينتمي « ليونارد ولف » إلى ردهة كبريم من كبار مفكرى الإنجليز الأحرار فى العصر الحاضر ، ذلك الردهة الذى يتنظم فيه « ولز » و « شو » و « برتراند رسل » و « هارولد لاسكى » و « سدنبي ويب » وأندادهم من « الإنتلجنسيا » ذات التفكير الحر .  
وانه لمن الدلائل الطيبة التى تذكر لهذا العصر أن بعض علمائه وفلاسفته ورجال الفنون فيه قد إهتموا بمسائله الإجتماعية ، وجعلوا لها نصيباً كبيراً من تفكيرهم وعنايتهم . فترى « ولز » القصصى الأدب فى عهده الأخير لا يكتب حرفاً واحداً إلا وهدفه الإصلاح الإجتماعى . ونرى « برتراند رسل » يهجه أمر الثورة فى الصين ويكتب فى الشؤون الهندية مثل إهتمامه بالفلسفة الرياضية ، وسمات التفكير المجرد . وننظر إلى صديقنا العالم البيولوجى ألفرد « جوليان هكسلى » ينشغل بالشئون الافريقية ويجد لها مكاناً رحيماً إلى جانب الحديث عن التطور وخصائص الأحياء والوراثة وعالمها من الشئون العلمية .  
فهذا عصر علماء أدباء ، وأدباؤه علماء ، وفلاسفته يشتغلون بالصحافة ، وصحافته لايفوتها الاشتغال بالعلم والرياضة ودراسة الفلك . ولعل هذه النزعة الإنسانية الجديدة « New Humanism » هى من أرقى ماتمخضت عنه الحضارة الغربية فى طورها الأخير . هذه النزعة التى ترى العلم والفلسفة والسياسة والأدب والصحافة وحدة إنسانية من أسس أغراضها خدمة النوع الإنسانى « Homo-Sapiens » والعناية بروح الإنسان وجسمه . وإذا كان للإنسانية أن تعلو وللحالة الراهنة أن تبقى هى بلاشك مدينة لهذا الروح الجميل ، الذى يذكىه فى أميركا « بابت » و « ممفورد » وفى إنجلترا « هكسلى » و « ولز » وفى فرنسا « رومان رولان » وفى الشرق أمثال « طاغور » . فهؤلاء الكتاب يعينهم شأن الإنسان أكثر مما تعينهم شئون أوطانهم الضيقة ، ويعينهم مستقبل الحضارات الإنسانية أكثر مما تعينهم سيادة أوربا أو امريكا ، ويهيمهم أن تكون علاقات الشعوب بعضها مع بعض طيبة الأواصر - خيرة الإنتاج فى إحترام متبادل وعطف سام . فهم يخافون ويتوجسون شراً من بواعث المنافسة الرخيصة ، والعداء العنصرى والبغض ، وعوامل الظلم والجشع ، والإستغلال المادى القصير النظر ، وطنيان السياسات العمياء التى دفعت بالعالم إلى الحرب الكبرى ، وهى على وشك أن ترديه فى حرب مثلهما أو أهول

وأخطر . فهؤلاء الكتاب يكتبون الكتب . ويلقون المحاضرات . وينشرون المقالات في الصحف في هذا المعنى . وليس الآن مجال الحديث عن النزعة الإنسانية الجديدة بالشرح والإفاضة . وإنما نحن هنا بسبيل الحديث عن كتاب واحد كتبه مؤلفه حديثاً عن الإستعمار والحضارة . عرض فيه لمشكلة الإستعمار الأوربي الحديث في قارتي أفريقيا وآسيا ، وعلاقة ذلك الإستعمار بالحضارة الأوربية الراهنة ؛ وعلاقة تلك الحضارة في زواياها الصناعية المادية بسكان أفريقيا . وتناول أسباب ذلك الإستعمار الحديث وما يترتب عليه من آثار وأخير أبحث في مآلحه وما أتى به من مساوئ ومشكلات ، وما سوف يخلفه من متاعب وصعاب . وما سيقود إليه العالم من خراب محقق إن هو استمر على خطه طوعاً وسلياً المعهودة . وقد اخترت هذا الكتاب بعينه للتحدث عنه لقراء العربية لعلاقته الوثيقة بأهم ما يشغل بالهم من المشكلات والحركات القومية ولكي يروا كيف يعامل هذه المسائل ذهن عالم صافى التفكير . ناصح الأسلوب مستقل للرأى غير متحيز لأمة أو ثقافة أو حضارة ؛ وإنما همه الأكبر جلاء الحقيقة وعبادة الحق كما يبدو له .

يقول الكاتب إن الحضارة الأوربية الحديثة هي شيء مختلف كل الاختلاف عن كل الحضارات التي سبقت القرن التاسع عشر ، بعد أن تحطمت الحضارات التي كانت تتركز أشد ما تركز على الملكية والأرستقراطية من جراء الغياء الذي صاحبها . ومن جراء الثورة الفرنسية ؛ ثم الثورة الصناعية التي قامت عليها الحضارة الراهنة حضارة الديمقراطية الحديثة والنظم البرلمانية . والعمل والآلة والقاطرة والطيارة والبور الكهربائي ، فتضخمتم الصناعة في أوروبا . وأشد التنافس بين دولها لما ضاقت بهم سبل التوزيع والنجاح المادي فاضطرت تلك الحضارة أن تبحث عن أسواق جديدة لصناعاتها وجلب المواد اللازمة للإنتاج والعمل . ومن هنا شعرت أوروبا بحاجتها إلى سائر العالم إذا كان لها أن تنجح في نظمها الجديدة . فتنافست الدول الأوربية في الإستثمار بالآقطار الآسيوية والأفريقية لتجعلها ملاحق لتجارها وصناعاتها . وساعدها على ذلك سرعة المواصلات التي سهلت أمر إتحاق البلدان النائية وربط العالم كله ببعضه ببعض . وهذا من أهم الأسباب التي أسبغت على الحضارة الراهنة أهم خصائصها . فقد كانت صعوبة المواصلات في الماضي تحول دون أى حضارة مهما كانت قوية عمارة أن تحتاج بقية الحضارات أو تحبها على الأخذ بها . فكانت العزلة تامة بين آسيا وأفريقيا من حيث أساليب العيش وسبل الحياة والتطور الذي وقع في أوروبا بين عامي ١٧٥٠ و ١٨٥٠ وهو تطور عظيم هائل لم تشهد مثله البشرية في كل تاريخها المعروف ، ولعله أعظم قفزة قفزها الإنسان .

ولما كانت الحضارة الراهنة حضارة صناعية في صميمها . كذلك كان الإستعمار

الحديث إقتصادياً صناعياً في دوافعه وموجباته . ولم تستطع آسيا أو أفريقيا ردأ له لأنه أتاهما فجأة بقوة ووسائل ليست في طاقتهما ، ولا هي تدخل في دائرة معرفتهما واختيارهما . فهي في الواقع حضارة إستعمارية غارية بمعادتها الحربية الجديدة وطرق مواصلاتها السريعة . وقد كانت الوسائل الأولى في ذلك الإستعمار عن طريق التجار وأصحاب رؤوس المال والشركات المختلفة يعزز من مركز مقامها دول حربية قوية . ويقول المؤلف إن حادث الإستعمار هذا لعله أعظم حادث عرف في التاريخ من حيث السرعة والشمول . ففي خلال مائة عام أى من ١٨١٤ - ١٩١٤ إستطاعت أوروبا أن تخضع القارة الآسيوية والأفريقية وجنوب أمريكا لسلطانها الذي لا يزع .

وقد كان الاعتقاد السائد في أوروبا أن هذا الإستعمار هو الشيء الطبيعي . وأنه في صالح الشعوب الأجنبية أكثر منه في صالح أوروبا إلى أن وقعت الحبشة أمام الطليان في عام ١٨٩٦ ، فدافعت عن أرضها دفاع الأبطال وهزمت الطليان شر هزيمة . ثم تلا ذلك حادث تغلب اليابان على روسيا عام ١٩٠٥ . ومن هنا ابتدأ التشكك في قيمة الحضارة الأوروبية عند بعض الأوروبيين . فإن انتصار اليابان على روسيا يعد نقطة تطور كبير في تاريخ الإستعمار الحديث ، إذ فهمت أوروبا لأول مرة أن فتحها وغزوها للعالم بأجمعه قد تلاه رد فعل قوى من العالم بأجمعه . ثم جاء نجاح اليابان وإرتفاعها إلى مستوى الدول الأوروبية الكبرى حافزاً ألهم حماسة العالم الآسيوي والأفريقي ودفع به إلى الغضب من أمر هذه الحضارة الجاحدة لحقوقه والتي فرضت عليه فرضاً . واستعرت عوامل البغض والكراهية ضد الحضارة الأوروبية وسبلها المختلفة . ويمكن أن يقال إنه إلى مستهل القرن العشرين لم تقم حركة قوية تناهض الإستعمار الأوروبي . غير أننا نرى الآن أن معظم البلدان الآسيوية قد تحررت أو كادت تتحرر من السلطان الأجنبي . تركيا والصين والهند هي الآن في ثورة ناجحة ضد الإستغلال الأجنبي . وفي الهند اضطراب قوى رغم كل الإصلاحات الدستورية . والحركة الهندية الآن لا ترضى بأقل من الإستقلال التام .

وقد رفض الوفد في مصر بياض منحه إستقلال ذاتي . وما زال يطالب بالإستقلال البلاد إستقلالاً تاماً . وفي فلسطين حركة عربية واسعة النطاق . وفرنسا تجدد المصاعب الدائمة في تونس ، وسوريا تلهب حماسة وثورة ضدها . وقصة عبد الكريم وقيامه ضد فرنسا وأسبانيا في الريف مازالت ماثلة للأذهان . وفي أفريقيا نشأ شعور قوى ضد الإستغلال الأجنبي والسلطات الأوروبية . والمؤلف يعتقد أن سبب كل ذلك هو تصادم الثقافات . وعنده أن مشكلة الإستعمار الحديث إنما هي مشكلة نزاع عنيف بين حضارة صناعية آتية لا بد لها من الإستعمار لنجاحها . وبين حضارات لا تريد التناز في شيء . والشيء



الجديد في هذا النزاع أن العالم لم يشهد نزاعاً في الحضارة بلغ من الشدة والطغيان مثل ما هو عليه الآن . وذلك لأن من خصائص الحضارة الأوروبية الراهنة أنها تطغى على كل النظم والمؤسسات الاجتماعية في الحضارات الأخرى ولا تعرف التساهل أو المهادنة في فرض مرها وإتباع سبلها . وهي تقوم على القوة الحربية في أساليبها والتنافس الإقتصادي العنيف في نسيجها .

ويعتقد « ليونارد ولف » أن الدين يقولون بأن النزاع الحالي بين أوروبا وبقية العالم إنما هو نزاع عنصري أو ديني أو وطني إنما هم على خطأ واضح . ذلك لأن العوامل العنصرية والدينية والوطنية غالباً ما تظهر على أنها عوامل هامة في هذا النزاع لظهورها . والحقيقة أن ليس العنصر ولا الدين أو الوطنية العامل الأول ولا العامل الهام في هذه الظاهرة . إنما يقول طغيان الحضارة الأوروبية وأساليبها في الاستعمار والاستغلال هو الذي أذكى نار الثورة في الصين . والقوقل في الهند ومصر ، والتجديد في الدولة التركية ، وبغض العالم الإسلامي لدول أوروبا جميعاً . والذين يحبل إليهم أنهم يستطيعون تفسير تاريخ الشعوب والحروب والحركات الانقلابية وتفوق بعض الشعوب على البعض الآخر بلون البشرة يستحقون الاستخفاف والريبة ، فالإبان بعد أن أصبحت دولة مستقلة لأنراها تشعر بمثل هذا العداء للرجل الأبيض الذي يشعر بمثله الرجل الصيني . اليابانيون يكرهون الأمريكيين لأن بينهم خصومة إستعمارية دائمة على توازن القوى الحربية في المحيط الباسفيكي ، والنزاع العنصري ما هو إلا ظاهرة سطحية يوجد لها الشعور بالغنى والبسطرة الإقتصادية وليست هي في نفسها بذات قيمة . وكل من يصدق النظر في الحوادث التي تقع الآن في الشرق الأقصى يرى أن المسبب الجوهرى فيها نزاع بين الحضارات .

فالحضارة الأوروبية الراهنة في مظهرها الإستعماري الحربي الإقتصادي قد هددت حياة تلك الشعوب ورخاءها وسبل عيشها وعلاقاتها الاجتماعية بالزوال . وليس عجباً أن تدافع تلك الحضارات المادئة التي لاتعتبر المادة ولا ترى رأى أوروبا في المافسة الصناعية وقوة المال ضد المعتدين عليها . ومهما إتخذت تلك الثورة من ألوان الوطنية أو رى العنصر والدين فإن مصلحها بلاجدال هو إختلاف يسير في أسلوب الحياة أرادت الحضارة الراهنة القضاء عليه .

يجب أن لا يغرب عن البال أن كيان الحضارة الأوروبية الراهنة يقوم على التنافس الإقتصادي الصناعي . والتنافس الإقتصادي لا يعرف سوى مبدأ الربح المادى للفرد سواء في أوروبا أو في آسيا وأفريقيا . غير أن مثل ذلك الاستغلال لا يتيسر في أوروبا لقرب مستوى شعوبها في الوسائل والطرق . وأوروبا لاتحس بوطأة مساوىء حضارتها لأنها متجانسة قريية

بعضها من بعض . ولكن آسيا أو أفريقيا تحسان بها إحساساً يهدد حياتهما ويكاد يقتنيهما .  
والحضارة الراهنة التي أنجبت الإستعمار فى آسيا وأفريقيا وخلقت مصاحباته ومشكلاته  
هى بعينها التى خلقت مشكلات الحروب البشرية والاقتصادية بين الدول الأوروبية نفسها .

وقد بدأت أوروبا تشعر بمساوىء الحضارة الأوروبية مع أن سكان أوروبا لم يشهدوا  
جوانبها المبتذلة مثل ما شهد سكان آسيا وأفريقيا . وهذا الفرق فى الحضارة الصناعية الآتية  
قد يقود فى أوروبا إلى نزاع عنيف بين إنجلترا وفرنسا مثلاً ؛ إذا كانت الأولى قوية جداً  
فى وسائل الصناعة ومعدات الحرب ، وكانت الأخرى لاحول لها ولاسلطان من كل ذلك .  
فالمشكلة إذاً ليست مشكلة عنصرية ولا دينية ولا قومية ، وإنما هى مشكلة من صميم الحضارة  
الراهنة وسبلها ووسائلها . وفكرة الوطنية نفسها هى من نتاج الحضارة الأوروبية الحديثة .  
فهى غير معروفة فى آسيا وأفريقيا بمعناها الحديث . وإذا كانت الشعوب الآسيوية  
والأفريقية تستعملها فذلك لأنها تستعمل وسائل هذه الحضارة وسبلها للتحرر منها ؛ كما وقع  
فى اليابان وتركيا مثلاً .

وقد عقد الكتاب فصلاً عن تصادم الثقافات فيما قبل القرن التاسع عشر وتكلم عن  
الحضارة الرومانية والإستعمار الرومانى ، فأبان الفرق الشاسع بين الإستعمار الرومانى  
والإستعمار الحديث . ففى ذلك الإستعمار لم توغم روما بقية العالم على أخذ حضارتها  
والعمل بمقتضاها ، وإنما كانت تترك لهم كامل الحرية فى معظم طرق معيشتهم وحياتهم  
ذلك لأن حاجة الرومان إلى الفتح لم تكن اقتصادية صناعية ، وإنما كان دافعها الأول هو  
حب الفتح ومطامع الملوك فى السلطان والتوسع الحربى . وليس معنى ذلك أن الحضارة  
الرومانية لم تمتزج بالحضارات الأخرى أو تؤثر فيها . وإنما كان يأتي ذلك تدريجياً وفى  
رقى وهودة ، حتى أن الرومان أدخلوا من الحضارة الإغريقية الشيء الكثير ، مع أنهم  
كانوا الفخزة الفاتحين .

والحضارة الإغريقية أيضاً مثل آخر نسوقه . فقد بلغت تلك الحضارة فى أوج  
مجلها مستوى رفيعاً فى الاجتماع والنظم السياسية والاقتصادية والقانون . وفتحت معظم  
شعوب العالم ، فكان لها فارس فى الشرق ، ومصر فى الجنوب ، والشعوب اللاتينية وفينيقيا  
فى الغرب ، وإنصلت بحضارات تلك البلدان وأثرت فيها غير أنه لم يقم نزاع عنيف  
بينها وبينهم . ولم تتلاش أية حضارة من تلك الحضارات من جراء ذلك الاختلاط .  
ذلك لأن الأغريق لم يحاولوا توحيد إمبراطوريتهم الواسعة المختلفة الأشكال والثقافات  
فى شئون السياسة الاقتصادية أو النظم الاجتماعية الأخرى . فقد كانت الحضارة الإغريقية  
متساهلة كثيرة التساهل مع الشعوب الأجنبية التى دانت لها . وكذلك كان استعمار

« عصر النهضة » Renaissance « كل غايته التبادل التجارى فى المحصولات وفتح الأسواق الأجنبية - وأخذ المواد الخام . وقد كانت تلك العلاقة الاقتصادية سليمة لم يعقبها أى فتح حربي ، فلم يقع نزاع بين الحضارات لأن أوروبا لم تكن فى معداتها الحربية بأعظم شأنًا من الهند أو الصين .

أما قصة الاستعمار الحديث هى آسيا فهى معروفة مشهورة . إبتدأت فى أول الأمر بالمعاهدات التجارية بين الدول الأوروبية والأمراء الآسيويين كما حدث فى الهند .

ويتضح تصادم الثقافات جلياً ناصعاً فى الحركة الهندية الأخيرة التى أخذت تشتد بعد أوائل القرن العشرين . فهى فى الواقع ثورة واسعة ضد الحضارة الأوربية ونظمها الاستعمارية « غاندى » ينفخ فى أمته تعاليمه الهندية لإكتشاف الروح الهندى الصميم . والرجوع إلى الحضارة الهندية وإصلاحها والسمو بها إلى أوج الحضارات الرفيعة . وقد استعمل الشباب الهندى المتعلم فى نزاعه هذا كل أساليب الحضارة الأوربية لمحاربتها والتخلص منها . ومن الغريب حقاً أن تحمل الحضارة الأوربية نفسها بذور حتمها وهلاكها .

وقد إبتدأت الحركة التركية بالدعوة الدينية الإسلامية . ثم قامت بحركة التجديد الغربية لكى تنحر من العبء الاقتصادى والسياسى الذى لحقها من الحضارة الغربية . يقول المؤلف « ومن نتائج هذا النزاع أن آسيا أصبحت الآن تعبد فكرة الوطنية السياسية . وهى فكرة غربية بلا حلال وقد دفعت هذه الفكرة بأوروبا إلى الحرب المأصية ، فإذا لم تعمل أوروبا كل ما فى وسعها لمساعدة هذه الشعوب الآسيوية للتخلص من طور الإستعمار إلى الإستقلال التام من غير عنف ولا نزاع فإن العالم سيشهد موجة وطنية كبرى تلوها كارثة عظمى . تصبح بجانبها كارثة الحرب الكبرى شيئاً قافهاً قليل الأثر . »

أما إستعمار أفريقيا فقد إبتدأ عام ١٨٨٠ وكانت الدوافع إقتصادية من غير شك . وكان الرحالة الأوربي أو الوكيل التجارى لشركة من الشركات يذهب إلى أواسط أفريقيا ومعه ألوان من الهدايا والمنح يقدمها للأمير الافريقى ، ثم يطلب منه إمضاء معاهدة لايهم لغتها مع الشركات التجارية . ويفهمه أن هذه المعاهدة ستدر على شخصه وبلاده الرخاء والثروة ، وقد تم إستعمار معظم بلدان أفريقيا الوسطى على هذه الطريقة الخادعة « متافله » حينما قام بالنيابة عن ملك البلجيكت بإمضاء مثل تلك المعاهدة أصبحت الكونغو مستعمرة بلجيكية . وبهذه الطريقة استولت إنكلترا وفرنسا على مستعمراتها فى أواسط أفريقيا ، وحينما نشب النزاع بين الدول الأوربية على تحديد أراضي مستعمراتها اتفقوا فيما بينهم على أن كل من أمضى معاهدة مع أمير من أمراء أفريقيا على جزء من

النشأ في الأفريقي فمن حق الأرض الموارية لذلك الشاطئ في داخل القارة الأفريقية .  
وهنا يقول المؤلف :

« إن الطريقة التي اتبعت في الاستيلاء على تلك الأراضي الأفريقية كانت في معظم الحالات وحشية موهلة في الوحشية . وإن تلك الطرق المبتذلة قد تركت من غير شك أثرها السيء في العلاقة الراهنة بين سكان أفريقيا وأوروبا . فإن تلك السبل الدنيئة إن دلت على شيء ، فهي تدل على أن الحضارة الأوروبية تعامل الرجل الأفريقي مثل معاملتها لأي حيوان أبكم ، ذلك لأن الرجل الأوروبي يعتقد أن له الحق في الاستيلاء على أرض الإفريقي بالقوة أو بالخداع . »

ماذا في السودان

### ملاحظات عامة .

ذهبت إلى السودان بعد غياب عامين ونصف . وكنت أمني النفس في الطريق أن أرى وطني على خير ما يود الوطني لبلاده من مظاهر الحياة ودلائل التقدم وإطراء سبل التحسين والعمار . ذهبت إلى السودان إذأ كما يذهب كل وطني إلى وطنه بعد غيبة طويلة أو قصيرة ، وفي ذهني صور مما رأيت في الشام وفلسطين ومصر فماذا رأيت ؟

رأيت أرضاً واسعة منبسطة تلمع فيها للشمس نوراً خاطفاً وترسل من لهيبها ناراً محرقة ورأيت الأهلين يمشون فرادى وجماعات قليلة . ساهمي النظر ضعيفي الأجسام متثدي الخطى من أثر الجوع المحرق ، والتغذية الضعيفة ، والحميات الوافدة ، وأوامر للرجل الأبيض العاسفة .

فهذا الصديق قد عرفته قبل أعوام كثير النشاط . جم المعرفة ، شديد التوثب . ماله الآن قد خبا وضعف نشاطه وحل الوجوم والخوف مكان الوضاعة والشجاعة . وذلك البنيان ماله قد تهدم وعفت آثاره وأصبح شائخاً يعيش فيه اليوم ويوحى بالكآبة والحزن . وهذه معاهد الدراسة قد عرفتها في أيامي أكثر حياة وطية ونشاطاً ماله أصبحت قليلة العدد اهتة اللون ليس لها ذلك الإندفاع السابق أو الأمل الباسم ؟ !

مالى أرى كل شخص عرفته أقل حيوية وأكثر ضعفاً ؟ مالى أرى الوجوه واجمة الألسنة معقولة ؟ مالى أرى أخى وعمى وخالى وصحبى كل منهم كتيب حزين !  
مالهذه الأرض الآمنة قد حل بها الخراب !

مالهذه الإنسانية الوداعة المسكينة قد سرقت منها حيويتها ! مال هؤلاء الرجال الذين كنت أعرفهم في شباهم أذكباء بسامين قد استحالوا أمواتاً لا ينطقون إلا همساً ولا يتكلمون إلا وهم خطافون وجطون !

هنا سوق أم درمان ، مازال كل شيء فيه كما كان قبل أعوام وأعوام ، فبائع القش في مكانه القديم . وكسارى الترام هوو إنما أقل حيوية ونظافة ، وبائعو الذرة والتمر كلهم في أماكنهم التي كانوا فيها قبل عشرات وعشرات الأعوام من عهد الحكومة المهديّة

جالسين ينظرون إلى الأفق وليس من بيع أو شراء . والسعيد السعيد من ظفر بقوت يومه .  
رطل من الذرة أو قطعة من اللحم .

فالتاجر والمزارع وصغار الصناع كلهم ساخط غاضب لا يصرح بسخطه أو غضبه  
إلا في همس وفي حرر أمين ، لأنهم يعرفون أن الرجل منهم يستطيع أن يبست على الطوى  
ويبكي أولاده جوعاً ولا يستطيع أن يؤخر ماعليه للحكومة من الضرائب المتعددة والعوائد  
المتنوعة .

فالمزارع الذى يعمل طيلة يومه تحت وهج الشمس وفلك الملائيا به تراه عظاماً نحرة  
من طول المرض وضعف التغذية وسوء السكنى وجهله بأصول الصحة العامة .

والموظف الوطنى الذى يتناول أجره الزهيد بصرفه على عائلة كبيرة كلها معتمدة  
عليه . والتاجر لاتبقي له الحكومة من الأرباح إلا مايعيش به عيشة الكفاف . هذه حالة  
الإنسانية العربية السودانية التى تسكن ضفاف النيل ، عمل متواصل صعب تحت حر يحرق  
الأعصاب مملوء بالأوباء والحميات . مسكن لا يصلح للحيوانات فضلاً عن نبي الإنسان .  
صورة عامة لانشوز فيها ولاشذوذ اللهم إلا حياة الرجل الأبيض وسط هذه الإنسانية  
السوداء . فالرجل الإنجليزي مهما صغرت وظيفته يحيا ويتعم في أرض السودان بآخر  
ما أعدت الحضارة الأوروبية من وسائل الراحة وسبل التعم ونواحي الرياضة والتسلية .

فهو يسكن في فيلا تحوطها الجنان والحضرة من كل جانب ، بها ميدان للتنس ، وجراج  
للاتومبيل «ومراوح» تخفف من وطأة الحر «وثليج» في أيام الصيف يحيط بالجنران .  
ويلعب «البولو» في سهول أرض الرجل الأسود . وله من الخدم والحشم العدد الوفير .  
نهاره عمل بسيط في مكاتب أنيقة ، وليله رياضة وتسلية يتأقن فيها ويحيطها برّف  
ورقاهية هي كل ما يستطيع الرجل الأسود أن يعمل أو يدفع ، وأحياناً مما لا يستطيع أن يعمل  
أو يدفع . فإذا فرغوا من التنس أو البولو فهناك نواديهم الكثيرة يسمرون فيها إلى ساعة  
متأخرة من الليل والتي يكلف الواحد منها الخزينة السودانية ما يراوح بين عشرة  
آلاف وخمسة آلاف من الجنيهات يحبون الحفلات الراقصة . ثم نوم هنئء مريء وأحلام  
سعيدة هائلة ! . . . حفا إن عبّ الرجل الأبيض لعباً تقبل فادح ! .

وإذا استطاع القارئ أن يحسم هذه الصورة فقد وصل إلى كنه الروح السودانية في  
تاريخها الحديث . أصل عربي شب وترعرع في سهول الجزيرة العربية القاحلة فحمل معه  
شيئاً من فلسفة القضاء والقدر . وشعور حاد مستوفز اغتبه شمس المنطقة الحارة . وحميات  
تفتك بالأجسام فتسرق منها حيوياتها وقوتها . ومنظر سهل منبسط يتيه النظر في شحابه

وتقف النفس أمامه حائرة ضعيفة . وفقر تعمل الحكومة على بقاءه . وسيد أبيض سخر هؤلاء الناس لينعم هو ويترف على حساب عيشة الكفاف للرجل الأسود . أغريب بعد كل هذا إذا رهد الرجل السوداني في الحياة وعلت وجهه تلك الكتابة الحزينة وذلك السهوم انعبرى الشاعر !

أغريب بعد ذلك إذا أحتقر هذه الدنيا . وأصبح عشى مشية المغلوب على أمره غير طامع في حاضرها أو مستقبلها، إنه يعيش في هذه الدنيا كما يعيش الحيوان لا يعرف من فرح الحياة شيئاً ولا يرى لوجوده كبير معنى . إذ أن حصته منها هى الألم والجوع والمرض . أغريب بعد هذا تدين هذا الشعب وإيمانه العميق بالحياة الآتية ، التى من أجلها يحيا ويتألم ويصلى صلاة الخشوع والعبادة !

نتيجة منطقية لعوامل قاسية !

لكن ماهى الأعمال التى يبرر بها الإنجليز وجودهم فى السودان ؟ .  
أهذه هى رسالة الحضارة الأوروبية إلى الوحشية الأفريقية ؟ .

أهى تسخير الرجل الأفريقى طيلة يومه لينعم الرجل الإنجليزى بكماليات الجسد ، وفى سبيل هذه الكماليات يذكون مرارات النفوس وعداوات الشعوب ! أمن أجل هذا يقعون على الجهل ويحاربون النور والعلم ! لأجل هذا يمتنون النفوس ويحتضرون الوجدان الإنساني !

الأجل هذا لا يطلبون للشعوب الأفريقية إرتفاع مستوى الحياة !

ليست المشكلة بمشكلة إنجلترا نحو السودان وإنما هى مشكلة أسوأ نتائج الحضارة الأوروبية نحو أفريقيا ومستقبلها . إنما هى مشكلة أوروبا المستعمرة نحو مستقبل الجنس البشرى كله !



## الإدارة الأهلية .

### آخر تجربة في سياسة الإستعمار

من أكبر المسائل التي تواجه المستعمرين وتقلق باهم قيام الوطنيات القومية بعد فترة طويلة أو قصيرة من حكمهم للمستعمرات . ويظهر أن معظم كتاب الإنجليز الإداريين الذين اشتغلوا في إدارة البلاد الشرقية والأفريقية على اتفاق بأن عنصر الشباب المتعلم وفق المتاحج الحديثة هو الذى يسبب متاعبهم ويقلق راحة الأهليين الساكنين، فتكثر مراقبته لأعمال الحكومة الأجنبية، وينبه مواطنيه إلى مواطن الخطر والإستغلال في سياسة الإستعمار وبذلك تقوم الحركات القومية - حركات التحرر والإستقلال . ذلك ما حدث في الهند ومصر وغيرهما من البلدان الناهضة .

وقد كتب في هذا المعنى « اللورد لوجارد » حاكم نيجيريا سابقاً وأحد أقطاب الإمبراطورية الأفريقية . كذلك أشار إلى هذه المسألة « اللورد ملر » عقب زيارته لمصر تلك الزيارة المشهورة . ومن هنا كثرت مراقبتهم للتعليم والمتعلمين والتضييق عليهم . وطال تفكيرهم في هذا الصدد . ماذا هم فاعلون مع الأحزاب الوطنية التي تتألف عادة من الشبان المتعلمين فيطالبون بحصصهم في حكومة بلادهم إذا لم يطالبوا بالإستقلال التام ؟

إجابة على هذه المشكلة وخروجاً من هذه الحيرة الملحة إكتشفوا أخيراً ما أسموه بالإدارة الأهلية .

وقبل أن نناقش الإدارة الأهلية نرى لزماً علينا أن نقول كلمة عن ماهية هذه الإدارة ودائرة اختصاصها .

الإدارة الأهلية أو الحكم غير المباشر . أو الرجوع بالسلطة الحكومية إلى أول حياة القبيلة Devolution . هو أن تعطى كامل السلطة من قضائية وتنفيذية وتشريعية وما يختص بالتعليم والأمن وإدارة البلاد عامة إلى النظار والعمد والمشايع ، وأن يحكم كل ناظر قبيلته على حدة، وأن يتصرف في شئون أهلها بما يمليه عليه علمه أو جهله والعادات والتقاليد. وبالاختصار أن يحكم قبيلته ويدير شئونها كما كانت تعمل الجماعات الأولى منذ فجر التاريخ، لا يستند إلى قانون حديث أو إلى دستور نظامى سوى نظام العادة العتيقة وسطوة

العمدة أو الناظر. وعلى هذا يأمن المستعمر أن كل قبيلة وكل قرية تقريباً تساس على حدة .  
لا علاقة لها بالقبيلة الأخرى إلا علائق البحار ، ولا مشاركة بينهما في الشعور أو الوحدة  
القومية . وهذا هو النظام الإقطاعي في أبشع صوره . وعلى هذه الصورة يصعب قيام أمة  
ذات شعور واحد أو مصالح مشتركة ، بل ربما نتج عن ذلك التحاسد والتنافس بين هذه  
القبائل كما يحصل بين الأمم المختلفة .

فناظر القبيلة هو الذى يؤسس المحاكم القضائية فى القرى التى تقع تحت نظارته .  
وهو الذى يعاقب من يشاء بأى عقوبة يريد . وعليه أن يجمع الضرائب وأن يكون هيئة  
بوليسية داخل نظارته أو أمارته ، وأن تكون له مدارس خاضعة لأوامره وسياسته . وأن  
يعمل هذا بما توحى عليه العادات والتقاليد القديمة والسياسة الإنجليزية . وأن تكون مهمة  
المفتش الإنجليزي معه هى حصة الاستشارة . وإسداء النصيح والإرشاد فقط .

وقد أسهب « اللورد لوجارد » فى كتابه « الإنتداب الثانى فى أفريقيا الاستوائية  
البريطانية » فى هذا المعنى وطبق نظرياته هذه فعلاً فى البلاد التى كان حاكماً عليها كسجيريا  
وخلافها . وهو يعتقد أن الأنظمة السياسية الحديثة ، مهما يكن نصيبها من الصلاح فى  
أوروبا فهى بلا شك غير صالحة مع الشعوب الاسيوية والافريقية المتأخرة ، وأن التعليم  
أو الثقافة الاوربية لا تنتج خيراً فى العقول الافريقية ، وأن خير عمل هو أن تبقى الجماعات  
الافريقية على ما كانت عليه سابقاً . وأن تتقدم وفق عاداتها وتقاليدها من تلقاء نفسها ،  
ولذلك وجب على الحكومات الإنجليزية أن تعمل على تثبيت حياة القبيلة العتيقة ، وأن  
ترك الجماعات الافريقية على جهلها أو تعلمها ما تستفيد منه عملياً كالصناعات اليدوية  
وما إليها .

وغنى عن البيان أن إدارة حكومة السودان إلى سنة ١٩٢٤ أى إلى سنة خروج  
الجيش المصرى من السودان . كانت على وفق النظام المصرى . وليس للعمد والمشايخ من  
السلطة أكثر مما لهم فى مصر حتى الوقت الحاضر . إلا أن حوادث ١٩٢٤ قد نبهتهم إلى  
الأخذ بهذه السياسة التى تستعمل فى بعض بلدان أفريقيا كسجيريا وبوغندا وتنجانيقا .

لهذا وخوفاً من أن يعبد السودان فى تاريخه الحديث قصة الهند ومصر مع الإستعمار  
البريطاني شطوا فى الأعوام الأخيرة لتغيير سياستهم فى إدارة البلاد . ورأوا أن إدارة  
السودان من حكومة مركزية بيروقراطية فى الخرطوم على نهج الحكومات الحديثة لا بد  
موقعهم فى المشاكل القومية التى يخافونها ويعملون على تلقيحها . وقد نبههم لندس اللورد  
« ملر » الذى ظن أن الحركة المصرية إنما نشأت لأن الأفكار الغربية فى الحكم والتعليم كانت

سائدة في البلاد المصرية إلى آخر مقال !

ويقول الإنجليز أنفسهم ، في معرض الدفاع عن الإدارة الأهلية . أمام الرأي العام الأوروبي ؛ إنهم قد أعطوا السلطة لذويها وأنهم لا يحكمون هذه الشعوب مباشرة كما وهم يعتقدون أنهم قد قطعوا خط الرجعة لأي حزب وطني يقوم في المستقبل ليبادى « بأن السودان للسودانيين » لأنهم سيجيبون قائلين « وهو كذلك » ويشيرون إلى الإدارة الأهلية والمحاكم القروية وما إليها .

وقد ذكرت الكتابة الفرنسية « اوديتي كين » في كتيب صغير عن السودان هذه المسألة فقالت : قد شعر ولاية الأمور أن ليس من الحكمة تطبيق القانون الغربي على الشعوب الشرقية ، وأن الإدارة ربما تكون أشد ثباتاً إذ هي أعطت التقاليد القومية الفرصة الكافية . وقد عمل بذلك حاكم السودان الجديد ، وأوضح بصريح العبارة حين قدومه للبلاد أن نظام الحكومة البيروقراطى المنتشر الآن في السودان لا بد أن يعيد في المستقبل سلسلة الحوادث التى وقعت في الهند . وأن حبر مايعمينا من النداء الذى لا بد آت في المستقبل « السودان للسودانيين » أن نجيب عليه بحت « نعم هو كذلك الآن » .

فكل مايقال عن قلة تكاليف هذا النظام من الناحية المالية وماشاع عنه في أوروبا أنه حكم غير مباشر لصالح الأهالى إنما هو ذر الرماد في العيون . فالسبب سياسى بحت ، لكن ترى هل تنجح هذه الإدارة في السودان ؟ وهل هى إذا نجحت النجاح الظاهرى هل ستحميهم من إمكان وقوع سلسلة الحوادث الهندية التى يخافونها ؟

يمكننى أن أقول بالتأكيد إن الإدارة الأهلية تجربة فاشلة في السودان . ولا يمكن إلا أن تفشل ، وإنها بدلاً من أن تثبت النظام الحاضر في السودان وتبشر الأمن والرخاء في البلاد قد خلقت موجة جديدة من الإستياء وشعوراً شديداً بالمرارة في النفوس وعدم أطمئنان للمستقبل . ونفوراً من الأهالى وسخطاً . ونافراً لا يوصف من جانب المتعلمين وساكنى المدن لانتجح هذه الإدارة الأهلية في السودان لأسباب عدة نذكر أهمها :—

أولاً : ليس شك أن للسودان تاريخاً قديماً وحديثاً . وإذا تركنا تاريخ السودان القديم ، فلن هى تاريخ السودان الحديث مايكفى . فقد أدبرت شئون السودان من عهد الحكم التركى السابق كوحدة واحدة إلى سنة ١٩٢٤ ، واعتاد الأهالى واعتاد معهم النظار والمشايع أن ينظروا إلى الحكم المصرى أو حكم المهديّة أو الحكم الإنجليزى الأخير على أنه الشيء الطبيعى . فلا يمكن مهما تدرجوا في هذه الإدارة أن يقبلها الأهالى عن رضاء وحسن نية .

وماضك هؤلاء العمد والنظار الذين كانوا يساقون أمام المأمور وصغار الكتبة بإهانة  
وذلل فتعطى لهم السلطة فجأة ويحييهم المفتش رافعاً يده إلى جبينه . أى إنقلاب خطير  
يحدث فى نفسية الأهالى ! وفى نفسية المأمير والوطنيين المستنيرين ! بل أى إنقلاب  
يحدث فى نفسية العمد والنظار الخامل الأمى ! إنه لاشك يود إظهار سلطته الجديدة بكل  
مايستطيع الجهل والغباء أن يملى عليه - هذا ما حصل وسينبه فى حينه .

**ثانياً .** ليس السودان بالشعب الإفريقى الذى انقطعت علاقته مع العالم الخارجى .  
فالسودان قد اعتاد على حكم الدولة الموحدة وإخلاقه مازال متيناً للحضارة الإسلامية  
العربية التى لا يمكن أن توصى بحكام جهلاء . خصوصاً وأن فهم علاقات متينة مع الشعوب  
العربية التى يتكلمون لغاتها ويأخذون عن قادتها أفكارهم عن الحكومة والقوانين . فالوحدة  
العربية والوحدة الإسلامية قوية فى السودان حتى بين القرويين إلى درجة العادة . هذا  
إذا لم نذكر شيئاً عن علاقتنا الثقافية والسياسية مع مصر . فعن مصر يأخذ السودانيون .  
وإليها ينظرون فى محاكاة الأساليب والأنظمة . ولا يوجد شيء من حكم العمد والمشايخ  
فى مصر .

**ثالثاً :** إن هؤلاء العمد والمشايخ لم تكن لهم قط إلا فى فى خيال هؤلاء المستعمرين  
هذه السلطة التى أعطيت لهم ، نعم قد كانت للعمد والمشايخ بين الزراع القرويين شيء من  
المكانة هى مكانة الإستشارة والأب الأكبر ، يلجأون إليهم فى صعوباتهم العائلية والاجتماعية .  
وكان هؤلاء العمد يعملون على إرضاء أناسهم بالحسنى والخير . أما الآن فإن لهم سلطة  
مستمدة من سلطان الحكومة الأجنبية يدعمها الجيش والبوليس وهم لذلك قد تغيرت  
علاقتهم مع أناسهم على هذا الاعتبار . وفقدوا صفتهم الأولى وأصبحوا موظفين أجانب  
لا ينظر إليهم القروى نظرة الأبوة والإحترام الأولى . كما أن العمد لا يعمل على إبقاء تلك  
النظرة .

**رابعاً :** إن وجود فئة مستبيرة من أبناء البلاد لا تعترف بها الحكومة ولا تعبرها أى  
إهتمام أو تعطيها ما تستحقه من نصيبها فى حكم البلاد وخدمتها مما يثير سخطها  
وشعورها السياسى أكثر بكثير مما لو ظلت الإدارة تحت يد الإنجليز المسئولين مباشرة . وهذا  
ماستدل عليه بالحوادث ، فلأننى ما تحدثت إلى أى سودانى له أى نصيب من المعرفة فى زيارتى  
الآخيرة سواء من المتعلمين فى المدارس الحديثة أو من المتعلمين تعليماً دينياً إسلامياً إلا  
وكان مر اللهجة شديدة الإستهاء من هذه الارستقراطية الجديدة أو استقراطية الجهل  
والرجعة .

خامساً : إن وسائل هؤلاء المشايخ والعمد والنظار في الانتقام من عدو قديم أو حباة الأقارب والأقارب سخيصة تشبه في سخنها أساليب الأطفال ، فقد يطرد الناظر أو العمدة صاحب الأرض من أرضه لمجرد سبب شخصي ، وأن يزيد الغرامة على أى عدو قديم أو أى منافس له في الزراعة أو العمل . وليس هنالك إستئناف في حكم المحاكم القروية المعصومة من الخطأ تحت نظام هذه الحضارة التي تمخض عنها العقل الإنجليزى الحديث .

سادساً : إن إنتشار الرشوة وتقديم المصلحة الذاتية على المصلحة العامة في حكم المحاكم القروية . وتوقيع الغرامات الكبيرة لأقل سبب ، وإعطاء الأقارب والمحاسبين أراض وحقوقاً . وتقليل ماعليهم من ضرائب ، وفرض ضرائب كبيرة على أناس ليس عليهم تلك الضرائب ، مما يسارع بموت هذا النظام ويقضى عليه بأن يفقد احترامه وعدله بين الأهالى قبل أن نكتشفه الحكومة المركزية في الخرطوم .

نرى من هذا البحث القصير أن الإدارة الأهلية التي لم يعرفها السودانيون قبل سنة ١٩٢٤ . إنما هي وليدة الحاجة السياسية للقضاء على مستقبل السودان السياسى من قبل حركة قومية مستنيرة يقودها رأى العام السودانى المستنير . وهي أيضا حيلة سياسية لصد المفاوضات المصرية في مسألة السودان بأن السودان أصبح يحكم نفسه بنفسه . وهي أيضا تحل عن المسئولية عن حكم البلاد مباشرة والقاء سوء الإدارة على الأهالى أنفسهم بأن القوها على عاتق رؤساء القبائل الجاهلاء وتقادوا أو ظنوا أنهم بذلك يتفادون مسئولية سوء الحكم . كما أنهم أرادوا بها أن يوسعوا هوة الخلاف بين الآباء والأبناء المتعلمين ، وأن يعملوا دافعى الضرائب يكرهون مشايخهم ورؤسائهم فينادون بأن حكم الرجل الأبيض أعدل وأحق . وأنت ترى من هذا الأعراض الجهنمية التي يعمل لها هؤلاء الناس .

على أننا نسأل سادتنا الإنجليز ، إذا كان السودان يحكم نفسه بنفسه عن طريق رؤساء القبائل كما يقولون . وإذا كانت مسئولية الإدارة غير ملقاة على عاتقهم ، فيماذا يبررون وجودهم في تلك البلاد ؟

## الإدارة الأهلية ومسئولية الإنجليز

أوضحنا في المقال السابق نشوء فكرة الإدارة الأهلية وبعض الأسباب التي ترى من أجلها أن هذه التجربة في إدارة السودان لاشك فاشلة . ونحن الآن بسبيل الحديث عن بعض نتائج الإدارة الأهلية التي بدأت تظهر والتي ستظهر أشد قوة وتأكيذاً في المستقبل . ثم بيان مسؤولية إنجلترا نحو هذه الرجعية في السودان وأفريقيا عامة بما تثيره من عداوات الأجناس ومرارة شعور السودانيين نحو إنجلترا . إذ هي تعمل عامدة على بقاء الحالة الأولى لنشوء الجماعات السودانية وتبسط كل عوامل الرقي والحضارة . لأنها تعتقد أنه في بقاء الحالة الأولى للسودان ضمان مركزها الأبدي فيه . وسياستها من هذه الوجهة يمكن أن تعتبر أكبر قوة رجعية في العالم تحارب هوى الأمم والشعوب الأخرى إلى مستوى من الحضارة والمرقي الحديث .

فهم بعد أن فشلوا في التفاهم ناهماً ودياً صحيحاً أساسه المصلحة المشتركة في التقدم المادى والروحى مع العناصر المستنيرة في الهند ومصر . فسوا أن خلاصهم إنما يكون في التكتاف مع مشايخ القبائل وممثل القديم من العادات والتقاليد . وليست هذه كما نرى بالنتيجة التي يحصلون من أجلها ؟ بل إنها علامة الفشل الأكيد ونذير تفكك أمر اطوريتهم العتيقة . لأنها ليست بالشئ الطبعى المنطقى الذى يقره التاريخ أو منطق الجماعات ونفسياتها . وقد وجعلوا أنفسهم أمام نظام حديث في السودان كانت الحكومة المصرية وهم أنفسهم أول من أسسه، فلما أرادوا أن يرجعوا بالبلاد إلى الوراء وجدوا أن هؤلاء النظار والعمد والمشايع قد فقدوا سلطتهم القديمة التي كانت لهم في سابق الأزمان . فبدأوا يحاولون من جديد لإرجاع السلطة إليهم وتقوية شوكتهم وشد أزهم . ولكن هيهات ! فعوامل الرقي تعمل في العصر الحديث كالتار الملتهم . وليس في مقدور إنجلترا وحدها أن تسيطر على العوامل الحديثة التي تعمل لتغيير الأفكار والنظم والتقاليد وإن عملها مفردة في مستعمراتها مثل هذا العمل مما يدعو إلى الرثاء لها والشفقة عليها . إذ أنه من البديهي المقروغ منه أن حكومة واحدة مهما بلغت من القوة والخيروت لاستطيع صد تيار التفكير .

فهؤلاء المشايخ والعمد - بضبيعة جهلهم وعقليتهم القديمة - يعاكسون كل تقدم ولا يرضون عن أى شئ لم يعرفه أجدادهم . بل إن أى أسلوب جديد لعمل شئ قديم

مكروه لديهم بغض لنفوسهم . فهم لا يريدون أن يتكيفوا وفق العصر الحديث أو يبدلوا شيئا من أفكارهم القديمة الآسنة . لأنهم يعتقدون عن حق أن في التقدم وتكييف أساليب الحياة وفق مقتضيات العصر الحديث قضاء على سلطتهم القديمة . قضاء على سلطتهم المطلقة الجاهلة العمياء في النهي والأمر . وقد عرف فيهم المستعمر هذه الصفات فلجأ إليها وأفهمهم أن أبناءهم الذين يتعلمون في المدارس يحتقروهم ويودون انتزاع السلطة من أيديهم وبذلك استطاع هذا المستعمر أن يعمل للخلاف بين الآباء والأبناء وأن يعمل لتوسيع هوة التفور بينهم . وطبعاً أن يصدق هؤلاء المشايخ والعمد ما يقال لهم . لأن ليس لهم العلم أو النظرة الحكيمة التي يضعون بمقتضاها مصالح أممتهم فوق مصالح أشخاصهم في السلطان أو المال . وقد شرع هؤلاء المشايخ بثأرون لعداوات قديمة . فهم الآن قد يطردون أناساً لا ذنب لهم من أراضيهم . وقد يفرضون الغرامات الكبيرة لغير سبب سوى أن جزءاً كبيراً منها يدخل إلى جيوبهم !

وقل لي بربك كيف يصف رجل جاهل تعطيه السلطة وتقول له : « لك أن توقع الغرامات على من تريد . وإن لك حصة النصف من هذه الغرامات المالية » !

لاشك أن مثل هذه المعاملة مما يساعد على انتشار الرشوة وقيام المحسوبيات ونشوء الخزازات وتدهور الحياة الخلقية للقرية !

وفي نجاح هذا النظام ولاشك قضاء مبرم على مستقبل أى بلد من كل النواحي من ناحية الاجتماع والعدل والسياسة والثقافة والخلق .

فتكاتف الانجليز إداً مع أنصار الجهل والتدريج لبقائهم في البلاد وتثبيت مكانتهم لا يمكن أن ينظر إليه أى عارف إلا على أنه سياسة قصيرة النظر لا يمكن أن تثمر أو تبقى إلا قليلاً . وأنها تدلّ على أن ثقت أقدامهم في تكسبهم عداوات الشعوب وتذكى ضدّهم حفيفة أنصار النور والعلم والعدل .

ثم اننى لا أعرف هذه المخاطرة من أمة كالأمة الإنجليزية لها تاريخ في ثقافة العالم . أن نجى في آخر أيامها وتتحمل مثل هذه المسؤوليات الجسام أمام التاريخ والحضارة . إن كان هذا الأسلوب هو آخر أسلوب من حيلها لتبقى حية فهي بلا شك قد نفذت حيلها . وإن كانت إنجلترا تقوم بهذه التجارب في السودان وأفريقيا عامة وهي عارفة — فهي بلا شك تتحرر .

## سياسة التعليم في السودان .

إذا ما أنتقد الإنجليز أو سئلوا في الشرق أو الغرب : لماذا تحكمون الشعوب الآسيوية والافريقية ضد إرادتها . ولأى سبب تبكون بين أقوام يكرهونكم وتلحون على البقاء ؟ » أجابوا بصوت واحد في غير خجل ولاحياء : « إننا نحكم هذه الشعوب المتأخرة لصالحها أيها السائلون ، لأنها أمانة في عنقنا نحو الحضارة . نعلم ونرقي وننشر الثقافة والصحة والرفاه بين الأهليين . « ونمر أعوام وأعوام على حكمهم للبلاد ، فلا ثقافة تنشر ، ولا رخاء يعم ، ولا علم ولا تعليم ! ولو صدقوا لقالوا : « إننا نحكم هذه الشعوب المتأخرة لأنها لا تستطيع أن تقاوم أيها السائلون وبذلك نستطيع أن نسخرها لتعمل لنا وتمدنا بأسباب الحياة والراحة والهناء . فإذا كان الثراء يجعلها ثور فتياً بلغنى ومرحاً بالفقر النصير . وإذا كانت الصحة تولد لنا المشاكل والمصاعب فلا كانت صحة ولا عافية بل إن في الملاريا لعم النصير . وإذا كان التعليم يهدد سلطتنا المطلقة بالزوال — وما أظنه إلا كذلك — فلنعلن الحرب على العلم والمتعلمين » .

ويظهر أن حكومة السودان أمية على هذا العهد غيرورة على تنفيذه . فسياسة التعليم في السودان لم تكن في يوم من الأيام ترمي إلى نشر الثقافة والعلم بين أبساء البلاد . وإنما كان أكبر همها فيما مضى أن تخرج موظفين وطنيين يشغلون الوظائف الصغرى في الحكومة . فأما الوظائف الكبرى فهي بلا شك للإنجليز . وأما الوظائف الوسطى للسوريين والأرمن والاعريق وما أشبه من الأجانب .

كان هذا التعليم على قرب غايته وضآلة مهمته مقبولا بعض الشيء بكلية غردون . فقد تخرج من الكلية في أعوامها الأولى شبان أكفاء في التدريس والهندسة والقضاء الشرعي والوظائف الكتابية ؛ لأن الأساتذة الإنجليز إلتدبوا خيرة المدرسين المصريين أمثال الشيخ الحصري والشيخ الجداوى والاستاذ عبد الرؤوف سلام للتدريس في القضاء الشرعي والعلوم الدينية . كما أن رجالا أمثال الاستاذ هدايت بك وعثمان فريد كانوا يزبون التعليم المصري بكلية غردون ، ويحثون الشيبة السودانية على الدرس والقراءة والإجتهد . وقد ظل الأساتذة المصريون الكفاء الى عام ١٩٢٤ يشغلون أهم الوظائف في التدريس



الثاوي والامتدائي الى أن جاء ذلك العام المشؤم فاستغنى عن خدماتهم وحل مكانهم بعض الأساتذة السوريين . ثم أصبح تاريخ التعليم منذ ذلك الحين مأساة تملأ مأساة

والأساتذة الإنجليز الذين يدرسون في الكلية يختارون من السلك السياسي لقضاء عدة أعوام يتمنون فيها على الحكم لاعلى للتعليم بين طلبة العلم وصفوة أبناء البلاد . والحقيقة أنهم يتقصون أعوامهم في الكلية « تحت التجربة » فمن أفلح فيهم وأجاد وسائل العنف والشدة والضغط والاستبداد رقى سريعاً لوظيفته في السلك الإداري؛ إذ أنه قد اجتاز الامتحان وأمضى مدة « التجربة » على أحسن مايرام . ومن يرى هؤلاء الأساتذة يضيّقون على الطلبة ويرهقونهم بكثرة الأمر والنهي ويعاقبونهم على أقل هفوة أو بادرة بالجلد الصارم والعقاب الشديد لعله الأمر ولظن نفسه في ثكنة من ثكنات العساكر لافي معهد للتشريف والتعليم . ويظن أصحابنا « المحاضرون » أن هذه أجدى طريقة لتخريج شبان طائعين مخلّصين . ولقد خاب ظهم حتى الآن ! وأغرب مايدعرو إلى الدهشة أن ساداتنا الإنجليز يتعجبون من مرارة فجة طلبة كلية غردون وبغضهم إياهم فيقولون « إن التعليم لايفيد السودانيين لهذا الدليل » . وفاتهم أن التعليم مهمة دقيقة لايفضّل بها حتى في البلاد الحرة إلا كل خير يشنون التعليم لايشنون الاستبداد . وأن الاستبداد ووسائل القهر والضغط في التربية ليس أفضل منها ولا أبعد منها عن الصواب .

فالطالب في كلية غردون لايعامل على أنه طالب علم من أهم خصائصه العطف والشفقة المتبادل . ولكنه يعامل كجندي تطلب منه الطاعة والخضوع بالجلد والحبس ومر العقاب .

ومهاج التدريس في كلية غردون غريب في بابه . فليس هنالك مجال للعلوم الطبيعية أو التاريخ الحديث أو الآداب . وإنما معظمه تمرين على الآلة الكاتبة أو على شؤون الهندسة العملية والحاسبة لكي يملأ الطالب وظيفة صغيرة في الحكومة لايفلح في عمل سواها ولايمقه شيئاً في عالم الأدب والتاريخ والإجتماع .

وقد شكنا إلى أكثر من أستاذ سوري كان يعمل بالكلية أن ليس هنالك برنامج ظاهر يسير المعلم على سهجه . خصوصاً في مادة التاريخ . فإن الكلية لاتصرف للطلبة الكتب التاريخية المكتوبة لمثل هذا الغرض أو تشجعهم على إقتنائها . لأنها تعتقد أن الطالب ربما يقرأ في مثل هذه الكتب أشياء عن الحركات القومية . والمستعمر يود للشباب السوداني أن يبقى على جهله بهذه الأشياء . ولقد فات هذا المستعمر « النبيه » أن الطالب إذا لم يقرأ عن هذه الحركات القومية في كتب علمية . فهو لايد سامع أو قارئ عنها في كتب وصحف غير

علمية . وهنا « البيع » المخيف ! فيخرج الطالب « المختلطان الذي يحترم نفسه » كما يسميه « اللورد لوجارد » لا يعلم شيئاً عن تطور العالم ولا يهيمه شيء عن ذلك !!

فلذا عرف القاريء أن كلية غردون هي المدرسة الوحيدة للتعليم الثانوي في كل القطر . وعرف أن بالخرطوم مدارس ثانوية عديدة للجانبات الأجنبية محطور عليها من الحكومة السودانية أن تقبل الطلبة الوطنيين . لأن بها شيئاً من التعليم الحر . عرف نوابا هؤلاء القوم فيما يتعلق بتربية الناشئة السودانية وإلى أى حد يعاكسون الثقافة ويحاربون النور .

ولأضرب مثلاً صغيراً وقع لي . لأنه دليل واضح على سياسة التعليم في تلك البلاد . بعد أن أتممت دراستي بكلية غردون وأردت أن أتعلم في الخارج لحسابي قامت في وجهي عراقيل كثيرة . فتارة يمانعون في إعطائي جوازاً للسفر . وطوراً يفهموني أنني سوف لا أوظف في الحكومة عند عودتي . وحيناً آخر يعرضون علي مرتباً ضحماً لكي أثنى عن عزمي . فلما لم ينفع كل ذلك . ذهبت إلى جامعة بيروت الأمريكية . وتخرجت ثم ذهبت في الصيف الماضي إلى الخرطوم ، وطلب مدير المعارف هناك مقابلتي . وكنت مرشحاً للتعليم بكلية غردون فذهبت إليه وقابلته ودار هذا الحديث الذي لا يخلو من فكاهة بيني وبينه .

قال : سمعت أنك حجة في العلم بالدكتور « جونسون » !

قلت : « ليس شيء من ذلك . وإنما أنا أحب الرجل وأقرأه » .

قال : لماذا ؟

قلت : « لأنني أعتقد أنه يمثل الرجل الإنجليزي وخلقه تمثيلاً صحيحاً في أكثر نواحيه !  
وشعر مدير المعارف عندئذ أن الموقف يتطلب منه التعليق . فقال هذه الجملة التي تدل على مقدرة فائقة على الخطأ :

« إن « جونسون » ولاشك أحد أولئك الرجال الذين عاشوا مائة عام قبل أوانهم !  
والذين يعرفون أقل شيء عن « صامويل جونسون » يدركون أن هذا الحكم ربما يصدق على أي رجل آخر ولا يصدق عن « جونسون » . ويمكن أن يقال إنه إذا كان هناك أديب مثل عصره تمام التمثيل فهو « جونسون » . فإن الناقد لا يمكنه أن يتخيل « جونسون » سوى أديب إنجليزي عاش في القرن الثامن عشر . ولكنها الجملة المحفوظة لعننا الله .  
وعلمت عقب محادثتي هذه معه أنه كتب عني إلى من يهمهم الأمر :

« Not the type, too clever. »

ومعنى ذلك بالكلام البلدي « من العينة المطلوبة . ده بينهم ! » ثم قال بعد ذلك

لبعض محدثيه من الوطنيين في معرض الحديث عن العلم والمتعلمين وقد طرخوا سبيري  
هو زى واحد انجليزى . ويعرف كلمات أنا ما أعرفهاش ! ه ولهذا السبب فأنا خطر  
— على زعمه — فى كلية غردون، لا يمكن قبول مدرساً بها . بل الأفضل أن أكون بعيداً  
عن الطلبة والتعليم !

فتمت كانت الثقافة عيباً لا يقبل من أجلها الإنسان مدرساً إلا فى السودان وتحت حكم  
سادتنا الإنجليز فاشرى العلم بين الشعوب الجاهلة !

وإذا إستشينا كلية غردون — وهى المعهد الوحيد للدراسة الثانوية — فإن التعليم الابتدائي  
فى القطر بأجمعه محصور فى عشر مدارس لا يتجاوز طلبتها أكثر من ١٢٠٠ طالب .  
والتعليم الأول من بين وبنات لا يتجاوز طلابه أكثر من ١١٠٠٠ . هذا مع العلم بأن  
عدد سكان القطر السودانى لا يقل عن ٦ ملايين نفس بهم علماً شديد للعلم والتعليم .

وقد كان عدد طلبة كلية غردون فى عام ١٩٣٠ نحو ٥٥٥ طالباً . ونقص العدد  
هذا العام الى نحو ٤٠٠ طالب . وسيخفض الى ١٢٠ طالباً فقط فى المستقبل القريب !

ولست أدرب طلبة كلية غردون فى العام الماضى لسوء معاملتهم فى الوظائف  
الحكومية . ومنذ ذلك الحين ابتدأ الإنجليز فى الحرطوم يفكرون فى قفل كلية غردون  
أو جعلها مدرسة صورية أكثر منها فعالية . وتغيير سياسة التعليم كلها ، لأنهم يعتقدون أن  
سياسة التعليم فى السودان كانت سخية فيما مضى . وأن التعليم الحاضر ثوب فضفاض  
زائد على حاجة البلد . وقد ابتدأوا ينفذون هذه السياسة الجديدة التى ترمى إلى توسيع  
نطاق التعليم الأول أو مايسمونه ه بالمدراس القروية ه وتكون تحت إشراف الإدارة الأهلية  
والمفتش الإنجليزى . ولا يأمل الطالب بعد تخرجه منها أكثر من أن يعرف الكتابة والقراءة  
العربية . وأن يبقى حيث كان فى قريته . وأن تكون هذه المدارس بعيدة عن المدن لأنهم  
لا يريدون للطلبة الاختلاط بالعناصر المستنيرة الموجودة فى المدن فيتسع أفق إدراكهم  
وتنمو أسباب قوميتهم !

وترمى السياسة الجديدة أيضاً إلى نقص عدد المدارس الابتدائية ، وتكون هى الأخرى  
بعيدة عن المدن للسبب عينه . وتحت إشراف الإدارة الأهلية الجاهلة ، وملاحظة المفتش  
الإنجليزى . وأن تأخذ المديرية ما تحتاجه من صغار الكتيبة من حريجي المدارس الابتدائية :  
وأن يقسم السودان لهذا الغرض إلى أقاليم متعددة . وأن لا تكون هناك وزارة معارف  
مركزية مثل ما هى عليه الآن . بل تصبح مسألة تأسيس المدارس وقفلها مسألة إدارية  
وفقاً لأهواء النظار والعمد والمشايخ . وما يحل عليه المستعمر الإدارى ! وقد خبجت

كل العناصر المستثيرة الوطنية حينما سمعت بهذا الخبر ، وأرسلت احتجاجات كثيرة على هذه السياسة التعليمية الخديثة التي ترمى إلى قتل التعليم وجعله أمراً محلياً لكل قرية ولكل قبيلة على حدة .

ولقد كانت النية معقودة على قفل كلية غردون وأشيح أن مجلس المديرين في اجتماعه الأخير قرر ذلك ، إلا أن مجلس الحاكم العام لا يرى ذلك الرأي الآن ، ذلك لأن على الكلية رقابة خارجية في لندن لاتوافق على قفل الكلية التي تعان مادياً من بعض من همهم ذكرى غردون في لندن .

إذا عرف القارئ أن ميزانية حكومة السودان تزيد على أربعة ملايين من الجنيهات ، وأن ما يصرف على التعليم لا يتجاوز ١٤٠ ألف جنيه ، علم سوء إدارة تلك البلاد . وقد أخذ المبلغ المخصص للتعليم فيما مضى ينقص هذه الأيام . فلقد كان المنصرف على التعليم في عام ١٩٣٠ نحو ١٩٤٠٩٥٥ جنيهاً والدخل هو ١٨٤٣٠٨٤٣ جنيهاً فنقص المنصرف على التعليم في ميزانية ١٩٣١ إلى ١٦٦٠٦٣٣ جنيهاً وزيد الدخل إلى ٢٤٠٥٢٨ فكأن صافي ما يصرف على التعليم لا يتجاوز ١٤٠ ألف جنيه معظمها مرنبات للإنجليز .

بقي أن نسأل أهذه هي سياسة التعليم المالية والثقافية التي يبقى من أجلها الإنجليز في السودان ؟

إنني أؤكد لحكومة السودان أن سياستها في حصر التعليم وتضييق نطاقه وجعله عملياً محلياً ، ومعاكسة كل من يود أن يتعلم في الخارج ومناهضة المتعلمين واضطهادهم في بلادهم لسياسة نصيبها الفشل كما فشلت سياستها الأولى ، وأن هذه الأشياء التي تأتيناها حكومة السودان تثير أسباب الاحتكاك أشد مما كان ، وتملاً للنفوس مرارة عليها وموجدة ضدها . وإذا كانت تعتقد أن خلاصها إنما يكون في إتخاذ مثل هذه الإحتياطات الجائرة فإنها تخطيء وهي بذلك تتعجل شعور السخط عليها والنفور من سياستها ويفضها من جميع الطبقات على اختلاف أرائهم وعقليانهم .

## الاهالي بين المرض والصحة .

من أهم مايتعلل به المستمر في السودان ويدعيه لنفسه وجهده أنه يحارب الأمراض الفتالة في تلك الأصفاع المجهوثة وينشر مكانها الصحة والعافية ، وأن رجاله يعرضون أنفسهم للموت والأخطار في سبيل مكافحة الأمراض وإنتشار أسباب الصحة والراحة بين الأهالي . فما نصيب هذه الدعوة من الصحة ؟

نصيبها من الصحة نصيب كل دعوى كاذبة بشرها المستعمريين من لا يعرفون حقيقة الأمر في أوربا والشرق ، وحظها من الكذب والبهتان مما يلمس باليد ويعرف بالخبرة ويرى بالبيان .

فما أعرف أمة تشقى بالمرض والألم الجسماني مثل مايشقى السودان . وما أعرف شعباً سرقته مته حيويته ومقدراته على العمل والإنتاج مثل الشعب السوداني . فالمالاريا والدوسنتاريا والبلهارسيا وخلافها من الأمراض المضحكة لتجسم المنهكة للقوى مازالت تعمل بين جميع أهالي السودان عملها القاتل وخاصة بين الفلاحين - عمود الأمة الفقري ورجالها العاملين - وقد ازدادت الأمراض في الأعوام الأخيرة إزداداً مخيفاً وأنتشرت أمراض جديدة لم تكن معروفة بهذا القدر في سابق الأيام . وعندى أن العاقبة ومايتبع عنها من سوء التغذية ورداءة السكنى هي السبب الأول في انتشار الملاريا والدوسنتاريا وانتشار الجدري بطريقة وعلى منوال مفرع في مديرية دارفور . فقد توفي من الجدري وحده في مديرية دارفور في أعوام ثلاثة نحو ١٢٩٣ نفساً . هذا هو الإحصاء الرسمي . ومن يدري؛ فلعل مالم يحص أو مالم يستطلع إحصاؤه كان أكبر من هذا العدد وأشد هولاً !

وقد زرت أثناء الصيف الماضي بعض مدن وقرى النيل الأزرق ومديرية الفونج ، فرأيت الفلاح السوداني عن كعب يعمل بصبر عجيب وهو يكاد من الجوع والمرض لا يستطيع الحراك . وقد رأيت أولاده يسكنون معه في كوخ صغير من القش لانوافذ له وليس به أى أثاث . رأيت هذا الرجل يعمل والعرق ينصب من جبينه وسط المستنقعات الموبوءة بالبعوض . فإذا فرغ من عمل يومه اوى إلى كوخه منهوك القوى ليشاول طعامه . وما طعامه سوى الليرة المسلوقة فحسب . ورأيت أولئك الأبناء تعصف بهم الملاريا فإذا

يبتلونهم متفوخة واردة . وإذا بلونهم شاحب هزيل . « التراكوما » هي الأخرى تكاد  
تودى بأبصارهم . وهم عراة الأجسام ، ضعيفو البنية ، يغدون ويروحون تحت ذلك الهجير  
الملتهب . كيف نطلب إذاً من هذا الرجل الميت أن يعمل فيجيد العمل ويمنج الثروة للبلاد ،  
ونحن لانهيء له مسكناً صالحاً ولاطعاماً مقبولاً ولاصحّة في بدن أو أملاً في راحة مقبلة  
أو سعادة منتظرة !!

إن حمى الملاريا معروفة لدى الطب بأنها أشد الأمراض سحقا للجسم وإمتصاصاً  
لحيويته . ويندر أن نجد فرداً في السودان سواء أكان موظفاً أم تاجراً أم مزارعاً لم يصب  
بالملايا مرات ومرات . كما أنه يندر أن نجد ذلك الرجل الذي لم ينتبه مرض الدوسنطاريا  
في فترات من حياته ، إذا كان هذا شأن أعلى طبقة في البلاد من الوطنيين فكيف  
يكون شأن سكان القرى رعاة المواشى وزارعى الأرض ؟ لاريب أن حياتهم بأكملها  
سلسلة واحدة من المرض والضعف ربما تخللتها شهور يقظة وإنتعاش كالشمس تبدو بين  
الضباب لحظة لتختفي ساعات وساعات .

ألم يكن أولى بسادتنا الإنجليز بدلاً من أن يسألوا لماذا لم تنتج الأرض أن يسألوا  
هل كان ذلك الفلاح العامل قوياً على الإنتاج ؟

ألم يكن أولى بسادتنا الإنجليز بدلاً من إنشاء البيوت لجماعة الموظفين الإنجليز وزيادة  
الضرائب على الوطنيين للآفاة الأزمة وتسوية الميزانية أن يسألوا : ماذا أعددتنا للفلاح  
العامل من وسائل الصحة والعيش ليقى عاملاً قادراً على الإنتاج ؟

ذلك أولى بالسؤال وأخرى بالجواب .

والإنجليز لم يكتفوا بأن يقفوا متفرجين على آثار الملايا والدوسنطاريا بين الوطنيين  
بل ساعدوا أخيراً على إنتشار مرض البلهارسيا في الجزيرة بإستخدامهم للعامل الرخيص ؛  
فقد إستجلبوا عمالاً من غرب أفريقيا من قبائل « الفلاته » وخلافها من القبائل المتأخرة .  
وقد أعتمد هؤلاء العمال الذين يعملون في رى الجزيرة أن « يتبولوا » في مجرى القناة  
التي تسقى الأرض ومنها يشرب الفلاح ، وبذلك أنتشرت البلهارسيا إنتشاراً مريعاً بين  
الفلاحين السودانيين وزادت في ضعفهم وعدم مقدرتهم على العمل . ولوحظ في الأعوام  
الآخيرة أيضاً أن أمراضاً مثل « الجذام » و « السل » قد أنتشرت بدرجة لم تعرف من  
قبل في تلك الديار .

ولقد رأيت بعض الشبان في قرية من قرى مركز سنار مرضى « بالملايا »

و « التراكوما » فلما تحدثت اليهم « ألا يمر بكم الدكتور هنا » أجابوا بصوت واحد ملئ  
بالرجاء والإستعطاف « كلم المفتش يا جناب الأفندى » ثم سألت ، وقد رأيت في بعضهم  
ذكاء ونشاطاً رغم كل مظاهر الفاقة والمرض : أليس عندكم كتاب ( مدرسة أولية ) هنا  
أجابوا « كان زمان فيه مدرسة هنا . ويمدين شالوها . والعمدة طلبها ثاني من المفتش .  
لكن لسه ماجابوها » .

هؤلاء هم السودانيون العاملون دافعوا الضرائب وزادوا الأرض ، الذين من أحلهم  
ذهب الإنجليز السودان لنشر الحضارة والتقدم بينهم ، يعيشون في فقر مدقع ، ومرض  
متواصل ، وفقر روحي وجعل لا يوصف !

وقد حدثني طبيب سوداني كان زميلاً لي بكلية الطب إنه كثيراً ما يهيم بالقيام بجولات  
في القرى التي تقرب من مركز عمله لمعالجة المرضى ونصحهم ولإعطائهم ما يتيسر من  
الدواء . فكان رئيسه الإنجليزي يمنعه من ذلك لأنه لا يود أن يتصل الطبيب السوداني بالمرضى  
من سكان القرى ، لأن ذلك العمل يؤدي إلى إحكام الصلة والعطف بينه وبين الأهالي ،  
والمستعمر لا يود ذلك . فإذا أتاحت له الفرصة — وقل أن تتاح — قام بنفسه بمثل هذه  
المعالجات في القرى لكي يزداد الأهالي إعجاباً بالرجل الأبيض لا بالأخ الأسود !

إن كل ما يقال عن محاربة الأمراض في السودان ذو طرماد في العمود . وإذا كانت  
هنالك بعض مستشفيات حكومية ، وكانت هنالك بعض إحتياجات ، وإنما كانت كذلك  
لأن صحة الموظفين الإنجليز تستلزم ذلك ، لا لأن صحة الأهالي تستوجبه . والدليل على  
هذا أنهم في كل مدينة وكل مركز ينفلون مبدأ عدم الإختلاط في السكنى ؛ فينون  
مساكنهم بعيداً عن المدينة الوطنية بنحو ٥٠٠ ياردة ، ويحرمون على أي سوداني أو أجنبي  
السكنى بالقرب منهم . وقد رأيت بعض هذه المنازل الإنجليزية في ود مدني ، فرأيت الجنان  
الخضر ، والشوارع المنظمة ، وميادين التمسق الفسيحة ، وكل بيت من هذه البيوت مجهز  
بالسلوك الواقي من البعوض ، وبكل وسائل الراحة والرفاهية والوقاية . حقاً أن حكومة  
السودان سخرت في محاربة المرض وتوفير أسباب الراحة . وإنما للإنجليز لا للأهالي وإن  
كانت على حسابهم . كل هذا على حساب مالية الجمهور . ماذنب هذا الجمهور المحروم  
من العيش والحماية بثقل كاهله ببناء بيوت تعد فخمة مترفة في أرقى عواصم العالم ؟  
نعم . نعم . إنما ذلك لمحاربة المرض وإنتشار الصحة بين الأهالي !

ألم تفهم أيها القارئ العزيز ؟ جدير بك أن تفهم هذه الرقة الإنجليزية !

ومن قبيل محاربة المرض وتعميم الصحة بين الأهالي ما يقول به اللورد « لوجارد » ،

وهو ضرورة العناية بالطبخ للموظفين الإنجليز ، وأن تؤسس في المدارس الحكومية فصول  
لتعليم بعض ناشئة الوطن أصول الطهي الإنجليزي لكي يتخرج الشاب الوطني فيجد  
مركزه مهياً كطباخ كفه لأحد الإنجليز !

فإذا لم تؤمن بأن هذه الوسائل هي من قبيل محاربة المرض وتعميم الصحة والثقافة بين  
الأهالي فأنت لاتفهم المنطق ولم تستفد من التعليم ، جاحد بلجميل الإستعمار . كافر بنعمة  
الإنجليز !



فى الثقافه العامه

## فن التفكير .

« ارنست دمنت » كاتب فرنسى معاصر ، يجيد الكتابة فى الإنجليزية إلى حد كبير . ولقد ألف معظم كتبه فيها كما ألف فى الفرنسية واللاتينية الشئ الكثير . والذى يعنينا الآن هو كتابه الذى وضعه أخيراً وأسماء « فن التفكير » . ولقد وضعه بالإنجليزية فأبان مقدرة واجادة يغطه عليها الكثير من الإنجليز أنفسهم . ولقد أثار هذا الكتاب إهتمام الصحف الأدبية واهتم به أساتذة الجامعات ورجاللات الفكر . فكتبوا عنه وتحدثوا عن مكانته الأدبية كثيراً . ولقد كان بحق كتاب السنة الماضية لما شغله من أعمدة الصحف وما أثاره من الجدل والتحدث عنه . ولطه الأسباب أردت أن أشرك القارىء معى لدة هذا الكتاب الطريف .

فن التفكير ! كلمة ساحرة جذابة . فلتفكير إذن فن . ويمكن لمن يجيد هذا الفن أن يفكر تفكيراً صحيحاً منتجاً وأن يكون عبقرى خالفاً . ذلك مايتبادر إلى الذهن من مثل هذا العنوان الساحر ! نعم . إن فن التفكير هذا . لا تخلفه الرغبة فى التفكير إن لم تكن تلك الرغبة كامنة فى الفرد . ولا هو يدعى خلق عباقرة خالقين ! فالرغبة لا تخلق ولا العبقرية تصنع . ولكن حسب هذا الفن أن يساعد من عنده الرغبة وأن يظم جهوده ويعينه على التفكير الصحيح ! هذه هى رسالة الكتاب التى حاول المؤلف إيلاؤها ، وقد نجح إلى حد كبير . وكتاب يوضع فى فن التفكير ينتظر القارىء أن يكون جافاً لما عليه من الصبغة المدرسية التهذيبية ، ولكن هذا مانعناشاه المؤلف . فقد وضع كتابه ولم يفشل فى أن يجعل سطوره تشع نوراً ، ولم يفشل فى أن يلد القارىء ويمتعه كثيراً ، بل انه ليتحدث إليك فتجس بالصديق تستمع إليه من غير أن يتمل عليك . وما تنصك تتطلب منه المزيد وأنت أشد ماتكون إصغاءً وولوعاً ، ذلك لأن فى هذا الكتاب من إمتاع القصص ، وقارص النقد ، ولذعات السخرية . وصحكات التهكم ، ورقيق الملاحظات ما من شأنه أن يسر ويلذ القارىء ، والشئ الطريف فى هذا الكتاب هو هذا الأسلوب الجذاب الذى كتب به المؤلف بحثه فأحاد ووفق وأى توفيق !

يبتدىء المؤلف فيقول ليس هنالك ماتدعوه فكراً من غير أن يكون لهذا الفكر صور وخيالات ذهنية — فليس هنالك شئ مثل « العقل الصرف » . وهل يمكن الإنسان أن يفكر فى شئ من غير أن يستحضر صورة ذلك الشئ حتى حينما يفكر فى « الجمال » أو « العفة » أو ما إليها تتصور صورة لإنسان هى عندنا مثال الجمال أو العفة — ولكن من هو المعكر ؟ ..

هو ذلك الشخص الذى يرى جيشاً لا يرى الآخرون، والذى لا تقع عينه على خلاف مانفع عليه الأعين. غير أنه يرى فيها مالا يراه بقية الناظرين. ثم يعرض المؤلف لعوائق التفكير يملحسها فى نزعة التقليد الاجتماعية وفى التربية والتهذيب بنوع عام : فالطفل حينما يكون فى التاسعة أو العاشرة أكثر ما يكون استقلالاً فى الفكر . وتوثباً فى الخيال . قد لا يقل نوع تفكيره من تفكير العبقري الناضج . ففى أسئلته الكثيرة . وفى تشوقه وتعطشه لمعرفة الأشياء دلائل على صحة ذهنه وإتجاهات فكره الأصيل . ولكن نراه قد ترك ذلك جانباً حالماً كبير وذهب إلى غرف المدرس . وكان يجب أن تكون التربية المدرسية من محفزات التفكير . ولكنها ولسوء الحظ من عوائق التفكير بل هى داؤه الوبيل . فالطالب قل أن يترك لنفسه يسمى قواه فى استقلال فكرى . ولكن عليه أن يخضع لما يمليه عليه الأستاذ . وكأنه حديث نبي معصوم لا يملك له رداً ولا مناقشة ولا سؤالاً . فهذه « النزعة النمسية » التى أكتسحت دور التعليم منذرة بالخراب والدمار القريب . وإذا كانت كل هذه العوامل من بيئة وتقاليد ودروس وتعاليم تحف الطالب من كل ناحية . فأنى له أن يكون حراً مدعاً فى التفكير — ثم « مودة القراءة » هذه هى الأخرى عاتقة من عوائق التفكير — فالبعض يستمر وراء القراءة لكى لا يفكر ، ولكى يتلهى ويتسلل . وعلى هذا النمط يفهم القراءة والمفكرين . فهم يقرأون الروايات المبتذلة والجرائد التافهة . فهذه هى القراءة لقتل الوقت كما يقولون . ونحن نسمع الآن لفظة القراءة تجري على الأفواه كما يقول المتكلم كنت ادخن أو « لعب الورق » فليست القراءة الآن سوى نوع من التسلية كاللعب الورق وتدخين السيجار . والآن دعنا من عوائق التفكير ففى كثيرة لاحدنا ودعنا ننظر فى حوافز التفكير الصحيح .

كن لنفسك . وكيف تكون لنفسك وأنت لا تتخلو ساعة فى انبوم تفكر فيها تفكيراً صحيحاً بعيداً عن إغلبة والزحام . ويمكنك أن تكون من نفسك فى خلوة أيضاً ولو كانت محائب الكلاب تعوى والضجيج يعلو . ولكن ذلك يتطلب الجهد الكثير وهو ميسر القدرة على التفكير وحصر الإنشائه . وإن لم تكن لك هذه القدرة فحاول أن تظهر بها . وبعد المران لا بد أنك ظافر بها . ويحكى عن نابليون أنه كان آتية فى القدرة على حصر عقله وإنشائه . فهو حيناً يتكلم عن الحرب الحربى حتى إذا مأسأله عن موضوع آخر ترك هذا ويتبدأ كالليل الجارف فى الحديث الجديد . فلقد كانت عنده « أدراج عقلية » يسحب منها ما يريد ويترك مالا يريد . ولكى نحصر قوانا العقلية وسحب علينا أن نظهر جميع الأفكار والخواطر التى نحوم بالذاكرة . وأن تأخذ ورقة وقلماً ونهم بكثافة ما نذكر . ثم هنالك شكوى الوقت ! ليس لى من وقت . هذا ما سمعته من الكثيرين : ولكن كل

حقيقة ما يقولون ؟ أو ليس هم وقت للدرس والتفكير . وكم من هذا الوقت البريء يهدر عبثاً في الحديث الفارغ والمحادثات التافهة . ثم ماذا نصنع ونحن في الترام أو القطار . هل نظل ساكتين واجمين أم نقرأ ونكون من المفكرين . إن الروائي الإنجليزي « بريستلي » ألف الكثير من قصصه وهو مسافر في القطار !

فلنقرأ الكتب . ولنقرأ أحسن ما في الكتب لنقرأها للدرس لا للنسلية . فالكتاب هو ما نعمله نحن من الأحرف والصحائف . وليست هذه قيمة . وإنما قيمة الكتاب الصحيح هو ما يجيبه إلى النفس وما يوحيه إلى العقل والوجدان . . يحكى عن « وترسكوت » أنه كان يفكر في جرثومة كتبه وهو يقرأ أشياء لا علاقة لها بتوضوع قصصه . كما أن الوحي الفلسفي كان يزور « كانط » وهو يقرأ في كتب « الرحلات » التي أغرم بها . غير أنني لا أتفق والمؤلف حينما يقول إقرأ فقط ما يعطيك أعظم لذة ، فللجنة دخلها وأهميتها ولكنها ليست هي كل شيء . وبإتباع هذه القاعدة يصير القارئ محصور الفكر . ضيق الدائرة . لا يعرف علاقة الفنون بعضها ببعض ولا يستطيع أن يدرك وشائج النسب بين فروع المعرفة الإنسانية . وهذا ولا شك مهم جداً لمن يود أن يوسم بالتفكير والدرس . غير أن مؤلفنا لتدعيم نظريته يأتي بقصة « شارلز لام » وهي أن « لام » هذا لم يقرأ في صباه ولا شبابه بخلاف « الدراما » قديمها والحديث . ولم يذهب إلا إلى المسرح متبعاً في ذلك ميله الخاص ولذته النفسية . ولئن أجلت هذه الطريقة مع « لام » أو خلافه فما هي بالمجدبة في كل الحالات . بل إنها لكثيرة الخطر . غير محمودة العواقب . ذلك لأننا نجد مثلاً لذة لاتعادها لذة في قراءة القصص فننتهز كل ما تخرجه المطابع من هذا النوع فنكون واسعي الخيال . دقيقى الشعور . ولكن لن نعرف التاريخ ولا علم النفس ولا الفلسفة . مثلاً إذا نحن تأمنا على هذه الطريقة . وما أظن أحداً يجهل التاريخ والفلسفة ويعد نفسه مهتماً مفكراً .

والآن . وبعد أن نكون قد قرأنا أحسن الكتب في كل العصور ودونناها وتفهمنا معانيها ، تنولد في عقلنا ولا شك صور يحشد بها الذهن . ويشغل بها الفكر ، ومن هذا النشاط الفكرى والتأمل فى هذه الصور ينتج « الفكر الخلاق » ولكن ما أقل من يقرأ الكتب العالية فى هذا الوقت . وما أقل من يفكر . بل إن معظم الناس فى هذا العالم يحسون حياة ميكانيكية لا حياة فيها ولا تفكير .

## كيف نقرا ؟

القراءة فن دقيق . وهي تختلف باختلاف مانقرأ . فقراءة الصحيفة اليومية تختلف عن قراءة القصة الخيالية . كما أن هذه تختلف بدورها عن قراءة كتب العلم والأدب والثقافة العامة وما إليها . فلكل نوع من الكتب طريقة خاصة في القراءة هي به أخلق وأجدر .

فهناك القراءة السريعة . والفرض من مثل هذه القراءة هو تتبع الحادثة أو الفكرة بقطع النظر عن التفكير في صحة الرأي أو الأسلوب . والقارئ يستطيع أن يقرأ سريعاً بعد الممارسة الطويلة والمران . فيستطيع أن يقرأ الصحيفة اليومية والقصة وما إليها على هذا الأسلوب . ولهذا الأسلوب في القراءة أنصار كثيرون بين رجال الثقافة والتعليم . ويقولون إن مثل هذه القراءة أصلح للإن القرن العشرين وأعود . فهي تعود السرعة في الفهم . والإقتصاد في الوقت في عصر الحركة والسرعة . وتعدد العلوم والمعارف . وللأساتذة الأمريكيين مقاييس خاصة يقبسون بها سرعة قراءة تلاميذهم وقلوبهم على الفهم .

فكيف نقرأ في مثل هذا العصر الذي كثرت فيه مشاغل العيش والعمل . كما إزداد فيه عدد الكتب والصحف ؟ ليس الجواب على هذا السؤال بالأمر اليسير . غير أن القارئ الذي يود أن يمشی مع عصره وحركة العلوم والفنون والآداب لا بد له من طريقة يتبعها في قراءته . وفي إختيار ما يقرأ : وإلا أضاع الوقت بما لا فائدة فيه ولا غناء عنده .

ومما يلاحظ علينا عامة معشر الشرقيين أننا لانطبق القراءة ولا نستطيع معها صبراً . ولعل للإقليم الأثر الأكبر في ذلك . هذا ولو أن القراءة الجدية في العلوم والآداب ليس لها هذا الاقبال الذي تناله القصص والصحف التافهة عند كل الشعوب وبين كل الأمم !

وقد عرف الكتاب ذلك ففتنوا في أساليبهم لاقتناص القارئ وتسلية وإفادته . وصاروا يعرضون أفكارهم في العلم والفن في أسلوب قصصي شائق جذاب يجيب القارئ في القراءة والدرس . فما أخرجنا إلى مثل هذه الحيل في مصر . حيث لم تصبح القراءة عادة بعد كما هو الشأن في الغرب !

ومما يروى في هذا الصدد أن الكاتب الأمريكي «دورانت» كتب كتاباً في تاريخ

الفلسفة أسماء « قصة الفلسفة » وكتبه على النهج القصصى فى أسلوب مائى رشيق . نفع منه مئات الألوف مما لا تبلغه القصص إلا فى القليل الأندر . فقد عرف ذلك الكاتب كيف يجيب قراءه فى أكثر الموضوعات صعبة ، فعرض فلسفته فى أسلوب شائق سائق الطعم ، لذلك النكهة . كما أن كثيراً من كتب العلوم والثقافة قد إنتشرت فى عصرنا هذا إنتشاراً محموداً .

وليتصور القارىء كتباً فى علم الطبيعة وفلسفة الفلك والنجوم بيع منها مئات الألوف حديثاً ككتب « جينس » الفلكى ، وشرح نظرية النسبية لـ « بول موران » الكاتب الفرنسى . ومعنى الثقافة « كاور » الأمريكى وأصراها . فهؤلاء الكتاب عرفوا كيف يكتبون فأجادوا الكتابة ، وكافأهم الجمهور بأن أقبل على كتبهم كما يقبل على القصص والروايات .

وإن دلت هذه الحقائق على شىء فهى تدل على أن الامة الأمريكية والامم الاوربية قد أصبحت أماً قارئة على رغم كثرة أعمال أفرادها ومشاط حركتها المادية .

فالقراءة والتثقيف هنالك قد أصبحت ضرورة من الضروريات لا غنى للإنسان الحى عنها . ونحن مازلنا ننظر إلى القراءة كلون من ألوان الكمال ، ومتعة لا يطلب بها كل إنسان .

أما كيفية إختيار ما نقرأ فمسألة يدق الكلام فيها ويصعب . فهناك أسماء لكتب عدة وضعها بعض الكتاب والمعلمين « كأحسن مائة كتاب » وما إليها من أسماء الكتب وعددها . وغير نصيحة تهدى للقارىء المبتدىء أن يقرأ ما يعيل إليه بذوقه ومزاجه ، فإن ذلك أسخى أن يفيد ويثمر فيه . وأن يستشير الثقافت فى ذلك الفرع من فروع المعرفة ، فيستطلع آراء كبار النقاد المعروضة فى الصحف والمجلات . فقراءة الصحف والمجلات لاغنى لإنسان عنها . فهى التى تدله على حركة العلوم والتقنون وأجود الكتب التى يجدر به أن يقرأها ويشتملها .

وأحسن طريقة إهتدنا إليها بعد الإختيار هى طريقة القراءة « بالموضوع » بدلا من قراءة الكتب والمقالات كما تصادفنا فى طريقنا .

فلنفرض أنك تقرأ هذا الموضوع عن كيف « نقرأ » فالأفضل أن تتبع هذا الموضوع فى الصحف والكتب ، ثم تقارن بين ما تقول تلك الكتب والصحف وما يقول هذا الكاتب وبذلك يرسخ الموضوع فى ذهن القارىء . كما يجد مورداً من الإمتاع والفائدة فى مثل

هذه القراءة لا ينفد قط . وأحرى مسألة تقرأ فيها على هذه الطريقة أن تصبح جزءاً من نفسك لا يتجزأ .

لذلك فإياه مما يسرنا أن نعين القارئ في قراءته ونجيبه على أسئلته وأسماء الكتب والصحف التي تعينه في فرعه وقراءته . وعلى هذه الطريقة طالما تكون قراءة مقال في صحيفة دفعاً لك لأن تقرأ مقالا آخر جاءت عنه إشارة في المقال الأول . كما أن تصفح كتاب بعينه قد يدفع بك إلى تصفح آخر يبحث في نفس الموضوع ، أو في موضوع مثله بأسلوب آخر ووجهة نظر تختلف عن وجهة النظر الأولى فيتسع بذلك أفق نظرك . وتبعد مطارح فكرك . وتصبح أبصر بما تقرأ . وأقدر على الاستفادة والمناقشة المنتجة .

والقراءة بعد ذلك لا تقتصر على فريق من الناس دون الآخر . فرئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية لا يستطيع إلا أن يقرأ . كما أن العامل الحقير لا يستطيع إلا أن يقرأ أيضاً .

وروزفلت - رئيس الولايات المتحدة - كان من أكثر القراء معاودة للكتب والصحف والمجلات . حتى أنه يندر أن يذكر أمامه أي موضوع سواء في الأدب أو العلم أو التاريخ إلا ويساهم في بحثه ، ويبدل بمعلومات أو آراء تدل على اطلاع واسع تلدهش سامعيه . ذلك شأن الرجل العظيم . كما أن العامل الإنجليزي لا بد أن يقرأ في ليلته كتاباً أو صحيفة أو مجلة . ولاغنى له عن ذلك مهما اشتدت به الحال ، وصحبت عليه أسباب العيش والتكسب .

ثم من بعد ذلك كله فإن القراءة شرط جوهري من شروط النجاح في الحياة سواء في ذلك معاملة الإنسان للناس واختلاطه بهم ، أو في مقتضيات أعماله ومستلزمات حياته . وقل أن نجد إنساناً ناجحاً في عمله أو حياته الاجتماعية وهو من بعد ذلك لا يقرأ ولا يعنى بالمطالعة .

فلتقرأ إذاً . ولنكن أمة قارئة فلن نحيب قط أمة تقرأ .

## كيف تفكر \*

إذا صح القول ان الإنسان آلة مفكرة ، فإنه ولاشك أدق آلة عرفها العالم . فلندرس تلك الآلة . وندرسها ندرس كياننا ونعرف أنفسنا كما نادى بذلك أغريقي حكيم قبل آلاف السنين .

غير أن الإنسان ظل يدرس الحشرات والنجوم قبل أن يدرس نفسه . وعرف فصائل الحيوانات وطبقات الأرض قبل أن يفهم ماهي فصائل النفوس وطبقات الوجدان . وعرف متى يحصل الكسوف . وكيف يعمل النحل والنمل قبل أن يعرف لماذا تنام . وكيف تفكر . وماهى دواعى المرض والصحة الفكرية !

كيف تعمل هذه الآلة المفكرة ؟ ما الذى يقعد بها عن العمل المنتج ؟ ما شروط الإنتاج الفكرى . ماهى أساليب النفوس فى مواجهة الصعاب وتخطي العقبات ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها من المسائل التى تتعلق بحياتنا الفكرية قد أصبحت فى هذه الأيام شغل المفكرين وعناية علماء النفس وجهدهم . وهو جهد ولاشك يستحق عنايه .

« إن المدرس الصحيح إنما هو درس الإنسان نفسه » كما قال الشاعر الإنجليزى « الكسندر بوب » فى رائعته المشهورة « مقال عن الإنسان » وذلك الدرس ولاشك هو مناهل الحكمة الإنسانية فى هذا العالم .

وكما أنه ليس أحق بدرس الإنسان سوى الإنسان نفسه . كذلك ليس أصعب من هذا الدرس . ولا أعسر منه مثلاً لطالبيه ، ذلك لأن الإنسان أدق من أى آلة عرفها العالم . كما أن هناك من الثباين بين كل فرد وآخر وبين شعب وشعب مما يزيد مثل هذا الدرس مشقة ويحفه بالصعاب . غير أن ذلك مما تحلوه فيه المشقة وتخف فيه الصعاب !

وأول صعوبة تواجهنا فى درس الإنسان أنه — وهو الدارس — لا يستطيع أن يتجرد عن ذاتيته ومزاجه الخاص وميوله المستترة التى تعمل عملها فى مسلكه وطرق تفكيره واتجاهات ذهنه ، من غير أن يشعر بكل ذلك !

غير أن الممارسة تذلل كل صعوبة ، فالقارىء الذى يعود نفسه بحاجبة صعابه النفسانية التى تنشأ بينه وبين نفسه . وبينه وبين الناس . وبينه وبين منطق الحياة وظروفها ، لواجده فى مثل هذه المحاولات لذة وإمتاعاً فوق فائدة الرياضة الذهنية والفائدة العملية والعلمية ، فليس أمتع ولا ألد من سرور الإمتبانه والإكتشاف عند الإنسان . خاصة إذا كان هذا



## الإكتشاف عن المكتشف نفسه ١

في سنة ١٩٢٩ م نشر « أرنست دمنث » - وهو كاتب فرنسي - كتاباً أسماه « فن التفكير » فراج ذلك الكتاب رواجاً عظيماً لم يعهده ناشرو الكتاب في مثل هذه البحوث - وأصبح فيما بعد ذلك حديث القراء والمصحف الأدبية ! لم كان كل ذلك ؟ كان ذلك لأن الكتاب عالج مسألة حيوية تهّم كل إنسان - ومن ذا الذي لا يريد أن يفكر ؟ - عالج « دمنث » تلك المسألة بأسلوب قصصي شائق - يستسهله القارئ ويسترسل معه .

فالتفكير فن - وفن شائق ، والقارئ الذي يرغب في التفكير الصحيح المنتج كان لزاماً عليه أن يتبع طريقة خاصة في جمع المواد ومهاجمة الموضوعات - فلا غنى له عن أن يقرأ مثل هذا الكتاب أو يقرأ كتاباً « جون دبوي » - الفيلسوف الأمريكي - « في كيف يفكر » فإن مثل هذه الكتب تعينه على تنظيم تفكيره وحصر موضوعاته .

ولإعانة القارئ نقول ان هنالك أربعة مراتب في عملية التفكير الصحيح لا بد للمفكر من ممارستها إذا أراد أن يكون صافى التفكير غير مشوش الذهن - وهي :

أولاً : تحديد الموضوع تحديداً دقيقاً وتعريف كلماتنا تعريفاً يسهل معه أن نعرف ماذا نعني ؟ فكثيراً ما يجحد الناس عن الموضوع الذي يفكرون فيه لأنهم لم يحدوده ولم يكن واضحاً في أذهانهم .

ثانياً : جمع المواد اللازمة من قراءة ومشاهدة وتجارب . حتى إذا اكتملت هذه واطلع الباحث على وجهات النظر المختلفة أخذ يقرر ويرجع في ذهنه الأجوبة والإقتراحات .

ثالثاً : « دور الحضانة » وهو أن نترك موضوعاتنا مدة من الزمن لاتفكر فيها بعد أن أكتظ بها عقلنا وجمعنا لها كل ما نحتاج إليه ، لتتال فرصة التكوين والتكييف في عقلنا الباطن من غير وعينا - فإن شدة الوعي والشعور أحياناً تقتل الفكرة وتضعف التفكير ، ولنعمل شيئاً آخر في هذه المدة لالعلاقة له بموضوع تفكيرنا ليرتاح الذهن ويعمل في هدوء إلى أن يحس بالحللول تأتي لوحدها .

ومن ظريف ما يحكى في هذا الصدد أن « كوكيله » العالم الفرنسي جمع مواد وظل يفكر زمناً طويلاً في معادلة البنزين الكيميائية ، ولكن جون جدوى ، وجلس ذات يوم بعد أن يشق نهائياً من إكتشافه لتلك المعادلة أمام مصطلى النار يتدفأ ويدخن ، وقد نسي كل شيء عن البنزين ومعادله . وفجأة وجد نفسه يلاحظ ألسته النار وهي تتلوى ويقبض بعضها على رقاب بعض وكأنها الأفاعي فقفز لساعته وإنضحت أمامه معادلة البنزين بعد

أن فتر عنها . وقضى ليلته تلك فى التحقيق إلى أن أثبت تلك الفكرة الوامضة التى أوجحتها إليه السنة النار الملتوية - وهذا مايسمى فى لغتنا اليومية « بالوحى » . وماهو بذلك !

ويروى على « أمانويل كانط » - الفيلسوف الألماني - أنه كان يكتشف أمتن نظرياته الفلسفية وهو يقرأ كتب الرحلات التى ليس لها أى علاقة بموضوع بحثه وفلسفته .

« ازادورا دنكان » - الراقصة العالمية - كانت تبتدع أروع الأنماط فى الرقص وهى تقرأ ( تحليل العقل الصرف ) « كانط » !

وقد سئل مرة أحد المصورين الكبار عن الوقت الذى قضاه فى رسم صورة بعينها فكان جوابه « طيلة حياته » لأنه وإن لم يستغرق تنفيذها سوى بضعة شهور غير أن تاريخ فكرتها وتطورها إنما هو تاريخ حياته وتطوره الفكرى .

ومن هذه الأمثلة تنضح أهمية دور الحضانة الفكرية « Incubation » فى عملية التفكير الخلاق .

وأخيراً : دور التحقيق والتجربة . ولايتم التفكير من غير التجربة والتحقيق الذى يدل على صحة الفكرة ، وأنها فكرة ثابتة صحيحة دائماً على تعاقب الأحوال وتقلب الظروف .

## أنا والكتب أو الكتب وأنا

( من أظرف ألوان الأدب الغربي المقال الشخصي « Personal Essay » الذي أجاد فيه الكتاب الإنجليزي الكبير « شارلز لام » وأصبح فيما بعد ذلك من أروج أصناف الكتابة وأعفها على النفس وأظرفها . هذا النوع من الكتابة على كثرة رواجه في الأدب الغربي وخاصة في الأدب الصحفي في هذه الأيام غير معروف في أدنا ولا متداول بين القراء والكتاب . ونحب أن يروج هذا المصنف الكتابي بين القراء والكتاب . وأن يلقى نصيبه من الحظوة والمكانة . )

• • •

لا أدرى أيهما أصبح والله . أهو أنا الذي يكتب عن الكتب ويمتص قراءه بأحاديثها . أم هي الكتب التي تكتب عني الآن وتغريني - بما علمتني - أن أغري نفسي وأوضح مكان الضعف مني وأسخر من شخصي . أهو أنا الذي يحب الكتب ويوم عشقاً بها ويعتبر نفسه القناص لها السيد عليها ، أم هي الكتب التي تستهويني وتجعل مني أداة لضحكها وعيبها وسلوتها - لا أدرى أيهما أصبح والله !

ومهما يكن من أمر فلنعرض أمرها مني وعلى الله السلوان :  
لا أعرف على وجه التحقيق مني أحبيت الكتب ، أو مني هامت الكتب عشقاً بطلعتني البهية - ذلك ما لا يتيسر لي أمره الآن ! ولكنني أدرى أنني وصديقاً قديماً لي حينما كنت في المدرسة الابتدائية ، كتنا نجمعها ونرصها ونضجر بكثرتها ولا أقول قراءتها . فنحن قل أن نقرأها - وكل مافي الأمر « أهو عشق والسلام » . فكنت إذا زادت مجموعتي كتاباً واحداً على مجموعته تبت عليه وشعرت بالفخر بملأ جوانبي . وبالفرح يشيع في كياتي ، وشعر هو بالمضاضة والألم إلى أن تم مجموعته فنصبح أكفاء متعادلين !

تلك أول حلقة في قصة حبي لهذا الورق الذي يدعونه كتاباً وهو كما ترى عشق مجنون لا عقل فيه . وأصبحت من بعد ذلك لا أهبط بلداً ، أو أزور مكاناً ، إلا سألت عن مكياتها وفزعنها كأنني موكل بذلك .

وقد أكون مقلساً فلا أشتري كتاباً واحداً . ولكنني لا أفأأزور المكتاتب العمومية كل يوم إلى أن يضح أصحابها مني . ومن إفلاسي . ولكنني لا أفأأزورها ذلك لأن

لم أرى الكتب على سحراً خاصاً يزرى بكل سحر ، ولطعتها البهية فتنة تفوق فتنة الغيد الحسان . ولراحتها الزكية وهي تخرج من المطبعة أريجاً يزرى بأريج الياسمين !

كما أنه يحلو لي بنوع خاص أن أفتح الكتاب الحديد وأشم رائحة الأوراق وأنا أحنس الشاي أو أدخن . وأعد كل ذلك متعة لا يموت الزمان بمنزلها إلا في القليل النادر !

فإن إكتشاف كتاب جديد يقع من نفس موقع القبول هو بمثابة إكتشاف قارة لدى علماء الجغرافيا ، أو إكتشاف حبيبة جديدة لدى محب عاشق ، أو إكتشاف كثر محبوب لسارق ماهر !

وليس أجنب عندى فى المكاتب من معرض الكتب فى الواجهة الزجاجية ، وأروح منتفلاً أنظر إلى الغلاف اللارورى لذلك الكتاب ، ويستوقف نظرى عنوان الآخر . ويجز فى قواى أن لا أكون الكاتب لذلك ! ويشند حنفى على ذلك المؤلف لأنه عالـج نفس الموضوع الذى كنت أعنى بالكتابة عنه . ويشند حزنى أننى لا أستطيع أن أمتلك ذلك الكتاب وأنظر إلى غلافه على الأقل . وتلك مجلة حلوة هى الأخرى فيها أفانين من القول والبحث لا يجدر بي أن أجهلها . . . . وذلك الكتاب عن الموسيقى . . . آه نعم الموسيقى . . . ألا يجدر بي أن أتكلّم عنها وأتحدث عن أساليبها عن دراية وفهم .

فأتصور نفسى بين جمع من الأخوان أحاضرهم فى كبرياء ولوذعية عن «سونات» ، «بتوف» وعن «المارموني» و«الميلودى» والحركة ، وأين يختلف فن «شوبان» عن فن «فاجر» الذى يكثر فيه التفكير وتقل الماطفة إلى آخر هذا الإدعاء الرفيع . . . ! وذلك الكتاب عن التصوير عن . . . آه التصوير يا حبيبى هو كل شىء . . . الفن . . . الفن يا صديقى ، والحديث عن التظليل ، والتلوين ، والحركة ، فى فن «هستلر» و«ديكاس» وأضربهما كيف يمكننى أن أعد نفسى متفقاً من غير معرفة أشباه هاته الأشياء . . . وأروح أتصور نفسى بين جمع حاشد وأنا أهذى بهذه المعلومات الرفيعة وكلهم أذان صاغية وأفواه فاغرة تلتهم ما أقول .

نعم . تلتهم ما أقوله أنا !

ثم يا صديقى لا يكفى الإنسان أن يعرف الأدب العربى أو الإنجليزى أو الفرنسى ليصبح أديباً واسع الإطلاع ، ولا بد من معرفة الأدب التشيكوسلوفاكى ، والبولندى . والدنماركى . وأدب بلاد الهولنتوت ، والمكسيك ، وبلاد واق الواق . . . ضرورى كل ذلك .

ولكن أين هي النقود ؟

لن الله النقود !

ثم الوقت - لن الله الوقت ... هل يسمح بقراءة كل ما أريد قراءته ؟ لا انه لا يسمح ولكن ذلك لا يجب أن يقف في سبيل اقتنائي وجمعي لها وهيامي بها ... بكفيني أن تكون في مكتبي أنظر إليها وأمتع ناظري بصورتها ، وقد أنام أحياناً فأحلم أنني قد قرأتها من الدفة إلى الدفة ، وعرفت كل ما فيها ونقده وعلقت عليه وأنى حاجة لأن أقرأها بعد ذلك !

وهكذا إذا ما أردت أن أقرأ كتاباً ضخماً لا يسمح الوقت بتصفحه نمت ففكرت في الحلم (ليس معنى هذا أيها القارئ العبقري أن تنام فتحلم فتقرأ - فقد لا تسعفك الأحلام)

وكثيراً ما أشتري الكتاب فإذا أطمأنت نفسي إلى أنه ملكي لم أزعج نفسي بقراءته شأن الكثير من القراء ولكنهم لا يقولون ذلك - وأنا بعد كل ذلك لا أفتأ أشكو لأصدقائي قلة كتبي وضيق ذات اليد ، وأروح المكاتب فأقضي سحابة يومي أقرأ هناك - من غير أجر طبعاً - وصاحب المكتبة يعتقد في بادئ الأمر أنني سوف أشتري ، فيصبر ويسألني حاجتي ويلج في السؤال ، غير أنني أصرفه بأنني أعرف ما أريد . فإذا إتضح له أمرى ضاق ذرعاً بي وحرّم على المجيء مرة أخرى إلى مكتبته وطرّدني .

وأنا بعد ذلك لا أعرف ما السبب في كل ذلك التهم الذي ليس له مبرر ، ترى هل لي بطن آخر لا يأكل إلا الكتب ولا يجموع إلا في حضرتها !

وأغرب من ذلك وأدعى إلى الدهشة أن القراءة لا تخلو لي إلا في مكتبات الأسواق والصحائب . فإذا خلوت إلى مكتبتى الخاصة - نعم عندي مكتبة خاصة أيها القارئ - ولا أكذب - تركتها سريماً وقفلت راجعاً إلى مكتبات الأسواق وإذا قدر لي الجلوس في مكتبتى مللت ، فأغمضت عيني فتمت قراءتها كلها في الحلم اللذيذ .

وكثيراً ما أخدع نفسي - وأنت أيضاً أيها القارئ قد تخدع نفسك - أنني قد قرأت كل ما بالمكتبات التي في السوق ، لأنني قرأت العناوين وعرفت أسماء المؤلفين فإذا قرأت المقدمات والفصول النهائية فقد قرأتها جيداً ، وأستطيع نقدها وتحليلها وتمزيق مؤلفها إرباً إرباً !

وأنا لو أدمنت القراءة في لون خاص من ألوان الأدب والثقافة ، خيل إلى وكبر في وهي أنني أهدر الوقت بما لا فائدة فيه ولا غناء منه ، وأن هنالك من الكتب ما هو أجدر بالعناية والمطالعة ، فإذا قرأت كتب الخلد خيل إلى أن في مجلات السينما وما إليها أشياء

لا يجب أن تعوتنى ولا تكمل حياتى من غير معرفتها . فأروح أشتري منها الكفاية إلى أن أملها !

وإذا أكثرت من القراءة حيل إلى أننى لا أستطيع أن أكتب . ولا بد أن أجرب نفسى فى تلك الساعة التى يخطر لى فيها ذلك الخاطر المقلق . فإذا كنت أكتب وددت لو أننى كنت أمتنع النقص بالقراءة الساكنة الحلوة . وإذا أكثرت من القراءة والكتابة خيل إلى أننى سخييف ليس لدى أى توازن وأن فى الحياة غير القراءة والكتابة — فإذا طوت رجعت أعقابى ومللت حياة التبطل واللهو بأسرع من لمح البصر . فإذا كنت فى «الكازينو» أنظر إلى وجوه الحسان من الراقصات تشوقت حرقاً لوجه «شونهور» الحميل وقوام «سقراط» النحيل . وقد ألعن «شونهور» ووجهه الدميم فى ساعة أخرى وأفر هارباً منه ومن أصحابه الثقلاء .

والقارىء الذى يعنى بأن يكون فى يوم من الأيام كاتباً لا يمكنه أن يكون قارئاً كاملاً . لأنه بدلاً من أن يفقد نفسه فى الكتاب فيستلذه ويستفيد . يزداد شعوره بنفسه وبمعجزه عن الكتابة مثل ذلك الكاتب ويحاول أن يعرف كيف أدار الكاتب تلك الحملة وكيف نجح فى بسط ذلك الرأى . وبالإختصار يعذب نفسه ويرهقها . فمن أصعب الأمور أن يقرأ بالثباز من يعنى بأن يكون كاتباً فى يوم من الأيام !

فقد كنت أحاول — وأنا طالب فى الجامعة — أن أقرأ المكتبة . يا للجنون ! ! فكنت أفرعها كل يوم من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال — فتجلى فى بعض الأيام لا أقرأ ولا أتكلم إلا عن «السيكولوجيا» وفى آونة أخرى قد ينسلط على شىء اسمه «الدراما» . وفى آونة أخرى كتب الرحلات والمذكرات وما إليها . وقد أترك كل هذا لحاطرة ، فأروح أدرس الكهرباء أو الجهاز العصبي أو نظام التغذية . وأدرس هذه الأشياء فى الأيام الأولى بحماس شديد وسرعان ما يبدل هذا الحماس . فأقلب أقرأ شيئاً آخر وقد يكون عن التراجع أو خطابات العظماء ويوميأهم أو عن التربية إلى آخر ما كتب الكاتون وطبعت المطابع ! وقد أغضب أحياناً لحاته الحولة النفسية الشاذة . وهذا الغرام الأعمى بالكاتب فأحبس نفسى يوماً كاملاً عن المكتبة لأزورها . فيخيل إلى أن الكتب الجلدية من روسية وألمانية قد أتت فجأة — نعم فجأة أيها القارىء إياك أن تضحك — فأروح مسرعاً فى صبيحة ذلك اليوم إلى المكتبة وأبدأ عملية فرع !

لاحول ولا قوة إلا بالله — ماذا تقول فى هذا !

أهو جنون ؟ نعم هو كذلك .

ولكنه جنون لا دخل لى فيه ولا سلطان لى عليه .

## معنى الثقافة •

### للكاتب الأمريكى «جون كاوبر باوز»

لعل هذا العصر الذى نشهد هو من أخصب عصور الإنتاج الفكرى فى القنون والآداب والثقافة العامة . ففى كل يوم لون جديد من ألوان الأدب ، وبين كل حين وآخر طراز جديد فى الكتابة والنهج ، أو تجديد لفكرة قديمة . أو تعميم لفكرة حديثة . أو تبسيط لرأى فلسفى . أو شرح لنظرية عملية مستعصية الفهم حالكة الجلباب .

ومن هذه الكتب التى راجت أخيراً بين الكتاب والقراء كتب الفلسفة التى تدنى النظريات الفلسفية من ذهن القارئ العادى وتعرض له ضروب الثقافة الرفيعة التى كانت وقفاً على الأخصاء فى أثواب من الفن الزاهية . وأسلوب فى الكتابة حلوا شائق . ومن أولئك الكتاب المعكرين للذين جعلوا الفلسفة قصة تقرأ ومستعصيات التفكير فناً شائفاً للكاتب الأمريكى «جون كاوبر باوز» . فهو قد زان فلسفته بخير مائزان به الكتب . ويدنيهها من عقول القراء فى غير إسفاف . كما يعلو بها من حيث الأسلوب والعرض إلى ذروة الفن الرفيع

فقد تروج كتب القصص والروايات وما إليها، وظهرهم نحن سبب ذلك الزواج والإقبال، ولكن الشيء الذى لم يعمده تاريخ النشر وحركة التأليف أن تروج مثل هذه الكتب وأشباهها . نعم أن تروح كتب « دورانت » و « باوز » و « رسل » و « جيتز » و « ادنجتون » . ولعل هذه الظاهرة حسنة من حسنات الديمقراطية لو لم يكن لها غير هذا لكماها حمداً وشكراً . فالفلسفة وما إليها لم تعد مقصورة على فريق من القراء دون فريق . ولكنها أصبحت حقاً مشاعاً ، وقسطاً مباحاً لكل الناس والقارئين .

قرأت أخيراً « معنى الثقافة » لمؤلفه الإنجليزى الأصل الأمريكى النشأة والإقامة «جون كاوبر باوز» ، فقرأت كتاباً من خيرة ما يقرأ . واطلعت على صفحة من التفكير الصافى والأسلوب الشعرى قل أن تتاح للإنسان إلا فى القليل النادر . واخترت أن أتحدث عن هذا الكتاب بعينه لأنه يعالج موضوعاً نحن فى حاجة ماسة إلى فهمه الفهم الصحيح . وتصحيح النظرة إلى فكرة لعنا أبعد الشعوب فهما لمعناها القويم مع كثرة إستعمالنا لها وإيرادها فى كلامنا فى كل حين . ثم اخترت هذا الكتاب بعينه لأنه من الكتب الحديثة فهو لم يمر على تاريخ نشره سنة واحدة . وقد بيع منه مئات الألوف ومدحه النقاد وأطروا صاحبه ذلك الإطراء الجميل .

والكتاب مكتوب في قالب شعري مجيد . سهولة في اللفظ . ومرونة في الأداء ، واسترسال مع الفكرة إلى أبعد أغوارها في إيقاع موسيقى ووثبات من التعبير تكاد تقرب من الوحي والإلهام . فالمؤلف من أولئك المفكرين القلائل الذين يجمعون إلى عمق الفكرة وسدادها جمال الأداء وزينة التعبير ، حتى أننا نجد « دورانت » يقارنه بأفلاطون من حيث الجمال الشعري والصديق الرفيع !

ومثل هذا الأسلوب ربما كان خطراً على القارئ السطحي الذي يسترسل مع جمال النغم وإنسجامه ولا يكلف نفسه مؤنة التغلغل مع المفكر إلى ما وراء الفكرة التي أراد أن يسبح معه في العوالم التي يشير إليها ، ويوحى بها إليه من غير أن يسترسل في الكلام عنها ، غير أن القارئ العارف يستمتع بذلك الأسلوب ولا يفقد عمق الفكرة . وأنا شخصياً أجد في الأسلوب الذي يحكي « الاوركسترا » في تعدد نغماته وإنسيابه وخفة حركاته ، ووقفاته المفاجئة معيناً طيباً على إستكناه تمام المعنى الذي أراد الكاتب . فكاتبنا الفاضل لا يكتب كتابه بطريقة علمية محايدة خارجية ، فيقرر الآراء ويناقش النظريات في جفاف وتحقيق علمي . وإنما هو يرمي إلى ذلك بالفكرة الممزوجة بإحساسه القوي ، ثم يلعب بها لعباً ويسكب عليها جمالاً من جمال نفسه ويفيض عليها روحاً من روحه ويزينها بتجاربه وبدوات نفسه .

فالكتاب من هذه الناحية عبارة عن ترجمة حياة « باوز » مكتوبة بقلمه . وهي حياة فيلسوف مفكر ينقب عن طريق الحق والجمال . وهو ينش أمام القارئ - في صدق وصراحة وجمال - الجانب العامر من جوانب حياته في ألفة الصديق . وصدق الفنان الذي لا يموت ولا يتفوه إلا بما شعر وأحس أعظم الشعر وأدق الإحساس .

ويقول « دورانت » عن فلسفة « ناوز » إنها عميقة عمق فلسفة « سينورا » صادقة صدق فلسفة المسيح !

فالكتاب في واقع الأمر ليس مقالاً عن « معنى الثقافة » فحسب . وإنما هو سيرة حياة المؤلف . وهي حياة حافلة . عمل فيها الخيال عمله وهذبته ثقافة واسعة ، ودراسة جامعة ، وذهن خصيب ، وإحساس رفيع . وهو أيضاً إلى جانب أنه ترجمة حياة يصح أن يقال عنه طريقة فلسفية يعرضها المؤلف في غير ما اعتاد بقية الفلاسفة أن يعرضوا - في رفق وهودة وتساهل وسعة نفس - فبطلعنا على آرائه في الحب والثقافة وفي الدين والآداب والتصوير والفلسفة والطبيعة والسلوك الخ . فهو لا يقيد نفسه بنظرية واحدة بشرحها ويعلق عليها ويصدر في كل ما يقول عنها ويضع كل مظاهر العالم تحتها كما يصنع كثير من الفلاسفة .



لا ! ليس ذلك شأنه . وإنما هو مفكر فنان يعرض إحساسه في إطار من التفكير والشعر ! وهو يقول إنه لا يؤمن بالطرق الفلسفية التي تحاول تحديد مظاهر الكون ومجالي الجمال . وإنما هو يقبل الحياة في سعتها وشمولها . ويقرر أنه ليس من حق أى مفكر أن يدعى أن مذهبه هو الحق وبقيّة المذاهب خطأ . « وإنما كل المذاهب حق » ، لأنها تحكى صور كبار الفنانين في نظرهم إلى الحياة « ، وأنه لمن السخف الشنيع أن يسأل إنسان أيهما المصدق والمصائب في فلسفته « سبنوزا » أم « أفلاطون » أم « توماس اكوينس » أم « هيجل » ؟ فإن مثل هذا السؤال لا يدل على شيء سوى الجهل العميق . وضيق النظرة . وسخف التحديد . وعدم الاستفادة من الحياة والدرس . وإنما السؤال الذي يجب أن يحل مكان الأول هو أن نقول للمفكر أو الفيلسوف الذى تقرأ « أى أفاق من الفكر تستطيع أن تفتح أمام ناظري ، أو أى قدرة لديك على إثارة أحاسيسي ومشاعري : وأى أعماق يمكنك أن تطلعنى عليها : أو أى همسة رفيعة لاسيّل إلى التعبير عنها يمكنك أن توحى إلى بها عن سبيل الكلمات وإيماعاتها ؟ » .

هذه هي قيمة الفلسفة الحقّة وهي كل وظيفتها : وما أكبرها من قيمة وما أجلها من وظيفة !

وليس من مهمة الفلاسفة أن تمدّنا بالحقائق والمعارف . بل هي ربط الحقائق والمعارف بما تثبته في نفوسنا من شك في قيم الأشياء وصدق النظريات . غير أنها تعلمنا التساهل الفكري : وسعة الروح لأنها تشعرنا بضعفنا وحدود ذهبتنا وتجعلنا أصبر على النظر المتكرري وقبول الحياة ومحاوّلتنا لها في كل متناقضاتها وأغراضها المختلفة . وفي هذا المعنى يقول المؤلف الفاضل :

« إن النزعة الفكرية التي يفيدها الذهن الحساس من دراسة الفلسفة هي نزعة تجمع بين انشكاط المظنن والاحترام الصادق لجميع المعتقدات والآراء . وهذه هي الثقافة الكاملة والانسان المثقف لا يرفض الخرافات التي تمخض عنها العقل البشري لمجرد أنها خرافات . وإنما يقبلها ويزنها وينظر إليها نظرة العطف والفرح لأن تلك الآراء القديمة هي نتيجة تجارب طويلة وتاريخ مديد ، ولا يعقل أن تكون كلها خطأ لا وجه للصواب فيه » .

والفلسفة تنبه إحساسنا وتوسع مدى نظرنا على هذه الطريقة . والرجل المثقف لا يقبل آخر النظريات العلمية الحديثة لمجرد أنها نظريات علمية . بل يقف منها موقف العاقل السائل كما يقف بجانب ما يسمى خرافة وتقليداً . كما تعلمنا « إن كل ما يسمى حقاً هو في نهاية أمره ترجيح وتفصيل » . وإن الضغط على الآخرين لقبول وجهة نظرنا حمق وسفه

لا يدن على حرية في الفكر أو ثقافة في الرأي . كما أن اعتقادنا أن وجهة نظرنا هي أصح الوجهات وأقومها أيضاً سخف وجهل . فإن محك الثقافة في الرجل هو احترامه لآراء الغير كما يحترم آراءه هو ، فلا يغيرها لأن مجرد البحث العلمي الحديث دل على ضدها . والرجل الذي يدعى أنه في آرائه « على آخر موده » هو أبعد الناس عن الثقافة وأنهم عن حظيرتها . ولو أدعى ذلك ونادى به صباح مساء . إن شأنه في هذا الصدد شأن الرجل الذي يقبل الآراء القديمة لا لسبب سوى أنها قديمة ، أو أن السلف الصالح قد قبلها وعمل بمقتضاها .

فكما أن الذين عند هؤلاء المحدثين ليس بالشيء الوحيد الذي يحب اتباعه . كذلك العلم الحديث ونظرياته ليست هي الأخرى كل شيء . وما يستطاع رفضه في الأدب استطاع رفضه في منتجات العلم والتفكير الحديث أيضاً

ذلك محك الثقافة ! فالرجل المثقف هو الذي يقبل الدين والعلم على هذه الشريطة ويقبل الاثنين من غير أن يستبعد تفكير العلم أو الدين .

وهنا مناسبة طيبة لسؤال ماهي الثقافة إذا ؟ ماهي هذه الثقافة الرفيعة التي يتكلم عنها « باوز » ويكتب كتاباً ضخماً عن معناها وشرح خصائصها ؟

هل هي التعليم ؟ وهل للرجل المثقف هو الرجل المتعلم كما يظن أغلب الكتاب عندنا ؟ فأنتم تسمع هذه الكلمة في مصر في مايقوله الناس ويكتبه الكتاب أن فلاناً هذا شاب مثقف حينما يقصدون أنه حائز على هذه أو تلك الدرجة العلمية .

هذا المعنى هو ما حدا « باوز » أن يضع كتابه لتصحيح النظرة اليه . والإنسان ربما يعلم علوم الأولين والآخرين ويظل من بعد ذلك حماراً غير مثقف ، وقد يدرس كل آيات التصوير ولا يصبح بعد ذلك أبصر بمعناها من رجل المثقف الذي يقود الزائرين ويحدثهم حديثه السطحي عن تلك الصور وتاريخها . ولقد يقرأ الرجل آلاف الكتب ويطلع على براعات القصص وإجادات الشعر ويلتهم كل ما كتب « توماس هاردى » . ويعب في « شكسبير » ويعرف غلطات « أناتول فرانس » و« ماسين » و« مارسيل بروست » ويتحدث بلباقة عن « توماس مان » و« فرانتز فيرفيل » وأندادهم . ثم بعد ذلك كله تكون يمينه وثيقة الثقافة هوة بعيدة . لأن روحه خالية من بذرة الثقافة الحققة ونفسه غير عامرة بما قرأ ودرس وحياته شيء وقراءته شيء آخر — كما أنه ربما يقرأ « اولفر لودج » و« مكسويل » و« بافتش النسبية » ويتكلم في الفلك والبيولوجيا ويسرد آخر النظريات في « الكوانتم » و« طبيعة النور » و« الالكترون » و« البروتون » الخ . ويظل بعد ذلك كله كرجل الشارع غير مصقول

اللسان غير مثقف الذهن . مسفأ في حديثه . جازماً فيه : مغلق الوجدان والمشاعر . يكثر من الصراخ والضجيج .

فالثقافة الحققة إنما تكون في الاستفادة مما نقرأ وندرس ، كما تكون في الاستفادة من تجارب الحياة وفي تقليل الإحتكاك والتزاع بيننا وبينها . وعندما يصبح تعلبنا وحياتنا شيئاً واحداً . عندئذ نكون مثقفين . فكبح النفس وضبط العواطف العارمة يعتبران من أقوى آثار الثقافة .

ونستطيع أن نعرف الرجل المثقف في اتجاهه نحو من هو أقل منه مكانة في نظام الحياة الإجتماعية . كما نعرفه من إثارة عواطفه وسوق حديثه ولطف كلماته . كما أن الرجل الذى لايعرف كيف يحلو الى نفسه وينعم بتلك المحلوة قل أن يسمى مثقفاً . فالذى يسكن الى الضجيج ولايستطيع العيش فى غير الضجة المحتمدة والصراخ والحركة هو رجل زائف المروح . زائف الثقافة .

ويقرر « باوز » ان حب الرجل للطبيعة والسكون من أهم علامات الثقافة . والذى يحب الآلات الضخمة والبنابات العالية أكثر من التلال والرمال والأشجار هو رجل ليس فى روحه شعر .

وليس معنى حب الطبيعة أن نجبها فى بعض فصولها وأزيائها ، بل نجبها فى كل فصل وفى كل زى . لأنها هى الطبيعة مهما تقلبت القصول والأزياء ! فمحب الطبيعة الصادق الحب يحبها وهى غاضبة ، ويحبها وهى ساكنة ، ويحبها وهى ماطرة . ولايقصر حبه دونها إذا احلوككت السماء ونجهمت معادها . فهو عابدها مهما اوتدت من الأثواب كما يعبد المحب محبوبته حيث لا ثالث بينهما .

والرجل الذى شاهد النباتات وعرف أسماعها . والذى خالط الأطيوار وعرف أنغامها ، والذى لم ييخل بنظرة نحو الجبال والكواكب . والذى يقف مسرحاً لنظره فى فضاء المكان والزمان الذى لا بداية له ولا نهاية — ذلك الرجل لا يخاف من شيء حتى الموت نفسه . بل يقابله بصدور رجب لأنه قد عرف الحياة واحتملها وثقف .

والرجل الذى تومض أمام مخيلته صور ماضيه السعيد . صور ذكريات حبيبة لم يقف عندها هى ساعتها وهامى الآن أمام ناظره كصور « الكلايدوسكوب » فى متابع حلول مشج . يتذكر تلك التى ركب فيها الركب ، وذلك اليوم الماطر وإحساسه برائحة الشجر عقب المطر . وأماكن رآها . وأصواتاً سمعها . ووجوهاً شاهدها . وعواطف أحسها ، ومشاعر مختلفة . وإحساسات متباينة . كل أولئك تومض فى ذاكرته وكأنها تحدد

عهداً مضى وترجع بدولاب الزمن إلى الوراء هنيهة . مثل هذا الرجل مثقف الروح والوجدان . ثرى بالحياة . غنى بالشعور ولو لم يقرأ كتاباً ولم ينظر فى خريطة واحدة !

هذا هو الفرق بين الرجل المتعلم والرجل المثقف . فالأول يستطيع أن يحدثك فى تأكيد وجزم عن آخر النظريات الفلسفية والعلمية . وما يحب أن يكون عليه إعتقاد الإنسان فى هذا العصر . والثاني يحس ويقارن ويرجح ويجد أنه ليس من السهل الهين أن يحدثك عن فلسفته الخاصة . فإذا أفلح فى التعبير عنها شعرت أنت أن هذه النظرة هى التى عاش ويعيش بمقتضاها .

وهو لا يهيمه أن يقبل الآراء الجديدة كلها وأن يسمى نفسه مفكراً على الطراز الحديث ، وإنما يهيمه أن يحس وأن يصدق فى هذا الإحساس . وأن يفكر تفكيره الخاص لا تفكير سواء . فالرجل المتكلم ربما يأخذ معه فلسفته فى ذهنه كما يأخذ الإنسان نقوده فى جيبه يخرجها متى شاء ويخبئها أنى شاء . بخلاف الرجل المثقف الذى يحيا ويعيش ويفكر حياة واحدة .

ومؤلفنا الفاضل كما يقول عنه « دورانت » : « لا يؤمن بدين خاص ، ولكنه يحترم كل الأديان . وهو لا يعتنق طريقة خاصة . غير أنه عابد فى كل محراب » .

وفى الفصل الذى عقده بين الدين والثقافة بوضح « باور » ديانته الإنسانية التزعة . الواسعة المدى . وعنده أن الأدب أعمق من الفلسفة لأنه أقرب إلى الحياة فى تناقضه وعدم إنساقه وسمعته . وفى الأدب القسوة إلى جانب الرحمة . والشقاء إلى جانب النعيم . والقبح إلى جانب الجمال . وكذلك الحياة ! والفن فى حملته أسمى من الأدب والتفكير الفلسفى لأن وجهة الفن الجمال . الجمال أسمى مما يسمى حقاً . والجمال الذى يحلقه المصور بلمسة أو خط أو لون أرفع من كل فلسفة وكتابة . و « باور » يرى الدين والشعر فى صور « المحرك » مثلاً كما يرى الدين والجمال فى شعر « وليم بليك » وشخصيات « دوستوفسكى » وأحياناً « بنهوفن » . وهو يقرر كل هذه الآراء والمشاعر فى من رائع من اللفظ والعبارة لا يقل كثيراً فى تعبيره وموسيقاه عن فن هؤلاء الرجال النابهين .

## حرفة الكتابة •

سألنى ذات مرة صديق فاضل « كيف أصبح كاتباً ؟ » على زعم أئنى قد أصبحت كاتباً وأئنى أقدر على معاونته وإرشاده إلى الطريق الذهنى فى إحتراف الكتابة . فقلت له « الأجدر بك أن تجتهد فى أن لاتصبح كاتباً » « ولماذا ؟ » « لاننى أود لك كما أود لكل صديق أحبه أن يعيش الحياة . لا أن يصفها . وأن يريح دماغه . لا أن يقلقها ويكلف نفسه متاعب هو فى غنى عنها . »

- ألا يعيش الكاتب ؟

- لا أدرى ماذا تقصد .

- اسمع منى إذن ولك أن تختار بعد هذا إذا أردت أن تمتحن حرفة الكتابة أو أن تعيش الحياة لأن حرفة الكتابة عندى والحياة نقبضان لا يلتقيان .

- إنك تلغز يا صديقى ، وماذا تكون الحياة هذه إذا كانت تقيض حرفة الأدب الذى هو الحياة فى أسمى مظاهرها وأروع مجاليها وأحفل ساعاتها ؟

- أترى منا من هذا الكلام وتعال بنا نواجه الأمر الواقع .

فالكاتب هو ذلك الرجل الذى يعتقد أنه يرى الأشياء والحقائق والحياة على خلاف ما يراها عامة الناس . وأن مهمته وحرفته أن يخرج تلك المعاني والصور التى يراها هو ولا يراها غيره . وأن يعبر عن تلك المعاني والصور بلغة الناس العاديين . وأن ينزل بتلك المعاني والصور والنظرات من علياء سمائها إلى حيث يرى الناس الواضح البلى . أهنا مسلم به ؟

قال : « نعم وهو كذلك » .

- وهذه الأسباب فقد قر فى ذهنه أنه ليس كائنات العاديين . بل هو نوع قائم بذاته بين الناس . وصلته بعامة الناس هى صلة المختار مع العادى الذى يرى فىك أكثر مما ترى فى نفسك . والذى جعل همه وكده أن يوضح لك نفسك كما يراها هو . وأن يوضح لك الجوانب التى تغفل عنها ولا تلتفت إليها .

ولهذا السبب عينه فقد قر فى ذهنه أنه يجب عليه أن لا يمشى كما يمشى بقية الناس . وأن لا ينظر كما ينظر الآخرون . ولا يعمل شيئاً على النهج الذى يعمل به بقية الأحياء . وأنت ترى من هذا أنه يكلف نفسه أشياء عدة ويرهقها . ويضع لنفسه وظيفة هى فى عراك دائم مع ميول الحياة فيه . مع سمعه وبصره وبقية الحواس . فالكاتب بتكوينه الطبيعى

لا يخرج أن يكون إنساناً تسره المناظر الجميلة ويكره القبيح الحزين . وفيه دفقة الحيوان الذي يود أن يستمتع بخواسه ويطلق لنفسه العنان . غير أن وظيفته أو ما يتخلله هو كذلك تكبح كل تلك الرغبات والميول الأصلية فيه . ومن هنا نشأ التراع بين الكاتب كما نحم عليه اصول مهنته ، وبين الإنسان الذي لا يود أن يرهق كاهله بكل تلك الحدود والقوانين الثقيلة .

- بدأت أفهم ما تعنى .

- وأغرب من ذلك كله أنك ترى الكتاب يتحدثون عن عدم التقدير ويحسون حظههم ويلعنون الناس والظروف السيئة ، ولو تمنعوا قليلاً لعرفوا أن ذلك ما يجب أن ينتظروا ويوطدوا النفس عليه ، إذ أن العطف منشوة الالفة والقراءة والشبه . والكاتب يحكم وظيفته وسلوكه بتأى عن هذا الطريق فما شأن الناس العاديين معه . بل الأغرب من ذلك كله عندنا أن يصفق الناس لمن يتقصصهم ويبرهن على امتيازهم عليهم ويضحك منهم ويسخر . إن ذلك ضعة منهم وجهل وبدلاً من تدمير الكتابات وشكواهم يجب أن ينفذ الجمهور منهم ويشكو أمرهم ويقاضيههم أمام القضاء . ماذا يهم الرجل العادى إن لك دماغاً لا يشبه دماغه ، ولك إحساس عميق أو فكر أصيل ؟ إنك لا تشبهه وكفى ، فكما أن القرد لا يهيم شقى الإنسان أم سعد ، كذلك يجب أن يكون شأن الرجل العادى مع من يدعو العبقريّة والإمّياز . وهو حق وعلى صواب . والبقري خاطيء وعلى خطأ في فهمه لأصول الحياة وشأن الأحياء . فأنت ترى من هذا الحديث أنه ليس من مهنة أبعاد من منطق الأشياء أكثر من مهنة الكتابة وحرقة الأدب . والكتاب على هذا الزعم من أحق الناس . لأستثنى من ذلك نفسى فكثيراً ما أمضتني هذه المهنة وضحكت على نفسى حينما أدخلو الى نفسى .

- إنك تقول شيئاً عجباً ، لماذا إذا تسمر في هذه الحرفة وأنت تعتقد فيها هذا الاعتماد ؟

- انعلق بها لأنه يصعب على الإنسان ترك شيء عشقه في بادىء الأمر ، خصوصاً إذا كان في ذلك الأمر تعلق للنفس أنها ممتازة وغش لها في ساعات التقدير وصخب الحياة . ذلك كل ما في الأمر ! أما من يقول لك خلاف ذلك فإما أنه لا يدري شيئاً عن نفسه أو معاند مكابر في الحق الواضح !

سوف أقص لك بعض حنايات الكتابة مع أننى مازلت مبتدئاً في هذه الحرفة العجيبة . والرجل الذي يدخل الحياة على زعم أنه يود أن يكون كاتباً لا يمكن أن ينظر

إلى أى شيء أو يعمل أى شيء . أو ينام أو يصحو إلا وخاطر الكتابة في رأسه . كيف يحبل كل تلك الأشياء إلى مادة كتابية . وهو رجل مجنون في واقع الأمر ولو أن الناس لاتسميه بذلك الإسم لأن جنونه في دائرة رأسه .

فإذا ما جلست آكل وكان ذلك الأكل غير آكل المعتاد . ولنفرض أنه كان أكلة شهياً حلواً ، لم أترك نفسي تتمتع بذلك الأكل وأسير مع نشوة فرح الجسد والحواس . بل أظل أحلل وأتقّب كيف أخرج من تلك الأكلة بمقالة أو قصة . فتري رأسي مشغولاً طيلة مدة المائدة . أكون موضوعي قصة عن جلوس الناس مثلاً على المائدة وطرق أكلهم ومايجس به حاطرهم وهم يأكلون ! أتناولهم كلهم وأعطى صورة كبيرة أم أتناول واحداً منهم فأصف حركاته وبلواته وأجعل المائدة كأساس للقصة ؟ أم أتوجه بنظري إلى صاحب المائدة وعن شعوره وإحساسه وهو يقدم تلك المائدة الفاخرة ومايجس به من الزهو والخيلاء ! أم أرجع إلى نفسي أنا وأعمل عملية تحليل نفسياني في تلك اللحظة .

كل هذه وأشباهها تعرض للكاتب وهو على مائدة الطعام وكان أولى به أن يلتذ بالأكل « والسلام » . ولكنه ينحصر على نفسه ولايجس لذّة الأكل والأشربة . وما كان أغناه عن كل ذلك إن لم تكن حرفته الكتابية أو مهواته .

فإذا ما ذهبت إلى حفلة رياضية أو ما شابهها لم أترك نفسي تتمتع بذلك الحفل البريء بل أظل ساكناً كأنني نصف إله ألاحظ الناس وأقيد عليهم حركاتهم وسخافاتهم وإيماءاتهم ولا أشترك في كل ذلك . بل أظل متفرجاً عليهم . نائياً ببصري عن موضع القرعة والمشاهدة إلى التمعن في سلوك الناس ودوافع ذلك السلوك . وأروح أفلق رأسي كيف أعالج تلك المواد المضطربة التي شاهدها في الملعب الرياضي ، وكأنني لم أشهد احتفالاً أو ما شابهه بل شهدت أشخاصاً وسلوكاً وحركات مختلفة . أنود بإصديقي أن تكون متفرجاً واصفاً للحياة بدلاً من أن تشترك فيها وتحيا كل دقيقة من دقائقها ؟

فإذا كنت في السينما أو في الكازينو أبصاً إستولى على جنون الملاحظة والتحليل . وبينما الناس يرقصون ويشربون ولايحسون بوجودي أنا الضعيف أكون جالساً على مقعدى ممعناً فيهم وفي هواجسهم أحدث نفسي كيف أننى أمتاز على هؤلاء الناس الذين يبدون لي كالقروء أو القطط ، أقيد عليهم حركاتهم الطائشة وصراخهم وضجيجهم . وأخرج وأنا أحسب أن قد غنمت أكبر غنيمة وطفرت بسر الحياة . والحياة تعلم أنهم أعقل مني وأصوب في قبول الحياة والنجاح فيها . وهكذا إلى آخر المنقصات . فما يتحرك الكاتب . أو من يعنى بأن يكون كاتباً حركة . أو يشاهد منظراً ، أو يأكل أكلة . أو يبصق لإنسان

أو يأكل ، أو يضحك ، أو يعمل أى عمل من الأعمال ، أو يظل صامتاً لا ينس بيت شقة ، إلا وهو مشغول به ناظر فيه محلل لحيته تلك : وكان أجدر به من كل ذلك أن يسأل نفسه قائلاً : « وما شأنك أنت يا فضولى بمثل هذه المهمة الثقيلة : أأنت ولى أمرهم : ومن الذى كلفك بتلك المأمورية والقيام بتلك الوظيفة ؟ . . . هو الجنون والعباذ بالله ! » .

وليس للكاتب الناجح فى مهنة حياة خاصة بنفسه . وإنما حياته كلها مكرسة لحرفته . ولا أعرف حرفة قط تشغل الإنسان وتسلبه نعمة الحياة فى الليل والنهار مثل حرفة الكاتب الفنان . فهو يحيا فى حياة الآخرين ويضيع وقته واصفاً الحياة : وموقفه منها موقف المتفرج الفضولى لاموقف المشترك الصحيح الشعور المتناقد لنفسه فى الحياة ودفعتها .

زد على ذلك أن الكاتب قل أن يخلو من الغرور وذلك طبعى ، إذ يحس نفسه ليس كالناس العاديين ، ولذلك فهو يظهر أمام الناس وقد وضع هيئة لا تمت إليهم بسبب . فهو فى الترام وفى ساعات الفراغ لا ينسى أنه كاتب . والناس مطالبون بأن يعرفوا فيه هذه الخلة ويحترموه لأجلها ، وكان أولى بهم والله أن يبينوه ولا يحترموه لأنه كاتب .

ولكى تترك يا صديقى فكرة الكتابة فإننى سأحكى لك هذه القصة التى وقعت لى قريباً :

دعاني أحد الناس ممن لهم مكانة فى الهيئة الإجتماعية وقال فى خطاب الدعوة إنه معجب بمقالتي ويود التشرف ( خلى بالك التشرف ) بمعرفتي ، وحدد لذلك موعداً ، فما جاء الموعد إلا وكنت قد ترينت بأحسن ما عندى من الثياب وخرجت أخطر كأننى قد نزلت الآن من جبل «الأولمب» وأدخلنى الخادم إلى حيث الصديق . فلما وطئت عتبة الدار رأيت أمامى منظراً أفر من قبحه لولا أن تشجعت وقلت فى نفسى الأمر لله . وحينما اقتربت قليلاً وتبينت الحائظ الذى كان أمامى وجدت أن به مرآة كبيرة !



## الفن في حياتنا اليومية \*

أو

### كيف نحب الحياة الفنية

يتكلم الناس عن الفن كأنه وحدة من المعارف العليا أو الوظائف الكبرى التي لا تدخل حياة كل يوم فيها . ولا لعامة الناس شأن بها . يتكلم الناس عن الفن والفلسفة وما إليهما من المعارف الرفيعة كأنها أشياء خصصت لفريق خاص من الفنانين والنقاد والفلاسفة . وإنما لنسمع في كثير من الأحيان أن ليس للفن دخل بالحياة في معناها العادي المألوف . وإنما هو هبة والحياة الرفيعة تمنح للنخبة الممتازة من أبناء الحياة . ويعنى به ويستأثر بشئونه جماعة المثقفين والفنانين ! ذلك هو سوء الاستعمال وإستئثار الطبقات وتصعير الأخصائيين الذين يحصرون الفنون في آفاق ضيقة وحدود معلومة . ويعطونها من الرموز والأسماء والإصطلاحات مالا طاقة لرجل الشارع بمعرفته والإصطلاح بتفهم أسرارها . فذلكم هو الإستئثار في أشنع صوره . والفردية متكررة في زى العلم والمثمرة والضيق الذهني يسمى بأسماء الإستنارة وانتفاضة المعرفة !

ليس الفن محصوراً في موسيقى كبار المؤلفين ، ولا في صور المصورين ، وأشعار الشعراء ، وفن الأدباء الخالدين . وإنما هو يواجهك حيثما أدركت نظرك شكلاً من الأشكال أو وضعاً من الأوضاع . أو مطلباً من المطالب . أو حاجة من الحاجات . ولا أحسب أن الحياة كلها في جملة ما وتفصيلها سوى عمل فني محكم الأصول . بديع الوضع . موفق التكوين .

إن « الخلق الذكي » هو طريق الحياة وسلوها وغايتها القصوى التي لا غاية بعدها . هذا الخلق الذكي لا دافع له سوى « إرادة » الحياة التي لا إرادة فوقها . والحياة تخلق لأنها لا تستطيع غير ذلك طريقاً أو سبيلاً ، تخلق كل شيء بعد أن تخلع عليه هيئة وتميزه بالميزة التي تدل عليه . وتعمل من كل ذلك المزيج المختلف الصور المتضاد الأغراض صورة واحدة كبرى ونعماً واحداً جليلاً . وذلك هو مظهر « الإرادة الذكية » في الخلق الفني .

وفي واقع الأمر وحقيقته نحن كلنا خائفون — كلنا خائفون بالفطرة . خائفون حينما نقوم بأنفسنا بالأعمال ونتحرك أقل الحركات . فلنكن أعمالنا إذا مجودة ، ولنكن حركاتنا موفقة رشيقة . ولنعلم العهد اليوناني في عبادة الجمال . فليس أحق بالعبادة من الفن والجمال !

وإنه لمن البديهي أننا لا نستطيع كلنا أن نكون موسيقيين وشعراء ومصورين - ولكننا نستطيع كلنا أن نكون عنانين في حياتنا اليومية بأقل جهد، إذا جعلنا نصب أعيننا أن الفن معناه الخلق والترتيب والإتساق، ويستطيع الطفل الصغير أن يرتب أدواته ويفتن في تنسيقها على نمط خاص هو مؤلفه والمبتكر له، وأن يجمع بين الأشياء المعروفة نظاماً جديداً، ويظهر بتلك الشوة الروحية التي لا يعرفها إلا من عرف الفن وذاق لذة الخلق والترتيب والإختبار، وليس معنى الخلق والإبتكار أن نأتي بأشياء من العدم، بل أن ننظم المعروف المألوف في أوضاع جديدة يرتاح إليها النظر ويسكن إليها الخاطر - وتوحي بتسلسل الأفكار الحية والمشاعر البقطة ونسكب على الكل جمالاً وجلالاً. ونضفي على حياتنا قصداً ومعنى يصبح بذلك الفرد منا حياً في كل جزء من أجزاء جسمه .

ولقد ذاعت بعض النظريات الخاطئة عقب الثورة الصناعية أن المادة وحدها هي الأمر الهام في هذه الحياة . وأن المنفعة هي الدافع الوحيد لكل أعمالنا . وأن ما يقال عن ضرورة الفن والشعر كله سخف وجهل . وليس أبعد من هذا الرأي عن الصواب ولا أنأى منه عن الحقيقة ومعرفة الحياة .

هل وراء الحياة كلها نفع مادي ؟ هل لهذا النظام البديع أي قيمة مادية ؟ إن الحياة في كل نظامها لا تدفعها المادة ولا تنمى أعمالها ومنتهى المنفعة . وكذلك الإنسان قد عرف كثيراً من الأشياء على سبيل الزينة والفن قبل أن يعرفها على سبيل الضرورة والمنفعة ، عرف الملابس وأواني الأكل على سبيل الزينة قبل أن يعرف ضرورتها ، بل أي مادة وأي منفعة تدفع بالرجل الثرى أن يكس المال وأن ينظمه أكوماً وأن يظل ينظر إليه نظرة الشوة والظفر ؟ إننا في ملابسنا وفي مراكبنا يدفعا الفن والمظهر قبل أن تدفعا الضرورة أو المنفعة ، وهذه حقيقة ثابتة يجب أن تقرر بين هذه النظريات المادية التي نملأ جو التفكير العصري . فإن أصل الفن عريق في أصل الحياة .

إننا نرجو أن نكثر من هذه المنزعة الفنية في نفوسنا وأن نغديها ، ونعدها . وعلى هذا الإعتبار نستطيع ربة البيت أن تنظم بيتها على نسق خاص مهما قلت مؤثثاته بما تختاره من الألوان وطريقة تزويجها، ووضع الأواني والأسرة والمقاعد، وتجعل من كل تلك الأشياء العادية تحفة جمال ، وقطعة شعر هي مؤلفتها والخالقة لها، ونظل نشعر بفخر الإنسحاب إليها ، وننظر إليها نظرة المعجب الراضى في حضرة الغرباء والزائرين كما ينظر المصور الفنان إلى متحف صوره حينما يحس بأنه خالق، وأنه يشترك في نظام الحياة الذكي ، ويجاريه في معرض المسابقات والتفنن لتجريد فن الحياة . وكذلك نحس ربة البيت الخالقة الفنانة في دائرة عملها ، تشعر أنها كل واحد مع نبض الإرادة الخالقة ونغم متسق

مع نظام الأشياء والتكوين . وليس بعد ذلك معنى ولا حياة !

وكذلك يستطيع الموظف والتاجر والعامل كل في حقله أن يجعل عمله الذى يقتات منه تحفة جمال وآية في حد ذاته . وإنما يكون كل ذلك بالاختيار الذكى والترتيب المهذب والإمتنباطات المبتكرة ، فيشعر الفرد وهو يقوم بواجباته كأنه يلهمو ويتلى ؛ لأن تلك الواجبات والأعمال تعطيه نشوة من نفسها ورفعة من عندها ، ويعطيها هو نظاماً من نظام حياته ، ويخلق عليها روحاً من معين روحه ، وجدير بمن يؤدي عمله على هذا النهج أن لا يحتاج إلى رياضة أو سلوة لأن عمله هو رياسته وواجبه وسلواه .

و كنت ألهو حديثاً بمطالعة كتاب ضخيم ألفته كاتبة أمريكية واسمته «روح غرفة» . و كنت أظن قبل تصفحه أنه إسم رواية خيالية . فإذا به بحث في طريقة تأليف الغرف . فلم أعجب ، بل زاد شغفى بمطالعة .

ولقد عرفت التهضبات المدينية شأن الفنون الجميلة في العبادة الدينية واتساق النغم الروحي في نفس الإنسان . فأدخل الإغريق الدراما في معابدهم وهياكل آلهتهم . وقام الكاردينال « نيومان » بهضة أكسفورد المعروفة في العصر الفكتوري لإدخال الفنون في حظيرة الكنيسة . بما لها من بليغ الأثر في تصفية الروح الإنساني وهداة كيانه . وقام من بعده الشاعر الإنجليزي المعروف « ويليام موريس » يبشر بالفن الجميل ويكرس حياته للصناعات الفنية وإنشاء مصانع للزجاج الملون وتلوين الملابس والأثاثات . وعنى بكل ما يجعل الحياة في البيت فناً من الفنون لا ضرورة من الضروريات ، فأحال البيت الإنجليزي إلى معبد أرواح : وهياكل جمال وفن . وأراد للفرد البريطاني أن يعيش الفن صبحه ومساءه . وفي نومه ويقظته ، وفي عمله وفي ساعة فراغه . ذلك لأن الدهن يتجه هذه الناحية فيصبح مشغولاً بالفن ويدخله في حسابه . ويظل يتلمس طرق تجميل معاشه وهو في الشارع أو في الحقل ينظر ، أو في الترام يشاهد مختلف الأزياء والأنماط .

وفي الحق ان حياتنا مليئة بالفن . بالرغم مما يقال عن المادية والمنفعة . غير أن أغله هو من الثرية ، ونحن نريد حياتنا أن تزان بضى الخلق ، فإذا ما اتجهت أمة من الأمم هذا الاتجاه الفني المجيد فبشرها بحياة مجيدة .

وقصة اليونان في هذا الصدد معروفة مشهورة . غير أنني أكتفى بأن أقص الحكاية التالية لما لها من بليغ الأثر والدلالة . لأن للفن المكان الأسمى في حياة كل يوناني ، وكل فرد هناك فنان بالمقدار الذى يستطيع وفي الدائرة التى يتحرك فيها .

كانت الأمهات الاغريقيات يحفظن التماثيل الجميلة الشكل ، البديعة التكوين في

حالة الحمل . لا اعتقدهم أنهم يادمان النظر في تلك التماثيل الكاملة سيلدن أولاداً على ذلك الطراز التمثالي البديع ، ومهما يكن من صحة هذا الزعم فالشيء الذي لاشك فيه أن «الإيماء» حقيقة علمية لاشك فيها . وأن من يحبط نفسه بصور الجمال وتسكو روحه من موسيقى القوالب الخالدة لا يسهه إلا أن يكون جميلاً نبيلاً صادقاً في كل ما يأتي ويشعر ويحب .

فلنكن أمة نعرف الجميل . ولنكن أفراداً خالقين . ولنكن بالفن في حياتنا اليومية لأن عنايتنا به هي عناية بحياتنا . ولنعط أعمالنا وحركاتنا حقها من القالب واللون والحركة ، ولنحل كل صوت نسمعه إلى نغم . وكل شكل نراه إلى صورة متسقة ، وكل حركة إلى معنى نصير . إذا عرفنا كل ذلك . وإذا حينئذ على هذا النهج القويم ، وعشنا هذا الفن الصميم عدنا أمة ناهضة آخذة بأسباب الحياة والنجاح ، وعادت حياتنا حافلة مليئة وعاد كل فرد منا مؤلفاً خالقاً لا يتطرق السأم إليه ولا يعرف مأهوا التشاؤم لأنه يحيا حيوات عدة هو مبدعها وخالق لها . إذ ذاك تطلع علينا الحياة في إطارين من الجدل والفرح والامتلاء : إطار إلهي . وإطار إنساني بديع . وعدنا نحن أبناء الحياة نحكي الحياة في لعبها الكبرى وسلوتها العظمى ، لأننا نساهم في عملية الخلق الأبدى . ونأكل من المائدة الإلهية ونباري الخالق في صنعه « تبارك الله أحسن الخالقين » .

## الثقافة اللاتينية

وهل هي خير لنا من غيرها

الثقافة اللاتينية من ثقافات العالم المعدودة . وإذا كانت الصحف المصرية تلجج هذه الأيام بأخبار مؤتمر الصحافة اللاتينية بحق على كل من يهجم أمر الثقافة في هذا البلد أن يعيد النظر في أمر هذه الثقافة اللاتينية وتحديد علاقتها

فليس من شك أن حظ مصر من هذه الثقافة إلى الآن وافر كبير . وهناك مسائل تمن لذهن الباحث كلما ذكرت هذه الثقافة وما لها من ميزات وما يؤخذ عليها من نقائص ومعايب .

لست من الذين يحزمون بأفضلية أى ثقافة إطلاقاً على أى ثقافة أخرى . وعندى أن مسألة الأفضلية مسألة نسبية تختلف باختلاف أوجه النظر وحاجات كل فرد ، وكل مزاج وكل أمة ، ونحن هنا بسبيل عرض هذه المسألة وإتصالها بمصر وبقية البلدان الشرقية .

ولقد كنت أقرأ هذين اليومين مقالات نقدية عن فن التصوير الفرنسى بمناسبة افتتاح معرض الصور الفرنسى فى مدينة لندن . وقد أتاحت هذه الفرصة لمقاد الإنجليز الفنيين أن يتحدثوا عن ميزات الفن الفرنسى وخصائصه . ويكادون يتفقون على أن فرنسا هى قائدة جميع الأمم فى هذا الفن الجميل .

نقول هذا لتوضح أننا لسنا من أولئك الذين ينتقصون الثقافة الفرنسية عامة فى لهجة الجزم والتأكيد . وإن دل مثل ذلك الحكم على شيء فإنما يدل على ضيق أفق النظر وسطحية الحكم والتفكير .

الثقافة اللاتينية من ثقافات العالم المعدودة . لاشك فى ذلك ولارىب . وهى ككل ظاهرة لها خصائص ناتجة تشير إليها وتعطيها طابعها وتسهل أمر الحديث عنها للعارفين الدارسين . فما هى خصائص الثقافة اللاتينية إذن ؟

أول خصائص الرجل اللاتينى أن له عقلية يقظة ذكية تلمح ألوان الحياة ودقائقها وتفصيلها ، ويثبت كل ذلك فى الفن المكتوب أو المخطوط ، وتعطيه من لذة الحياة وإندفاع الشعور ومسررات الساعة ألواناً صافية مشرقة . وهى حكمة الحياة عند الرجل الفرنسى أو الميطليانى ؛ إنما هى فى لذة الحياة . فالعقلية اللاتينية متوفرة الشعور دائماً . متحفزة الفكر . عندها القدرة على الإستمتاع بالحياة ولمح الدقائق ؛ والاسترسال مع مطالب الساعة ونزوات

القلب والفكر . يعدل من هذا الاتجاه نزعة منطقية فكرية محضة . تعبد الوضوح وتعرض كل شيء في دقة حسابية لا مكان للمجهول ، أو الغامض ، أو العميق الملتوي ، أو الرمز من مكان فيها . فالأدب والفن والفلسفة اللاتينية ترى فيها هذه الخصائص أكثر ما ترى . هذا هو لونها الغالب المسيطر . ومرجع هذا اللون هو المراجع اللاتيني وطبيعة تكوين الشخصية اللاتينية .

والشعوب اللاتينية تنظر إلى الحياة - ويرجع ذلك الصدى في ثقافتهم في الأغلب والأعم - نظرة اللاهى المرح الذى يديم النظر فى « كلابد وسكوب » الحياة بلذة واستمتاع ويرى الأشياء فى لحظات خاطفة ، ولا يؤمن بالواجب و « الرواقية » والنظر إلى الحياة نظرة الجهاد المتجهم الذى ينظر إلى الحياة وكأنها « ميدان قتال » - شأن الأنجلو ساكسون - ولكنه أقرب لأن ينظر إليها وكأنها « فراش من الورد » كل ما فيه ملذ وهم يؤدون أعمالهم وكأنهم يلعبون أو يتحادثون .

وبالإختصار فإن العقلية اللاتينية تشبه عقلية أكثر الشعوب الشرقية - خاصة ما كان منها على البحر الأبيض المتوسط مثل مصر . إلهجات اللاتينيين ليست بغريبة عنا . كما أن ما يؤخذ عليهم عادة من خصائل وخصائص يمكن أن يؤخذ علينا أيضا . وهنا وجه الشبه . وذلك راجع من غير شك إلى أثر الإقليم فى المراجع .

فتحن تفهم الفن الإيطالى أو الفرنسى بعاء أقل مما تفهم به الفن الألمانى أو الإسكندناوى مثلا . لأن ذلك إلينا أقرب وبنا أشبه .

هذه هى المسألة . فهل نحن نربيع فكريا بدراسة فكر يشبه فكرنا ، وتقرب أمثله العليا من أمثلتنا . ونشترك معه فى أهم الميزات والخصائص ؟ أم نحن أقرب إلى الصواب الفكرى بدراسة ثقافة وفكر يختلفان عن ثقافتنا وفكرنا فى أهم الخصائص والشيآت ؟

الجواب على هذا السؤال ليس مما يسهل أمره . بل هو من الصعوبة بمكان كبير ! هل نصيب إلى محصولنا الثقافى وإلى نمونا الفكرى بدراسة ثقافة وطرائق فكرية لا ننكرها بل لا يبدو عليها وجه الغرابة لدينا . وهل « المثل » يعين « المثل » أكثر ويساعده على تفهم نفسه ونموه الفكرى أم أن « الضد » أو الشيء المختلف أقمن بالدراسة وتكميل أوجه الضعف ومعرفة أوجه النظر الأخرى ؟

أعتقد أن دراسة البعيد عنا الغريب عن طبيعنا ، أخرى بأن يفيدنا فى الخلق والشخصية . ولكنى لا أستطيع الجواب على هذا السؤال من حيث الفائدة الفكرية وفهم الأشياء .

وأقرب الأمثلة التى ترد إلى الذهن فى هذا المضمار هى :

لماذا نغير وجهة فهمنا إلى الأشياء ؟ وهل من خير في ذلك ؟ وهل من الطبيعي  
المأمون العاقبة للتقدم الفكري أن نقحم على مزاجنا مزاجاً آخر ؟  
تلك بعض المسائل . وحسبى أن أفتح هذا الموضوع لأدبائنا ومفكرينا . خاصة رجال  
الجامعة المصرية الذين يقومون بمهمة تنقيف النشأ المصري .

## ساعة مع أندريه مورو

### الكاتب الفرنسي الشهير

« أندريه مورو » كاتب ملحوظ المكانة - على الشهرة - كثير الصن في صروب الأدب وألوان الكتابة . فهو بعد ثالث ثلاثة في كتابة التراجم الفنية الحديثة . هم أشهر من عرف في هذا الباب . وبرز في ذلك المصمار : « مورو » و « ستراتشي » الانجليزى الذى توفي أخيراً . « وأميل لدفع » الألمانى ثالث يذكر كلما ذكرت كتابة التاريخ وجاء ذكر السير والعظماء .

وهو إلى جانب هذا مؤلف قصصى . نارع الفن دقيق التصوير . يمزج في فنه بين حقائق الحياة الواقعة . وسابحات التخيل الجامحة . ولعب التصورات الفكهة ، فتخرج قصصه حلوة الخيال والذوق ، فكهة المنعى والأسلوب .

وهو إلى جانب كتابة القصص والتراجم - ناقد منهم بركة الآداب العالمية . خبير بالأدب الانجليزى والأمريكى . وله دراسات في هذا الصدد معروفة مقروءة . كما أنه صحفى يكتب للصحف في الشؤون الإجتماعية والنفسية . وينقد لها الكتب الأدبية الهامة في أمريكا وإنجلترا وفرنسا - نقد عالم خبير .

إنتهزت فرصة رايوت مصر - في شهر مارس الماضى .. وطلبت منه أن يتحدث إليه في شؤون الأدب والفن فأجابنى إلى طلبى . فى أريحية وظرف . وجدته فى غرفته فى فندق شبرد وأمامه على المنضدة عدد وافر من الكتب التى تتناول شؤون مصر . بعضها بالإنجليزية وبعضها بالفرنسية . وكنت أعرف قبل ذاك أنه يجيد اللغة الإنجليزية يقرأ بها ويتحدثها بلباقة ومقدرة . فحيته وأعربت له عن أعجابى بكتبه التى قرأت . وأطلعت على بضعة أعداد من مجلة الهلال - وكان من بين مقالاتها مقال عنه - فتصفحها شاكراً . وابتسم حينما وجد أسماء بعض كتبه بين الحروف العربية . وأعرب عن أسفه أنه لا يستطيع أن يقرأ العربية . ثم لمح صورة غاندى فى احد الأعداد فعرفه وتحدث عنه . وابتدأت أسأله قائلاً :

« هل فكرة وضع كتاب عن مصر هى التى حدث بكم لزيارة هذه البلاد ؟ »



## الكتابة عن الأمم :

**فأجاب :** « كلا ، إننى لا أفكر الآن فى وضع كتاب عن مصر . وإنا أثبت إلى هذه البلاد بدعوة خاصة من الكلية الفرنسية فى الإسكندرية لألقى عدداً من المحاضرات فى الأدب ، وانتهزت هذه الفرصة لأرور القاهرة . وأنا لا أستطيع أن أصح كتاباً عن بلد من البلدان ما لم أبق به رديحاً من الزمن . وأتعلم لغته . وأحدث إلى عدد وافر من أهله . وعلى هذا الاعتبار أستطيع أن أكتب عن إنجلترا والإنجليز لأنى أقمت هناك زماناً وسمعتهم ، كما يمكننى أن أكتب عن الأمريكان . فإذا لمستوى على خاطر الكتابة عن مصر مثلاً ، فإن أول شيء أعمله أن أتعلم اللغة العربية . وأن أقيم هنا بضعة أشهر على الأقل . وربما أستطعت تحقيق ذلك فى المستقبل . أما الآن فربما أكتب قليلاً من المقالات للصحافة عن مشاهداتى الخاصة فى مصر . ولست أومن بهذا الضرب من التأليف الذى يعمم فى الأحكام . ويستتج النظريات الكبيرة من الحوادث الصغيرة . ولا أومن كثيراً « بالسيكولوجيا » الوطنية : وإنما أومن « بالسيكولوجيا » الفردية . فأنا إذا ما كتبت عن مصر مثلاً كتبت عنك أنت أو عن صديقى بامنا أو عن أى شخص آخر قابلته وتحدثت إليه . وأنت ولا شك تعرف مثل أوسطو المشهور القائل : « إننى أعرف هذا الجواد - ولكننى لأعرف صفة الجوادية » . وعندى أن خير وصف لشعب من الشعوب هو أن تعطى صورة أمينة لما عرفت واختبرت بنفسك . وهذا ما لم يتيسر لى على وجه طيب أثناء إقامتى القصيرة هنا »

## مقارنة بين الخلق الإنجليزى والخلق الأمريكى :

**فقلت :** « يسرنى بهذه المناسبة أن أعلن اليكم مزيد إعجابى وتقديرى لسعة النظر التى اتصفتم بها ، وحسن الإنصاف الذى أملى عليكم ما كنتموه عن الأمريكان والإنجليز فهذه ميزة نادرة بين الكتاب الأجانب الذين يزورون غير بلادهم . فهم عادة يطلقون لحياتهم القنان فى الكتابة عن أخلاق أمة من الأمم . ويسمحون لأفكارهم السافكة بالصعكة فى أفكارهم وملاحظاتهم : فهل لك أن تحدثنى عن الفرق - بوجه عام - بين الشخصيتين الإنجليزية والأمريكية التى عرفتها حديثاً ودرستها عن كثب ؟ »

**فقال :** « ليس الفرق بين الخلق الإنجليزى والأميركى بالواسع المدى والصفات المشتركة بينهما أكثر وأهم من وجوه الاختلاف ونواحي الفروق . ذلك لأن معظم الأمريكان من أصل إنجليزى كما تعلم . وإن كانت الأجناس الأوروبية الأخرى قد خضعت من أثر الدم الإنجليزى بينهم وغيرت - بعض الشيء - من الخلق الإنجليزى الأصيل .

« ويمكننى أن أقول - أجماًلاً - إن الأمريكان لأنهم شعب حديث - شغوفون

بالحياة . يستولى عليهم القلق والتطلع . بينما ترى الإنجليزى هادىء الأعصاب متشد الخطل .  
يستقبل الحياة إستقبال الائق المطر . ولأن الأمريكان أحدث من الإنجليز فى التاريخ  
فخلقهم لم يتركز وبتلور بعد . وأمام الامة الأمريكية - فيما أعتقد - مستقل مجيد  
ئيس أمام أى أمة أخرى . وأدبهم أخذ فى النماء والنضوج . وأظن أنه بعد مئى فترة  
من الزمان سيبصيح أدبهم من أعظم آداب العالم . وأسرع فأقول إنه ليس معنى ذلك أن  
ليس للإنجليز أدب رائع . فهم ولاشك لهم الآن ذلك الأدب المجيد . »

**قلت :** كنت أقرأ هذه الأيام كتاباً مؤلف دنماركى عاش فى إنجلترا زمناً ووضع  
كتاباً مشهوراً عنهم إسمه « الإنجليز هل هم إنسانيون » وفى مقدمة ذلك الكتاب يشير  
المؤلف الى صمت الإنجليزى وعدم مقدرته على الإفصاح والإبانة .

**قال :** « إنا هم كذلك لأنهم شعب متأدب محتشم لايجب الرثرة والمباهاة » .

**قلت :** « أذكر أننى قرأت لكم فى أحد أعداد مجلة « الاتلانتيك » الأمريكية  
منذ بضعة أعوام خطاباً لصديق فرنسى يرغب فى زيارة إنجلترا . تنصحوه له وتحذونه  
عن الخلق الإنجليزى . وقد قائم لذلك الصديق فى مقالكم المذكور فى فكاهة ظاهرة :  
« إن الإنجليزى يدعوك لأن تزوره فى كوخه الصغير فى القرية الفلانية . فإذا ذهبت  
وجدت ذلك الكوخ قصراً متيفاً . وانك سوف تحب الكتب الإنجليزية أكثر من كل شىء »  
آتحر . ولكن إياك أن تتحدث عن حبك لها - الى آخر ماقلت لذلك الصديق من هذا  
القبيل - فهل ترون فى ذلك إحشاماً وتواضعاً أو هو نفاق وكبرياء ؟ »

**فأجبت وقال :** « إننى أذكر ذلك المقال جيداً . وإلحشام modesty » ربما جاء  
من فرط الضعف أو فرط القوة والعلمانية . ومصدر إحشام الإنجليزى وعدم تحدئه عن  
ممتلكاته ومعارفه بتأكيد والحاح هو أنه شاعر بقوته . واثق من نفسه . وأغلب ما يكون  
الرجل الكثير الكلام الكثير التأكيد ضعفاً غير واثق مما يقول ، فليجأ إلى الحديث ليبرهم  
نفسه بوجود ما ليس له وجود . وعليه فأنا لا أرى فى هذه الصفة أى نفاق أو كبرياء . وإنا  
أرى فيها إحشاماً وأدباً وقوة خلق . »

**إنجاه الأدب الحديث فى الغرب :**

**قلت :** « هل نرى أن أعرف رأيكم فى الإتجاهات الحديثة فى أدب أوربا وأمريكا ؟ »

**قال :** « حى واحدة . ومصدر ذلك أن أدب أى جيل من الأجيال لابد أن يؤثر  
فيه المكتشفات والبحوث العلمية لذلك العصر - وينجب أن أسرع فأقرر أننى لا أومن  
بالمدراس والخر كات الأدبية ، وإنما أومن بالكتاب أمراً لاجتماعات أو مدارس خاصة .

فإذا عرفنا هذا أمكننا أن نرجع بأسباب الحركة الأدبية الحديثة في أوروبا وأمريكا إلى عاملين إثنين :

« أولهما -- بحوث « فرويد » و « أدلر » وأضرابهما من أفذاذ علماء « السيكولوجيا » الحديثة . فقد شجعت هذه المباحث النفسانية جماعة الأدباء وحفزت قواهم وأمدتهم بالقوة اللازمة لأن يصرحوا بما يعتقدون ويكتبوا ما يفكرون من غير خشية ولا خوف من لوم . »

« ثانيهما -- نظرية النسبية المعروفة للعلامة « أينشتين » . فالحقائق والنظريات لم تعد مطلقة . وأى شيء لم يعد هو نفس الشيء . ولكل رأى -- فالأشياء تختلف باختلاف الأفراد . وقد يختلف الشيء الواحد لدى الفرد الواحد باختلاف المكان والزمان .

وأول من استفاد من بحوث « أينشتين » في النسبية هو إمام القصة في العصر الحديث بلا مراء أعنى -- مارسيل بروست -- فهذا القصصى لم يصف الحوادث كما هي بالطريقة الزمانية المكائبة المألوفة . وإنما حاول أن يدون تيارات التصور والخيالات في وعى أشخاص قصصه . وهو على هذا الاعتبار قصصى في عالم الأحلام والرؤى ! »

قلت : « غير أن بروست -- فيما يتضح لى من مطالعته التى لم أقو عليها طويلا -- عالم يقتل دنيا أحلامه التى يصورها بكثرة التحليل والإسهاب فى الوصف والتوضيح العقلى . واني أجد كتاب إنجلترا المحدثين أمثال « فرجينيا ولف » و « كاترين مانسفيلد » أسهل على الفهم وأخف فى القراءة لأنهم يستعملون الإيجاء بدلا من التحليل الممل . »

فأجابه : « كل هؤلاء ولاشك يقتنون أثر « بروست » ويأتون به . فـ « بروست » هو إمام العصر الحديث فى القصة كما كان « بلزاك » إماما للقصة فى عصره . وكما كان « فلوبيير » زعيم القصة فى أواخر القرن التاسع عشر . »

متى تصبح الترجمة عملاً فنياً :

ثم سألت : « ماهى الخواص التى تجعل الترجمة عملاً فنياً وتميزها عن بقية التراجم وكتابه السير العادية ؟ » .

فقال : « يجب أن نعرف العمل الفنى أولاً . فانت تذكر كلمة « باكون » القائل : « إن الفن هو الإنسان مضافاً إليه الطبيعة » ومعنى ذلك أن الفن هو الطبيعة كما تتضح لذهن فرد من الأفراد .

« والترجمة -- على هذا الاعتبار -- تصبح عملاً فنياً حينما تتعدى أن تكون جملة من الحقائق والأفكار . وهى عمل فنى حينما يرتب المؤلف حقائق كتابه ويعرضها -- من

غير أن يشوهها — في نظام خاص يورد به عوامل الشعر في حياة من يترجم لهم . وبشير من طرف خفي إلى موضوعات الحياة الرئيسية ! فأنت تذكر « عنصر الماء » وأهميته في ترجمتي لحياة شلي . وأن يكون المؤلف قد أحسن بمثل أحساس بطله . وأن يعطف عليه . وأن يحاول أن يرى وجهة نظره كاملة تامة » .

قلت : « أذكر أنكم عقدتم فصلاً خاصاً في كتابكم » نواحي الترجمة « عنوانه « الترجمة كتعبير ذاتي » ومؤدى ذلك الفصل أن المؤلف يجب أن يأخذ حياة بطله إلى نفسه وأن يعبر عنه بعد أن يرى رأيه . ويدير هواجسه في وحدانه وأفكاره في مطارح فكره . أفلا ترون أن ذلك النهج حري بأن ينأى بالمؤلف عن محجة الصواب والوقائع . فيضع أشياء وأفكاراً وعواطف لا أصل لها في حياة الطفل أو هي لم توجد بذلك القدر وعلى ذلك الوجه ؟ »

قال : « ذلك صحيح . ولكنني لا أعني التعبير عن النفس حرياً ولا أقول بوضع أشياء لا وجود لها فعلاً في حياة الطفل . وإنما أقول بضرورة العطف وتفهم وجهة نظر من تترجم له . »

ثم استأنف حديثه قائلاً وقد بدت عليه علامات التفكير واستجماع الذهن . « ولكي تصبح الترجمة عملاً فنياً يجب على المترجم أن يلاحظ عنصر التناسب في تخطيط كتابه . وأن يجعله من هذه الناحية مفهوماً واضحاً من غير أن يظهر أثر الذهن الذي يوضح ويقوم بعملية التخطيط والتوزيع » .

وكان كلما انتهى من الرد على سؤال يتسم بإتسامة الطفل ثم قال « next » « بعده » .  
مقلداً المدرسين الإنجليز الذين يستعملون الطلبة .  
مستقبل القصة :

فقلت : « ما رأيكم في مستقبل القصة . وهل ترون أنها آيلة إلى ————— . »  
فلم يدعني أتم جملة وقاله : « تريد أن تسأل حل القصة آيلة إلى الإنقراض كما يعتقد بعض صحفيي فرنسا ؟ لا ! وعندي أن هؤلاء الذين يقولون ذلك لا يعرفون الطبيعة البشرية . ويمكنني شخصياً أن أرسل إليهم تلهرافاً كما فعل أحد أدباء فرنسا في آخريات القرن التاسع عشر حينما شاع أن المذهب الطبيعي في الوصف القصصي قد مات . فقد أرسل ذلك الأديب يومئذ هذا التلهراف « النزعة الطبيعية — naturalism — لم تمت . الإيضاح بالبريد » وعلى هذه الطريقة يمكنني أن أرسل هذا التلهراف « القصة لم تمت . الإيضاح بالبريد ! »

لم قال : « إن رواية القصص - ووضع الروايات من أهم خصائص الطبيعة البشرية وإذا أمكن الإنسان أن يستغنى عن الخبز الذى يأكله أمكنه بعد ذلك أن يستغنى عن القصة التى يقرأها . وأنا شخصياً لو خيرت بين الخبز والقصة لاخترت القصة . فهى تشبع عاطفة إنسانية لاسبيل إلى إدواها من غير ذلك السبيل . زد على ذلك أن القصة قد تطورت - فى شكلها الحاضر - حتى أصبحت تشمل كل شيء يمكن أن ينكر فيه أو يشعر به الإنسان . وهى ولاشك أصح الأدوات الفنية فى وقتنا الحاضر .

### كيف يؤلف الكتاب :

ثم سأله عن سر الخلق العنى . وقلت : « إننى أظن أن معظم القاصيين وكتاب المسرح فى أوروبا قل أن يتركوا مكتباتهم . وهم بعد ذلك يكتبون عن الطبيعة البشرية وأختلاف وجوهها . وألوان الشخصيات . وتعدد المذاهب الخلقية . والأفراد والأماكن المتباعدة . فكيف يتيسر لهم ذلك ؟ وهل هم يستوحون نفوسهم - فى ذلك - ويترجمون لعواطفهم وميوهم الخاصة بهم ؟

فأجاب : « كلا . ويمكننى أن أقول لك أن كل الكتاب يعرفون الحياة أولاً قبل البدء بالكتابة الخالقة . وأنا لم أبدأ أكتب إلا بعد الثلاثين من عمري . وقد عشت ولاشك أثناء ذلك وعرفت ألواناً من الحياة وصنوفاً من الناس والشخصيات المختلفة .

« ومن جهة أخرى فأتى قل أن تجد كاتباً يجلس إلى مكتبه طيلة الوقت . فالكتاب يعيشون مثل كل الناس وإن لم نرهم فى الطرقات والشوارع . »

### نصيحة إلى أدباء مصر :

وكان آخر سؤال وجهته إليه : « ما هى نصيحتك لمن يخترقون الكتابة فى مصر إذا أرادوا أن ينتجوا أدباً يقرأ غى الخارج ؟ »

فأجاب : « إن هذا البلد مليء بالمواد الكتابية البكر . خاصة فى ميدان الأدب القصصى . وليس على الأدباء إلا أن يخرجوا صورة أمينة لمختلف الأهواء والميول ، وتفاعلهما مع بعض فى هذا البلد الذى ضم خليطاً من الأجناس والعادات والأمزجة . فذلك خير موضوع يصلح للكتابة القصصية . وقد قرأت بعض مقطوعات شعرية لشاعر مصرى وأعجبت بها كثيراً . كما قابلت عدداً من الشبان الأذكياء . وميدان الخلق الأدبي فى مصر واضح . وكل ما يطلب منكم هو التصوير الصادق لهذه الحياة التى تعيشون . ومن حسن الحظ أنها مازالت بكراً لم تتناولها الأبدى بعد بالكتابة والشرح . وإننى أود لو كنت بقصصياً فى هذه البلاد . إذ لكانت المادة لدى متبصرة وعرض الإحسان والإجادة ليست البعيدة النائية . »

## الحب والفن

### ازادورا دنكان

#### الراقصة العالمية

قرأت أخيراً حياة «ازادورا دنكان» - الراقصة العالمية - مكتوبة بقلمها، فقرأت كتاباً فريداً في بابيه . طريفاً في نوعه . غريباً بما احتواه . شجياً في نعمته ونمطه ! . . . هو تاريخ حياة فنانة . محبة محبوبه . قضت حياتها بين العمل للفن وإعلاء شأنه . وبين الإخلاص للحب وفناء النفس فيه . وقد احتوى هذا الكتاب إقرافات جريئة . بأسلوب جرىء عن امرأة تتكلم بكل صراحة . وبكل صدق برىء . في غير كبرياء أو أنانية . أو اختيال أو غرور عن قصة حبها . ومجموع ما حصل لها في تاريخ أيامها المليئة بالمجد والنجاح والفشل والبؤس . وبالسرور والألم . وبالأس والرجاء . وبالآلام الهائلة وبالحقائق المرة - وهي في كل هذه الحالات بين حاليين وعاملين قويين : بين « الحب والفن » . وما الحب وما الفن ؟ إنهما لعنصران لحقيقة واحدة، وإنهما لشيء واحد في تويين . وهكذا نرى «ازادورا» فينما هي في فنها تنكب عليه . وتعمل من أجله . وتفتنى فيه وتبتكر في أنماطه ونواحيه ؛ إذا بالحب يحطف قلبها . وإذا بها تركن إليه فاقدة لنفسها بين أمواجه ولحجه الزاخرة ! . . . وأنت في كل ذلك تستشف وتقرأ روحاً غنية ثرية . غنية بأنواع الشعور ، ثرية بوفرة الحياة وشدة الإحساس . وتوهج العاطفة . وشدة الطموح ، وتألق العبقرية الخالقة . . .

إن هذا الكتاب لأعجب بكثير من إقرافات «روسو» في صراحته التي لا يشوبها الإدعاء ، أو يخالطها الغرور ، أو تفسدها الأنانية - وفي أن كاتبته امرأة ، وقل أن تصدق امرأة في مسائل حبها ! . . .

ظهر هذا الكتاب «حياتي» بقلم «ازادورا دنكان» عام ١٩٢٨ . فطبع ما بين مايو وأغسطس أربع طبعات على غلاء ثمنه، وقرظه الأدباء . وأئنت عليه الصحافة ثناء كبيراً . والحق أنه لكتاب فذ بين كتب التراجم والإقرافات ، والحق أنه لثخنة فنية باقية . وأثر من آثار البيان الخالدة . ووثيقة إنسانية شجيرة قل أن نظفر بمثلها ، فإن هذا الكتاب ليعرض حياة غنية بحبها وفنها . بمثلها وحاضرها . حياة جياشة متعطشة إلى اللانهاية . ترمقها حيناً في الفن فتندفع ، وترأها حيناً آخر في الحب فتتقعد نفسها بين أمواجه الزاخرة ! . . . غريبة هي حياة الفنان جد شجيرة . هي دمة ياكبة . وهي ابتسامة ضاحكة .

ولكنها فى كلا الحالين من انسام ودموع هى شجيرة حقاً . هى حياة حائرة أثيرة .  
لا تستقر على حال ولا ترضى بشئ ولا تنطمئن إليه . ولا تركز إلى الراحة أو السكون !  
وأما لتجد وجودها فى هذه الحافة القلقة ، وفى هذا التطلع إلى الشئ الغريب البعيد . إلى  
العالم المطلق .

قصت «ازادورا» حياتها نهباً مقسماً بين الحب القوي المتأجج . وبين الفن البليغ  
المتكرر . وكانت ترجع فى منها إلى الفن الأغريقى القديم - الرقص الشعري - نستوحيه  
ونحاول إحياءه . ولقد أكتبت تقرأ كل ما كتب عن الرقص قديماً وحديثاً . وبعد أن قرأت  
كل هذا لم نجد وحياً هنالك . وإنما وجدته فى كتاب « اميل » لجان جاك روسو .  
ووجدته فى شعر « ولت وهيمان » الأمريكى . وفى صرخات « نيشه » الألماني ولقد  
كانت تقرأ - وحق لك أن تعجب - « نقد العقل المصروف » لـ « امانويل كانط » فتجد  
فيه وحياً لفنها . وتقف أمام المرأة نحو ثلاث ساعات وقفة حائر مشدود . فى غير  
حراك أو ملال . تنتظر الإلهام وتستهبط الوحي . وإذا بالحركة المطلوبة تنفّز . والرقصة  
المشتهة تجيب ! . . هكذا كانت حياة هذه الراقصة ! . .

هذه قصة امرأة ولدت راقصة . وقضت كل حياتها راقصة . وكان رقصها رقص  
الحياة ! . . . ولدت فوجدت أن أمها قد طلقت والدها . فكرهت الزواج ومآسيه .  
وآلت على نفسها ألا تتزوج طيلة حياتها . ولقد كانت أمها فنانة بطبيعتها . تقرأ الشعر  
وتعزف على البيان . وتذوق الأدب . فنشأت العائلة كلها محبة للفن هائمة به عترة إياه .  
فالأح مصور والأخت راقصة . وللأم - كما قلنا - ولع بالفنون كبير . ولما لم تقلد أمريكا  
فى «ازادورا» ورقصها . ولم تنفذ نيويورك عبقريتها - ولقد كانت فى ريعان شبابها -  
رحلت اسرتها إلى لندن والشئ الطريف فى حياة هذه الأسرة هو هذا الحب للفنون  
الذى بلغ درجة الجنون . فهم لم يطأوا أرض لندن إلا وتراهم قد فقدوا أنفسهم  
فى المتاحف والمكتبات وما إليها . ليس لهم بيت يأوون إليه ولا قوت يسدون به غائلة  
الجوع !

وبسم الحظ لـ «ازادورا» فتعرف إليها الفنانون والشعراء . وعلا صيتها وذاعت  
شهرتها ورقصت فى البلاط الملكى . ودعاها الملوك والأمراء . وظلت متنقلة بين عواصم  
أوروبا ومدنها فتلقى الشهرة . وتلقى التقدير . ويعبدها رجالات الفنون والآداب .  
حتى لقد كان المرضى يأتون إلى مسرحها ويتبركون من قلاستها ويستشفون من أمراضهم  
ببركتها . فكانها القديسة لديهم ! وهى العاجرة الإباحية عند غيرهم ، وكم للأيام من  
سخرية ، ولقد من تهكم هازئ مرير !

كانت إذا ما حلت بأمة . تعلمت لغتها ودرست آدابها . وقرأت فلاسفتها وكتبها  
فتعلمت الفرنسية وقرأت « روسو » وأتقنت الألمانية وقرأت « شوبنهاور » و « نيتشه »  
و « كانط » وذهبت إلى اليونان من بعد هذا كله فالتهمت « افلاطون » وحاولت أن  
تسكن فيها فبنت لها بيتاً في ضواحي أثينا حيث الأرباب والآلهة . حيث « ديونيسيوس »  
إله الرقص والغناء . . . !

إن حياة هذه الراقصة لقصة رائعة تفوق كل القصص ، فهي تبدى وتنتهى وكأنك تشاهد أغرب الدرامات والمآسى ، أو ما هو أبغ من كل دراما ومأساة ! حياة حرة مطلقة « بتوية » ترمق المثل الأعلى ، وتعمل له وكأنه حقيقة لاخيال ! فتسكن الضواحي من أجل فكرة - وتهافت على طلبها المارح الشهيرة . ففرض كل ذلك مفضلة عليه هذا النعش الشعري الرائع المليء بالفرن ، وحلو الذكريات ، والتعطش الإلهي ! .

وأنا قد قرأت تراجم عدة . وسردت لها وأعجبت بها ، وتأثرت منها . ولكن شعورى بهذه الترجمة هو شعور غريب لا أعرف كيف أكيّفه ولا كيف أصفه للقارىء . ولا أذكر أننى أكيّبت على قراءة كتاب مثل أكباني على هذا الكتاب ! . . . تقرأ بعض صفحاته الأليمة فتبكي وأنت لا تشعر ولا تدري - حينما تفكر - لماذا تبكي لهذه المرافقة الخليعة ، وتظل بعدها تفكر فى الحياة والعاطفة والفن وما إليها من أفكار الحياة العميقة . فهذا الوصف الرائع الحزين لموت إبنها ، وهذه الصورة الباكية المشجية هى وأمها حين ترجع إلى الوطن بعد خمسة وعشرين عاماً ، فترى أمها وترى نفسها على المرأة معاً ، فتنهولها الصورة ، وإذا بأمها قد شاخت ، وإذا هى قد كبرت ، فتذكر ثم تتأسى وتتوجع ! . أين ذلك الجمال الناضر . وأين تلك الوضاعة الباسمة ، وأين تلك الفتوة ، وأين ذلك الشباب . بلى أين الإشراق وأين القوة ! . . . حينما عبرت هى وأمها المحيط لأول مرة طلباً للمجد والشهرة ! . . . كل هذا نصفه لك بلغة ساحرة قوية مؤثرة ، فأنت تقرأ الفقرة فتسيدها مرة وثانية : وتقرأ الصفحة وبودك أن تقرأها ثانية ، وتقرأ الفصل فتشعر بجوع نفسى وشبع فى نفس الوقت . وتقرأ الكتاب كله فما تتركه من يدك . بل ترغب فى إعادة قراءته من جديد وذلك لعمري انتهى الإبداع ، إن كان للإبداع منتهى . وغاية الأدب والفن . إن كان للأدب والفن من غاية ! . . .

ولقد سألت نفسي مراراً : لماذا يجد القارىء في مثل هذا الكتاب كل هذا الغذاء الروحي. مع أن الكتاب مملوء بما يسمى خلاعة وشهوة ومجوناً . فعرفت أن ذلك يرجع إلى أن الكاتبة لانصف لك ما اعتراها من ألم وحزن . وشهوة وحب . وسرور وفرح فحسب . وإنما تعرض عليك نفسها كما هي . وتقف أمامك مغلصة تقول لك : ها أننى أمامك . ثم



أغشك في شيء ولم أخف عنك أمراً ، تقول لك هذا في غير إهتمام متكلف ، بل في براءة الطفل وصدق القديس فتتال عطفك ، وتتأسي لما وتفرح معها . وهي إذا ماتت كنت عندها شعرت بالشيء يتكلم في ذهول ووجد ونسيان . في طموح وإيمان وألوهية ! . . . وهذا في ظني ما يعطى الكتاب سحره . ويحله ذروة من الفن عالية ! . . . والكتاب وثيقة إنسانية صادقة لحياة امرأة ثرية في عواطفها . مضطربة بحبها . جياشة طموحة في فنها . منطلقة هائلة في روحها ! . فيرى القارئ نفسه في الكتاب ، نفسه الداخلية لا هذه النفس المشحونة بالتقاليد والعقوس . فيقبل على الكتاب يلتهمه التهاماً . وهو في الحقيقة ينظر إلى نفسه . ويحدق في صورته . وإن كان لا يدرى ويتذكر عواطفه وما أحسه هو في مختلف حالاته وما اكتشفه من جوانب روحه وطموحه ! . . .

والكتاب يعرض عليك من بعد هذا كله معصاً أنيقاً لرجالات الفنون . والأدب في هذا العصر الأخير . فيدهشك أصدقاء هذه الراقصة ومعارفها . أمثال « أرنست هبكل » العالم الطبيعي . و « رودين » الفنان الشهير « ودانزيو » الشاعر الإيطالي . وخلافهم من الشعراء والفنانين .

ولقد كانت « آزادورا » أغريقية في فنها . ناثرة على هذا الرقص الأرضي الرياضي الذي لا شعر فيه ولا حياة . فأقبلت على موسيقى « بهوفن » وترجمها رقصاً موفقاً بديعاً . وتنقل الحالات النفسية من غضب وسرور وطموح وحسب إلى عالم الحركة والأثير . وكانت ترمي إلى بحث دين جديد يتخذ الرقص شكلاً له . ويبعث إلى معتقيه معرفة الجمال والمقداسة الإلهية ! . ولقد قالت عن فنها « إنه محاولة في أن أوضح كياني الأرضي في قالب اللغات والحركات » ولقد سئلت عن علاقة الحب بالفن فقالت إنها لا تستطيع أن تفصل بينهما . فالفنان الملهم إنما هو الحب الوحيد في هذا العالم . هو وحده ذو النظر الصافي في معاني الجمال . وما الحب ؟ . إنه لنظرة الروح إلى الجمال الخالد ! . . .

فالفن إنما يرفع صاحبه إلى سماوات غير هذه . ويعمله ينظر بعين غير هذه العين الأرضية إلى الأشياء والأكوان . فيرى الحب ويلوب فيه كما تذوب ألوان قوس قزح بعضها في بعض .

فالحب والفن عنصران للحقيقة واحدة كبرى وطموح نحو مثل واحد أعلى ، حقيقة الوجود وعالم النور وعاطفة الأزل . ونفوس الحياة والكون .

ولقد وصف رقصتها « روزفلت » بقوله « إنها بريئة كبراء طفلة . ترقص على أشعة الشمس في الصباح . وتقطف أزهار خيالها الخفية ، من حديقة نفسها الخبيثة ! »

ووصفها ناقد آخر كما جاء في كتابها بقوله : إنها زلفى محلولة الشعر هاربة من أحضان «ابولون» !

ونخير ما نختار به هذا المقال هو هذا الوصف الشعري البديع الذى وصفها به أحد المحررين الفنانين - والذى نقلته فى كتابها قال :

« إن روح الإنسان لترجع إلى كهوف الماضى السحيق حينما ترقص «ازادورا»  
ترجع روح الإنسان إلى صبح الحياة ، حيث كانت عظمة الروح معبرة فى جمال الجسد .  
وحيث كان إيقاع الحركة فى إتساق مع إيقاع الصوت . وحيث كانت حركات الجسم  
الإنسانى واحدة مع الريح والبحر . وحيث كانت الإيماءة من ذراعها كتفتق الكم من  
الوردة ، وحيث كانت حرارة الدين والحب والوطنية أو العاطفة معبرة فى الصوت يبعثه  
الطبل الداوى أو ينفثه المزمار الرقيق . وحيث كان النساء والرجال يرقصون أمام  
الأحجار النارية . وأمام الآلهة فى وجد وذهول ونسيان . كما كانوا يرقصون بين  
الغابات والأحراش . وعلى شواطئ البحار ، فرحاً بالحياة الكامنة فيهم ، فإن كل نازعة  
قوية أو جميلة من فوازع النفس لتنبعث فى الجسم من الروح ، فى إتساق كامل مع  
إيقاع الوجود . »

## فن التراجم الجديد .

لون خالص من ألوان الأدب الغربي اليوم .

« الترجمة هي اكتشاف الروح الإنساني . » لدفع

« الترجمة الجيدة قليلة قلة الحياة الجيدة . » كارليل

« التراجم الحديثة هي قصص تطور نفوس بشرية . » موروا

في الأدب الغربي اليوم ألوان من الأدب المجيد ، وأزياء من الفن الرفيع . وأنماط وقوالب لامية في التعبير والنهج ، تتطور بين كل حين وآخر . وتتخذ من الأشكال والأساليب ومذاهب التفكير ، وصور « التفنيد » ما يغري بالإطلاع . وبحسب القراءة ويستهوئ القارئ بالمزيد . فإذا هو يقبل على القراءة ، ويعين في الإطلاع ، ويلتهم هذه الألوان الشهية التهام الجائع المريد . وهو كلما ازداد إقبالاً على مثل هذه الألوان ، تفتن الكتاب إلى غير حد ، وأبرزوا روائع أفكارهم في أزهى الحلل والثياب ، وجاء المطابعون والناشرون فزاحوها زينة فوق زينة ، وجمالاً فوق جمال ، وفي مقدمة الألوان المذاقعة في أدب اليوم : التراجم التي ذاعت في السنوات الأخيرة ذيوماً محموداً .

ومن غريب المصادفات أن يتعش هذا الفن في وقت واحد في ثلاثة أقطار من أوربا الكبرى ، فنتج إنجلترا « لايتون ستراتشي » مصور الملكة فيكتوريا . وتخرج ألمانيا « أميل لدفع » مصور « نابليون » و « بسمارك » و « جيت » . وتنجب فرنسا « أندريه موروا » مصور « شلي » و « دررائيلي » و « بيرون » ، وغير هؤلاء كثيرون من المعاصرين أمثال « هارولد نيكلسون » في إنجلترا . غير أن أولئك الثلاثة هم زعماء هذا النوع من الترجمة . أما مقلدوهم والناسجون على منوالهم فلا يأخذهم الحصر والتعداد .

فأي سر ياترى هذا السر الذي جعل هذه التراجم الحديثة تراجم القصص وما إليها في الطلب والرواج ؟ ثم لم كل هذا الذبوع والانتشار والإقبال ؟ يعزو « هارولد نيكلسون » الكاتب الإنجليزي في كتابه « تطور الترجمة الإنجليزية » هذه الظاهرة إلى هذا العصر ، عصر الشك والقلق النفسي الذي يحتاج العالم اليوم . ويرى أن كل التراجم يقل الإقبال عليها في عصور الإيمان . الوافرة الإطمئنان . المطمئنة إلى الأديان وتعاليمها . الوافقة من الحياة الأخرى . كما تزوج في عصور الشك وتمجيد الإنسان . وهذا رأى مقبول ولاشك له حظ من الإصابة والصدق . ولاتنكر على عصرنا هذا قلة إيمانه وشكه واعتداده بنفسه وإيمانه بمجد الإنسان . وجلاله وخطره . ولذلك يجد قراء هذا العصر سلوى في التراجم

ومرأة تمعكس عليها أضواءه وعناصر إنسانيته . ذلك لأن القارئ المعصرى مؤمن بهذه الحياة . بود أن يرى نفسه فى تراجم عظماء الإنسانية ، فيتطلع إلى مثلهم العليا . ويحول معهم فى عوالم الفكر والإنشاء ، ويشعر معهم مثل مايشعرون ، فيحس بوقلة الأمل تعم صلوه ، وبصحراء اليأس تحطم نفسه . ويعلو معهم إلى أعلى القمم . كما ينزل إلى أضيق السرايب . وهو فى كل ذلك يرى مظاهر القوة ودلائل الضعف ومواطنه . فلا يعيبه أن يكشف نفسه فى هذه المرأة السحرية التى تطلعه على صورتين فى صقال واحد ، او على صورة واحدة ذات أوجه متعددة . ويغلب فى الظن أن شغفنا بعلم النفس فى هذا العصر له حظه فى رواج هذا الفن الذى يعتمد على « التحليل » النفساني قبل كل شىء فى إعداد صوره .

وسهل على الإنسان أن يعرف لم لا تروج التراجم فى عصور الورع والتشفيء الدينى وما حاجة المرء أن يقرأ سير أبناء الحياة الهالكين ، ويشغل نفسه بأخبار هاته الحياة الفانية . وما الدنيا : « إنها متاع الغرور » و « باطل الأباطيل » . وإذا كان الأمر كذلك أليس الاستعداد للحياة الأخرى أجدر بالناس وأعود عليهم من قراءة السير وما إليها ؟ بلى ولاشك ! أما ابن هذا العصر فهو وإن يكن للمجهول أثر فى حياته لا ينكر لكنه يعمل بمقتضى النص الشريف : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » فليقرأ إذن هذه الكتب التى تطلعه على أروع صفحات الحياة يستشف فيها جلال النفس ، وإعتداد الذهن وقوة الإنسان ، وضروب الجهاد الروحى . كل ذلك يشد أزره ، ويقوى عزمه ، ويجعله يستقبل هذه الحياة وقد أصبح أكثر لها صلاحاً . وبها هياماً ومعرفة .

ويدبى أن التراجم لم تكن يوماً مجهولة : فقد عرفها القدماء واعتنوا بها ، وكتبوا فيها الشىء الكثير . غير أن نظرهم إلى الترجمة كعمل فنى تختلف عن نظرنا فى الأغلب والأعم ، فهم يؤرخون أو مترجمون لرجالهم ليشيدوا بذكرهم ويشيعوهم بالثناء والمدح إلى مقرهم الأخير . ويدبى أيضاً أن غرض المترجم الحديث خلاف هذا ، فهو قل أن يعنى بالمدح وما إليه ، وهو لا يتقاضى عن سوءات أبطاله ، ولا يفتنى من مواطن خضعهم ، ولا يهوى مما يحسب لهم فى الحسنات ، ولا يجعل لآى هوى أو غرض مكاناً من نفسه وفنه سوى غرض التصوير الحق وإحياء الشخص الميته نفوساً تتحرك على الورق .

وقليل من أولئك المترجمين القدماء من قرب من هذا المنهج ، واختط مثل هذا السبيل . وفى طليعة هؤلاء القليل ولاشك ذلك المترجم الإغريقى القذ « بلوتارك » ، بل إن « لدنچ » يرى أن فن بلوتارك أحدث من كل حديث وأن مهمة الكاتب المترجم الحديث أن يتقبله ويقتدى به ، وكل من عرف فن « بلوتارك » لا يسهه إلا أن يوافق « لدنچ »

على وجه العموم . فإن في إسكام ذلك الإغريق وفنه ودقة تفاصيله وحيوية صورته ما يجعله رجل فن محدث . تام الفن . مشرق التصوير . وكان « تيودوروس احازا » من أكابر علماء الأحياء في «عصر النهضة» حين يسأل أى الكتب يحفظ إذا اريد البقية أن تحرق كان يقول : «بلوتارك» ولاشك ! ولقد قيل عن «ثابليون» ذلك الجبار العبقري أن تراجع «بلوتارك» لتفارق ساعة ، يصطحبها معه في ميدان القتال ، ويقرأ ترجمة فيصير قبل ابتداء كل معركة . والذي يقرأ «بلوتارك» ينحيل إليه كأنه بعرض مدنية كاملة ، ممثلة في أنجب أبنائها وأفذاذها . أو لكان القارىء حينما يقرأ «بلوتارك» في فهم وعطف يستقبل محفلاً قوياً من الجلد والخلال ويستعرض متحفاً رائعاً . دقيق التصوير . ألمى الأداة والتميز . فيرى أجسام العظماء ويلمس صدورهم في غير الحجر والرخام بل يراهم ويلمسهم نابضين بأسباب الحياة . زاحرين بأسباب الفتوة والبطش .

وإذا ذكرت تراجم الماضى المجيدة فنحن ولاشك ذاكرون « سير الشعراء » للدكتور «جونسون» . ذلك الدكتاتور الأدبي ، الضخم الجسم . وذاكرون أيضا حياة « سكوت » للأديب «لو كارت» . وذاكرون فوق هذه وتلك « حياة جونسون » له بوزول « تلك الترجمة التي صارت مضرب المثل في إجادة التصوير . وإحياء المبتين وتخليدهم حتى أصبحنا إذا أردنا أن نكنى عن الخلود من طريق الكتابة والترجمة قلنا نريد أن «نيزوله — Boswellise» . وليست إجادة سهلة تلك التي يصبح أسم صاحبها كناية عن التخليد ، والمدين يعرفون حياة «جونسون» «لوزول» يعرفون فيها نعمة فنية فذة بادرة مهما صرح «ماكولى» وتعه «كارليل» في تسخيف «بوزول» وأطنبوا في الحديث عن سخفه وحفته . قالشى الذى يكاد يلمس باليدين ، الشئ الذى يراه وفقرأه ؛ شاهد عدل على قدرة «بورول» وتضلعه . فإن تلك الترجمة وما تضمنته من التحليل الرائع . والملاحظة الدقيقة . والفكاهة الحلوة . والأحاديث العذبة والنكات المستملحة يجعلها جديرة حقاً بالخلود . والخلود جديراً بها .

هذا وقد كانت التراجم القديمة في جملتها تقع في المجلدات الضخمة مكتظة بالتواريخ والأسانيد والأرقام . وكان لذلك لايقبل على قراءتها غير المشتغلين بها أو من كان جلدأ صبوراً على المكاره وانصعاب . ولايزال إلى الآن أناس يطلبون من التراجم أن تكون مادة جافة مينة لاينقصها غير الكفن والدفن ، يطلبون من التراجم تلك الحقائق التي ترى بالعيون . وتلمس بالأيدى . وليس هنالك حقيقة يجب ان تقال سوى ما تعرضه الإحصاءات وتطلعنا عليه المستندات والأرقام . وتشمه الأتروف وتسمعه الآذان . أما درس مايسمى بالمواطن وتحليل الدوافع ، والسبح مع نبضات القلب والغوص وراء

بدوات النعوس . وتصوير الأزمات الإنسانية . وعرض لفئات الذهب . . فليست كل هذه بكبيرة حطرت عند هؤلاء العلماء الأجلاء . وطالبى الأرقام والمستندات من أساتذة الجامعات . ومن لف لفهم . ونحن ولاشك لغير هؤلاء وفى غير هذا الضرب من التراجم نود الكلام فتكون :

يفرق « أميل لدفع » فى مقدمة كتابه « العبقورية والشخصية » بين المترجم العالم والمترجم المصور الفنان . والأول يعنى بالحقائق المادية كما فصلنا . والثاني يعنى بالشخصية عناية المصور بالوجوه . والموسيقى بالنغم . فبعد أن يجمع المترجم كل ماكتبه بطله وما كتب عنه يروح يرتب تلك المواد بعد أن يختار منها الحوادث الدالة بما أوتي من بصيرة نافذة وملكة فنية . فهو ربما يختار بهذا المعنى من الحوادث والفاصل مالا يأتى له المترجم العالم ولا يعيره كبير إهتمام . غير أن المترجم الفنان قد يرى الدلالة فى هاته الصغائر مما لا يراه فى أكبر الحوادث وأصغرها . فهنا سليقة الفنان العارف تعمل عملها . ولقد كان الدكتور « جونسون » يقول فى هذا المعنى : « إن حديثاً قصيراً مع خادم من تود الترجمة له ربما كان أجلى وأعود من كتاب يبدأ بتاريخ حياة الطفل وينتهى بتاريخ وفاته » ! وهذا ولاشك قول صواب .

يقترّب المترجم الحديث من عمله . ومنتهى كده وفنه إبراز الصورة بكل ما فيها من ضعف وقوة . فيستعين بكتب بطله وكل ماكتب عنه . كما أنه يضع فى المحل الأول حطائنه الخاصة ورسائله ومذكراته حيث النفس هنالك على سجيتها . ثم يحاول تكوين الصورة الأولية لبطله . وهو لا يشترط فى كل عمله هذا طريقة خاصة . بل يرتب المواد ويحذف منها ما لا يراه عظيم الخطر . كما يؤكد نواحى صغيرة تدل دلالتها الكبيرة فى إحياء الصورة . ولذلك نرى التراجم الحديثة تعنى أشد ما تعنى بالتفاصيل والدقائق فتصف لنا صوت البطل هل كان عالياً جهورياً . أو كان خافتاً ناعماً . أو كان أحشاً خشناً . أو لم يكن هذا ولاذاك ولكنه كان مزاجاً من الرقة والعنف . والخمس والندوى . ثم كيف كان حديثه . هل كان قوى الحجة . رائع البرهان . أو كان براق العبارة ساطع الكلم . أو كان سكوتاً صامتاً لا يتكلم إلا بمقدار ولا يتحدث إلا فى أشياء خاصة . وكيف كانت سيما وجهه حين يغضب وحذقة عينه حين يتكلم . وإهتزاز جسمه حين يتشى وأضراب هذه الأشياء التى تدل على الروح وتشف عن الشخصية .

كما أن من أخصر خواص الترجمة الحديثة أنها لا تحكم ولا تتعامل . ولا تتحدث أن هذا الخلق محمود جميل . وأن ذاك مذموم شبر . وإنما قصارها أن « تفرض » لا أن « تجزم » . وهى لا تهتم بمصر البطل إلا بقدر صغير يعين على فهمه . فهى من هذه الناحية

أقرب إلى القصص منها إلى التواريخ المعهودة ، وهي مستند إنساني يعرض صحيفة حياة « إنسان » لا آلهة ، ولهذا الغرض كان لزاماً على المترجم الحديث أن يألف شخصية بطله ويعاطفها ويعطيها من نفسه بقدر ماتعطيه من نفسها . وهذا ما فعله « موروا » المترجم الفرنسي بنوع خاص ، فإنه يقول إنه لم يختار حياة « شلى » ولا « دزرائيل » إلا لأنه قد ألفهما وأحبهما من الصغر ، ولما بينه وبينهما من وشائج القرى في الخلق والزواج . فأقبل يترجم لهما وكأنما هو يترجم لنفسه . ذلك لأنه قد شعر بمثل ذلك الشعور الرومانتيكي الذي شعر به « شلى » . وأحسن ممثل ذلك الصراع النفسى الذى أحس به « دزرائيل » . وربما كان لهذا السبب عينه يعزى نجاح « موروا » المائل سواء فى فرنسا أو فى أميركا وإنجلترا . لأن « موروا » لا يشعر بالغربة فى حضرة « شلى » أو « دزرائيل » لما بينهما من الألفة الروحية . ومواقع التشابه . وكلما كانت هذه الألفة وهذا العطف بين المترجم والبطل أشد وأقوى جاءت الترجمة أصح وأملأ .

فالقارىء ربما يعجب حينما يرى « موروا » مثلاً يتبع شغف « شلى » بالماء . و « دزرائيل » بالأزهار ، ويستخلص من مثل هذا الشغف نوعاً من المأساة المسرحية . فهو يحكى لك كيف أن « شلى » نظم أروع أشعاره بالقرب من الأنهار . وكيف أن غرامياته قد تمت فى الماء ، وكيف أنه فى الماء أسلم آخر أنفاس حياته . يصور لك كل ذلك فى جو الفجوة الشعرية . والمأساة البالغة . والتحليل النفساني الدقيق . فتجتمع فى ذهن القارىء إلى إمتاع الملاحظة هزة شعرية حزينة !

ونعصلة أخرى فى التراجم الحديثة هي أنها لاتقرب من الإنسان وكأنه خير كله أو شر كله . وإنما الشر والخير . أو ما يسمى كذلك كله قريب من قريب . وإن النفس البشرية من حيث التركيب وتشعب الأطراف . وتعدد الاتجاهات لاتسمح بالحزم بالخير خالصاً أو الشر خالصاً ، وهذا الفهم النفساني العميق قد صار معروفاً فى الفن الكتابي عقب قصص « دوستوفسكى » الروسى . كما أن « مارسيل بروست » أثراً أيضاً فى هذا النحو التحليلى . والتراجم الحديثة من هذه الناحية لما عدم تحيز العلم وقلة محاباته . من غير أن يكون لها جفافه وجموده . كما أن لها لذة القصص النفساني من غير أن تعبير قصصها لامتاعها وفيها لذتها . وكل المفرق بين المترجم والقصصى : أن الثاني يعمل خياله فى توليد الشخصوس وخلقهم ثم يترجم لهم . ولكن المترجم لايعمل خياله فى خلق الشخصيات وإنما عنده الشخصوس وهى من عمل الخالق الأكبر . موهوبة بحياتها الخاصة وسيرها وحفظ أيامها . وعمل المترجم المجيد يتلخص فى إحياء تلك الخلائق مرة أخرى على الطرس فى كل إشراقها وتركيبها ووضاءتها كما كانت فى هذه الحياة الدنيا

تعيش وتسمى . فهو يحتاج إلى التحليل بقدر ما يعينه على هذا القدر فقط

وخصلة أخرى في التراجم الحديثة هي أنها تقرب من التصميم الدراماتيكي . بل هي في واقع الأمر « دراما » ولكنها لا تمثل على المسرح . وهناك بعض من هؤلاء المترجمين يقسم تراجمه إلى ثلاثة فصول كما يفعل « لدفيج » أحيانا أوها — النشأة والفتوة . ثم المجد والقلق ثم الإنحلال والندهور . والواقع أن « لدفيج » ابتدأ حياته الأدبية كاتباً مسرحياً . فقد كتب قصة مسرحية عن « نابليون » مثلت على المسارح الألمانية قبل ترجمته المشهورة عن « نابليون » بنحو عشرين سنة .

فالتراجم الحديثة إذاً لها أسرار الدراما وقوتها . ولذة القصص وإمتاعه . ودقة التحليل النفسي وجلاله . وكل ما يتبع العمل الفني من إشراف وظلال وأصوات وإيقاع وحركة وألوان .

ومن أغرب الأشياء التي نلاحظها على التراجم الحديثة أنها عالمية الوضع والقراءة . لا وطن لها سوى وطن الإحسان والإجادة . فنحن نجد « ستراتشي » الإنجليزي يترجم « فولتير » و « روسو » من الفرنسيين . ونجد « موروا » الفرنسي يترجم « شلي » و « بيرون » و « دزرائلي » من رحالات الإنجليز . و « لدفيج » الألماني يترجم « نابليون » و « بلزاك » الفرنسيين . كما يترجم « لينين » الروسي . و « ولسون » الأمريكي . ونجد « جامليل برادفورد » الأمريكي يترجم « لام » و « كينس » من أدباء الإنجليز . و « فلوير » من أدباء الفرنسيين . كما نجد « هارولد لام » الأمريكي يقفز إلى الشرق فيترجم « لاديمورلنك » و « جنكيز خان » واضرابهما . ونجد أن كتب « لدفيج » تقرأ في الإنجليزية أكثر منها في الألمانية . وكتب « ستراتشي » لها من القراء في فرنسا مثل ما لها في إنجلترا ، أما « موروا » الفرنسي فقد أصبح مؤلفاً إنجليزياً ، ولا يسع محب الآداب إلا أن يصفق لهاته الظاهرة الطيبة التي تبشر بفاتحة عصر ذهبي في الأدب العالمي . وأهمية الثقافة والفن .

وربما كانت هذه الصفة — صفة العالمية — مميّزة هؤلاء الكتاب على المتجرد من الأغراض والأهواء . واستقبال العمل الفني في غير تحيز ولا محاباة . وهكذا نخرج أعمالهم ناصعة من غير طلاء ولا دهان ! سوى طلاء الفن ودهان التصوير .

بقيت مسألة دقيقة لا بد أن نعرض لها في مثل هذا البحث وهي هل يستطيع المترجم العصري أن يجمع بين صحة العلم الصحيح . وجمال القالب الفني ؟ هل هناك نزاع بين روعة الفن . وصلابة الحق ؛ أم أن الاثنين متفقان ؟ نجد « ستراتشي » و « لدفيج » و « موروا » يقولون ألا نزاع هناك . غير أن « هارولد نيكلسون » يقول إن ذلك مما



بصعب أمره ولا يتيسر . وتوافق «نيكلسون» في جملة أعمق من تعبيره «فرجينيا وولف»  
الكاتبة الإنجليزية حين تقرر : « إن الشخصية كقوس قزح في تلونها وتعدد وجهاتها .  
وإن الحق صلب متين متانة حجر الصوان . فأى سبيل إلى تزاوج هذين العنصرين المتناهين ؟ »  
السبيل عندما هو محك قدرة الفنان . فإذا قال لنا قائل كما تقول الكاتبة المتأصلة قلنا إن  
نحائي الإغريق قد تمكنوا في براعة ولباقة من إظهار الحركة الدافقة في الحجر الصامد  
الجامد ! ألا يستطيع المترجم الحديث ما هو أسهل من ذلك ؟ ويصيب « موروا » حين  
يلاحظ ألا نزاع قط بين صلابة الحق ورقة الفن — أو على الأصح بين العلم والفن بوجه  
عام فيقول : « إن الكتاب العلمي الجيد التنفيذ هو ولاشك عمل فني زيادة على أنه علم . وإن  
الصورة الجيدة هي عمل علمي صحيح زيادة على أنها فن جميل . وإذا كانت الشخصية  
لها تعدد ألوان قوس قزح ، وأن الحق جامد صلب ، فإن « روديني » النحات الفرنسي قد  
إستطاع أن يحل في الرخام الصلب أخاديد الروح وإيماءات النفس المتعددة . وإستطاع أن  
يظهر اهتزازات ظل اللحم البشري في ذلك الحجر البابس . وهذا ولاشك رد صائب  
حق .

ويقول « لدفيج » في مقدمة كتابه عن العبقرية والشخصية . « إن المترجم الفنان  
يختار مواده من غير أن يغير الحقائق والوقائع التاريخية ، ثم يعرض ذلك عرضاً يتمق وفهمه لتلك  
الشخصية » وهو لهذا المفروض يرى أنه لا يمكن أن تكون الترجمة كاملة إذا لم يمت ذلك  
الشخص ، وإذا لم تكن لنا منه صورة فوتوغرافية أو زيتية . ذلك لأنه يعتقد أن ملامح  
أوجه وسمات الأعضاء وحركة العين وكل هذه لها دلالتها الكبيرة في إيضاح الخلق  
الذي يعنيه أكثر من العبقرية ، ويرى أن هاته الثانية نتيجة الخلق والشخصية . وهذه أيضاً  
ناحية من نواحي التراجم الحديثة فهي لا تعنى بالعبقرية والتقدير قدر عنايتها بالخلق  
والشخصية . والمترجم الحديث بهذا المعنى مكتشف للروح ، مترجم للقلب . دور أن  
يعبأ بالأعمال والأحكام .

« وبلوتارك » أحدث المترجمين ، كما يخلو له « لدفيج » تسميته . فهو بشرح طريقته  
ويقول : « إنني أقيد المظاهر لا التواريخ . وعندى أن دلائل الرذيلة والفضيلة ليست  
مقصورة على جلائل الأعمال ، فكثيراً ما تكون حادثة نافهة أو نكتة أو كلمة أدل على  
إيضاح الرجل وتشخيص الخلق من جميع الحروب وما إليها . إن المصور باختياره لدقيق  
الملامح والتفاصيل يرمى لأن يحكي من الشبه الخارجي روح الرجل ونفسه . وذلك  
هو شأني أيضاً وعلى هذا فليسمح لي القارئ أن أطيل النظرة في تلك الملامح ذات العلاقة  
الوثيقة بمكونات الروح والنفس ، وذلك لأنني بعلمي هنا لأنفت في صور تراجمي روحاً

وكياناً خاصاً تاركاً لغيرى الكتابة عن الحروب والفتوحات ، ولقد أصاب ذلك الإغريقى الحكيم .

هذه النظرة التى أجاد « بلوتارك » قبل آلاف السنين التعبير عنها هى ما يشغل المترجم الحديث ، ولو أن « بلوتارك » لم ينفذ كل ذلك تنقيذ « سترانشى » و « موروا » و « لدفيج » ، يقول « موروا » واصفاً فن « سترانشى » : ليست له « سترانشى » طريقة واحدة مخطوطة يمشى عليها فى فنه ، فهو يعرض فيجيد العرض ، ويمشى وراء شخصه من غير أن يظهر ، مظهراً إيمانهم وغريب أحاديثهم فى لمسات محكمة دقيقة ، وأنه ليعلم أحياناً إلى جو شعري صحيح كما نرى فى نهاية حياة الملكة « فيكتوريا » وسمع تلك الموسيقى الهامسة والشعر المملوء بالشجور والأسى . . وعندى أن « موروا » يتنازع بتأكيده لتأجيد التحليل النفساني وإظهار القلب الموزع والميول المفسمة ، وبالمنطق أيضاً فهو من هذه الناحية لاثينى صميم ولو أنه ليست له تلك التؤدة والإقتصاد فى الكلم والرزانة — الأشياء التى يستشفها القارىء فى فن « سترانشى » وتراجمه .

هذه هى بعض خصائص التراجم الحديثة وهى سر ذيووعها . والعصر الحديث يقبل على التراجم وغراءتها لأنه يقبل على الحياة ويحب « الإنسان » وفى هذه التراجم يرى صوراً قوية من الحياة التى عرفها وآمن بها فيتصاعف إحساسه بالحياة كما أنه يجد فيها مادة صالحة للتفكير . ومثالاً طيباً للاحتناء ، وقد يجد فيها مادة للشجور والأسى ، ومادة أخرى للعبرة والذكرى .

## شاعرة الرقص « صورة من حياة «آنا بافلوفا»

- ١ -

فى ليلة من ليالى الشتاء القارس فى أواخر شهر يناير عام ١٩٣١ عم مدينة «لاهاى»  
جزع عميق صامت، وسكون واله حزين . وليست المدينة أثواب الحداد والأسى .  
وأظلمت الأنوار . ومشى كل فرد يحدث أخاه فى صمت وسكون «أمات بافلوفا حقاً»  
نعم ماتت بعد أن جاءت لتحنى بعض الليالى برقصها الموتى البديع .

- ٢ -

كانت فى الثامنة من عمرها حينما شهدت لأول مرة رواية «الجمال النائم» فى  
مسرح «بطرسبرج» ولأول نظرة هامت بهذا الفن الوليد وأحست المسرح . وبعد عامين  
من ذلك التاريخ دخلت مدرسة الرقص ، وظهرت لأول مرة أمام الجمهور وهى لم تبلغ  
الرابعة عشر فى رواية مدرسة ، فلفتت النظارة إليها، وحارث الرضاء والقبول . وابتدأت  
رشاقة الحركة تظهر فى خفة رقصها وإيمائها المعبرة . وكتب لها أول فصل من فصول  
مجدها فى تاريخ الرقص . وسارت تدرج من مجد إلى مجد ومن نجاح إلى آخر وهى لم ترك  
روسيا بعد . فلما كمل فيها وبلغ غايته صارت تسمى بين العالمين بشاعرة الرقص، وقال  
عنها ناقد حير :

« ليس شك أنها أعظم راقصات العالم طراً . فمن يوم أن بلغت الثامنة من عمرها  
ثم دخلت المدرسة توجهت مليكة على الرقص من غير منازع ولا مدافع . وفى يديها ولا شك  
قد إكتمل هن «البالية الروسى» . فإذا ما عرض لها الناقد بالتحليل والتفصيل كان لزاماً  
عليه أن يقارنها بما أخرجت هى من تحف وبراعات إذ ليس هنالك من سبيل إلى مقارنتها  
بضاد آخر » .

- ٣ -

تركت «بافلوففا» سوقها فلم يكتمل بعد المسرح القصيرى لتلتحق بفرقة «ديا كليف»  
وانعطى «الدليه الروسى» مسحة الكمال، وتعلو به إلى فردوس الفن الصحيح . لم تلبث  
كثيراً مع «ديا كليف» لأنها لم تستطع التوفيق بين عبقريتها الخالقة وهريتها الحامحة وبين  
تعاليم «ديا كليف» وقواعده . فتركته خير فادمة إلى لندن .

• جريدة مصر - العدد ١٨٠٠ - أكتوبر ١٩٣١

ذهبت إلى هناك وهي واثقة بنفسها معتدة بذاتها . كبيرة الأمل في فنها ، متحمسة جياشة العاطفة . وقابلت أحد أصحاب المسارح هناك وعرضت عليه طلبها وأنها تريد أن ترقص « الباليه الروسى » لكن صاحب المسرح كان يجهل « بافلوفا » ولا يهتم كثيراً بالفن الروسى فأجابها : « لئننى لا أستطيع مثل هذه المخاطرة قبل أن تعرضنى على رقصك فى جلسة خاصة » .

شعرت « بافلوفا » أن ذلك الجواب جاف ، حائر ، مهين لكبريائها ورسالتها الفنية . وإذا فهي غير معروفة ، «والباليه الروسى» اسم لغير مسمى - بالهول الحير - وإذا الصدمة قاسية عنيفة ، وإذا بها فى غرفتها تبكى وتنتحب بعد أن خامرها اليأس من حسن ظن العالم . « بافلوفا » التى أحبت فنها . وأخلصت له . وأبدعت فيه . وانتكرت الأتماظ والألوان غير معروفة . وهى تلك الراقصة المشتاقة كل الإشتياق أن تبلغ العالم رسالتها وأن تسعد بتلك الرسالة وتسعد ملايين الأرواح والنفوس . غير معترف بها فى العالم . وفنها غير مقدر غير معروف .

إتصل بها فيما بعد صديقها الفنان « ادولف بولم » ووعدھا خيراً بأنه سوف يعرضها ويعرض فنھا للعالم الغربى فى العام المقبل - وإذا « بافلوفا » تظهر لأول مرة على المسرح خارج روسيا فى فرقة مكتملة العدة . تامة الأبهة . وكان ذلك فى عام ١٩٠٨

#### - ٤ -

ثم أتت بأول رحلاتها وزارت مدناً عدة مثل إستوكهلم وكوبنهاجن و برلين . فكانت تلاقى النجاح وتلاقى المجد الذى كانت تصبو إليه والزهر ينثر تحت قدميها - ودعاها المليك فى إستوكهلم إلى حفلة راقصة فناها منه الإعجاب والحظوة والهدايا . وسكنت نفسها قليلاً إذ أن فى العالم تقديراً .

ولما إلتصحت فى سماء الرقص الأوربي . وعرفها العالم الأمريكى . تمخض العالم عن نهضة جديدة فى عالم الرقص . فأذكت الشعلة المقدسة . وكان الشبان يتدافعون لرؤيتها أينما حلت . فإذا فرغوا من تلك الرؤية وذلك المشهد رجع كل إلى بيته راخر الفكر والوجدان « بافلوفا » : هذه الساحرة الخرافية - وحاول كل منهم أن يحكى إلهاماتها ويقلد حركاتها - وإذا موجة قوية من الرقص تغمر العالم وتسرى فى جسمه كالكهرباء وبذلك أصبحت رقص الوجود !

ولقد كانت تقول « إن أمواج البحر هى أستاذى الأكبر » وكانت تعجب « شوبان » بين كل الموسيقيين . لمعاني الشعر والحزن والحركة الأليمة التى تبدو فى مقطوعاته

فليس عجيباً بعد ذلك أن يقول عنها ناقد عارف : « إن دخول « بافلوفا » ومشتيتها في غرفتها أتى بكثير من رقصات عدة » .

ولقد كان أشد ما يأخذ بنفسها ويستولي على حسنها وفكرها في تلك الرحلات آيات الشعر والجمال . فأعجبت في اليابان بجدائقها . وفي الصين جمعت ألواناً من روائعها . وفي الهند أحضرت الجواهر الثمينة وخلافها مما يشاهده الزائر لبيتها القاتم في ضواحي لندن .

فلما آتت من إحدى رحلاتها إلى روسيا . استدعاها القيصر فيما بين الفصول . وبعد أن حياها وأشاد بقنها . قال لها مازحاً : « أخشى أن تسحرك تلك الأقطار الأوربية وتأخذك منا » .

وحصل ما ننبأ به القيصر فلقد قامت الثورة ، ولم تستطع « بافلوفا » بعد ذلك العودة إلى روسيا . ومن جهة أخرى كان شغفها بالأقطار النائية والبلدان البعيدة حافاً وعظيماً . وقامت برحلات عدة . وطافت بأعظم مدن أوروبا ، وأمريكا . وإفريقيا . وأستراليا . وزيلنده الجديدة . والهند . والصين . واليابان ، إلى آخر الممالك والأقطار . وكان التقدير الفني في كل تلك المدن والقلاع كسناً واحداً . إنها أروع ما شهد من الرقص .

#### — ♦ —

بساطة الفساد العظيم كانت تمثل في حياتها . فكانت إذا فرغت من عملها ذهت وبعض الصحاح لتسبح . ومن غريب المتناقضات أن تلك الراقصة الماهرة لم تكن تجيد التسبح وكان زوجها كلما سبحت أو حاولت الغوص يكون على أحر من الجمر .

وكانت أحياناً تذهب إلى مونت كارلو إذ أن لها غراماً كبيراً بالمقامرة لا لآلها تحب المال . فلقد كانت تصرف من غير حساب . ولكن لأن في الميسر — بعد تلك المجهودات العنيفة — لذة وراحة . وكانت تبيع دائماً وقبل أن تنسر .

وفي بعض الأحيان كانت تذهب مع بعض أصحابها لتناول الطعام في مطعم متواضع ولتتعم بتلك الحلوة وعدم الكلفة . ثم تبدأ بسرود غريب القصص والنوادر التي صادفتها في رحلاتها الشاملة . إذ أن « بافلوفا » كانت محدثة نابهة .

إذا ذهبت إلى المسرح ذهبت متكررة لئلا تزعجها نظرات الجمهور . وتنقص عليها هزائنها ثمن الشهرة والمجد ! وتحكي في هذا الصدد قصة وقعت لها في كندا . إذ ذهبت في إحدى الليالي لتناول طعام العشاء في فندق بسيط وكانت مرتدية لباسها العادي

مما لا يكاد يغيرها عن أى امرأة أخرى . فما كادت تظاً عتبة المطعم حتى عرفها الناس والتفوا حوها ، وقام لها أحدهم من مكانه لأن الأمكنة كانت ملاءى فقبلت استنجاءاً وشكراً وإذا كل الجلوس يقفون لإكراماً لها وتحية ، وقام أحد الحضور يلقي حطبة فى مدحها والثناء عليها . وبعد أن فرغ من خطبته إقترح على الحاضرين شرب نخبها . وإذ هي بين كل تلك المظاهر المفاجئة حيرى لا تحير نطقاً ولا جواباً .

— ٦ —

عاشت « بافلوفا » لفنها طيلة الحياة — وكانت تتجنب الولادة وأعباء الأمومة ومتاعب الحمل خوفاً على فنها أن يناله من تلك الأشياء منال لا توده . وكثيراً ما ظهرت على المسرح وهى مريضة صلبة . غير أنها كانت حريصة على خدمة فنها والقضاء على سبيله وهى أن تؤدى تلك الرسالة التى حملتها إياها الآلهة . وهى بتلك الرسالة جد جذيرة .

ولقد كانت ترقص فى ليالى الخريف والمطر ينهمر غير خائفة لما سوف يصيبها من برد أو أذى . كما أنها كانت تخصص كثيراً من دخل حفلاتها لهذا المعهد ولأولئك الطلبة البائسين ، أو لخبر الأدباء المعوزين . ولقد أسست معهداً للبنات فى « سانت كلود » عدا مدرسة الرقص التى قامت بجميع نفقاتها . وكانت ترسل بين الخير والآخر مندوبات من عدها ليأخذن بأبأدى الرقصات الروسية بعد أن منعت الحكومة السوفيتية إعانتها لمن زاعمة أن « بافلوفا » « فنانة برجوازية » .

ولم يكن حبها وعطفها مقصوراً على النساء الراقصات . كلا . ولاعلى الإنسان وحده . ولكنها كانت تغمر كل الخلائق والموجودات بعطفها وحنوها . وكان لها غرام بالكلاب والقطط والطيور . كما أنها تجد الأنس والسعادة فى حضرة الحيوان الأعجم . أما غرامها بالزهر وهيامها بالورود فقصة معروفة مشهورة . فلقد غرست بنفسها فى حديقة دارها ماينوف على ثمانية آلاف صنف من أصناف الورود والأزهار وكانت تتمهد ذلك الزهر بعين الشاعر الكبير القلب . الواسع العطف .

— ٧ —

وأقامت لها بيتاً أنيقاً فى ضاحية من ضواحي لندن تلجأ إليه فى ساعات فراغها وفيما بين رحلاتها . فتسكن إلى إغفاعة هادئة . وأنت ذلك البيت يحير ما تؤثت به البيوت وتزان ، فى البيت بحيرة خاصة يعوم فيها الأور الصافي البياض . وكانت كل تلك الظلال تنعكس على وجه تلك البحيرة . ظل البيت وطوبه الأحمر القاني . وظل الأزهار المختلفة وظل الأور فى البحيرة . وتنسك كل تلك الظلال شعراً ورقصاً يسهل معه على روح « بافلوفا »

— ٩٧ —

في ساعات خلوتها وراحتها أن تتذكر الرقصات المبدعات . وأن تخلق الحركة المعبرة .  
وأن تحيل رقص الوجود إلى عالم المسرح في قالب الحركة واللفتة .

فلذا فكرت في رقصة أرهفت أذنها لصوت الليل كما يرهف الشاعر الحالم . ثم  
أحالت ذلك الصوت وذلك الشعور إلى فن راقص . يأخذ بسمع العالم وبصره وهو أشد  
ما يكون شكراً وثناءً أن سحر ذلك السحر الذى أنساه نفسه .

وفي مثل هذه اللحظات انتكرت رقصة الأوز المحتضر — أعظم روائعها الخالدة —  
فلقد جمعت تلك الرقصة عمقاً ومكرراً إلى جانب عيالها العارم وعاطفتها الصادقة . وهي  
تمثيل للصوت الهادى الذى لا يمازجه صوت . ولا يشوه معالنه خوف أو حركة . ولو أنه  
في قالب الحركة واللفتة .

ويوم أن وقفت في ليلة من ليالى الشتاء المقمرة بالقرب من « تاج محل » في الهند  
وكان أريج الياسمين والفل يعطر الهواء ، وتهمس أنفاس النسائم الحاملة . والقبرة تغنى أغنية  
الشوق والرعبة المكبوجة . والكل مغمور بانور كأذ ليس هنالك مادة تحس — وقفت  
« بالقلوب » مأخوذة مسحورة وسط ذلك المشهد الصامت كأنها البسمة الحاملة على شفتى  
« المادونا » أو الهدوء المتكلم في صورة « الموناليزا » عرفت أن ذلك الحلم لن يدوم  
مراود الدمع جفونها من غير أن تعرف لذلك سبباً ظاهراً . وفي رفق ولين مسحت خدها ،  
أهو دمع الغبطة أم دمع الحزن والحنين ؟ وأمسكت بذراع صديقها الذى كان معها قائلة  
« يغلب في ظنى أننا لن نرى مثل هذا الجمال مرة أخرى في هذه الحياة » وقد كان !

— ٨ —

وفي بداية عام ١٩٣١ قضت ثلاثة أسابيع في « كان » ثم عادت إلى باريس لتقضى  
أسبوعاً آخر ، ثم قفلت راجعة إلى « لاهاي » . وفي طريقها أصابها برد خفيف — وإذا  
البرد الخفيف يوصلها مريضة غليظة . فاستدعى الطبيب . وقرر تساعته أن بها التهاب  
الرئة في الجانب الأيسر . ثم دعى أطباء آخرون فأبدوا كلهم ماقرره صاحبهم الأول .  
وصارت تنفس بصعوبة ظاهرة ، واستدعى عند ذلك الدكتور « سالفسكى » من باريس  
طبيبها الذى أحبه وأخلص لها هو الحب والإعجاب .

لكن مجهودات الأطباء كانت تذهب أدراج الرياح . وأخذت ضربات القلب  
تضطرب . وظل وعيها يزايها شيئاً فشيئاً ، فلما انتصف الليل أدارت يدها في حركة  
خفيفة لترسم صورة الصليب على صدرها ، ثم همست في أذن خادمتها قائلة : « جهزى  
لى ثوب الأوز المحتضر » وأسلمت أنفاسها الأخيرة .

— ٩ —

صور وأقاصيص سودانية



## مقدمة

إلى القارئ الكريم :

أرمى في كتابة هذه الصور والأقاصيص السودانية إلى درس « الشخصيات » درساً « ببيكولوجيا » - درساً يعنى بالتأنيج والأسباب - كما يعنى بالدوافع والأزمات ، فلربما أعرض الصورة من الحياة أو الشخصية أو القصة فلا يرى فيها القارئ ما اعتاده من عقد ومفاجآت وحوادث غريبة ، وما إليها من ألوان الخيل القصصية ، ذلك لأننى أعتقد أن هذا مذهب خاطيء قد شاخ وتلاشت معالمه من الفن القصصى المجيد ، فالحياة ولاشك لا تحصل دائماً أو كثيراً فى مثل هذه العقد والمفاجآت التى يأتي بها هؤلاء الكتاب . وعندى أنه حسب الثمنان المجيد أن يعرض جزءاً عمودياً أو أفقياً من الحياة مع التحليل الفنى اللازم وعمل الخيال الناضج الموزون والدرس « البيكولوجى » المتسق فى الطابع والنفوس ، فإذا كانت وجهة القارئ كما وصفنا فليقرأ هذه القصص وإنما زعيمون له أن يقرأ شيئاً طريفاً لم تهده الآداب العربية بعد . أما إذا كانت وجهته التسلية الفارغة وترجية الفراغ فخير له ألا يزعم نفسه بهذه القصص . فإن قراءتها فحسب لا تكفى لفهمها ، وإنما التفكير فيها بعد القراءة هو الضمان الوحيد لفهمها وتقديرها وفهم المعاني والأشياء التى أعنيها .

وكلمة أخرى فى إسم هذه الأقاصيص ، فهى ليست سودانية فى معنى الكلمة المخلود الضيق ، فهى وإن كانت حقاً سودانية فى شخصها وجوها وإحساسها ، وأن خصائصها الفنية هى خصائص سكان هذا النيل المبارك ، وعبرية وضعها هى عبرية هذا الوادى الحزين ، فهى من هذه الناحية من الأدب القومى الصميم ، إلا أن العادات الطارئة والصيغة المحلية ليست بأساسها ، وإنما أساسها النفس البشرية والطبيعة الإنسانية التى نعى برسمها وتصويرها تحت مؤثرات خاصة من الزمان والمكان والحضارة والثقافة . فهى من هذه الناحية من الأدب العالمى الصحيح ، وهذه ولاشك هى شارة الفن الرفيع عند كل الأمم ولدى كل العصور .

وإننا لنبرجو التوفيق فى هذه المحاولات القصصية .

## ابن عمه •

« زينب ، أصنعت الكعك الذى حدثتك عنه ؟ سوف يأتي ابن عمى يوسف محمد بن . . . بعد يومين من الفاشر ، وطبعاً نود أن نقدم له شيئاً ظريفاً — أنت لا تعرفينه يا زينب . . . ولكن . . . آه يا الملة فرحتى به ! . . . أتعرفين أننا لم نر بعضنا منذ عشر سنين ! . . . يا لله ، ولكننى لا أدري ما السر فى أنه لم يخبرني بمجيئه . . . لعله مشغول ، فلقد أراني صديقه خالد اليوم خطاباً منه يخبره أنه سوف يأتي العاصمة بعد يومين . . . إنه رجل طيب جداً يا زينب ، ولكم أذكر لعبنا معاً حينما كنا نذهب إلى الكتاب سوياً ، . . . وحينما نذهب إلى خالي عثمان أبام الجمع ، أنت لا تعرفينه ولكنك سوف تريه وتعيين به كثيراً : كيف يكون شكله ياترى الآن ؟ لابد أنه قد كبر وصار رجلاً كبيراً ! » هكذا كان يتحدث خليل أبو دومة إلى زوجته فى ليلة من ليالى الخريف القمرية بعد أن عاد من فلاحه أرضه واستلقى على سريره . وقد شعر أن الفرح والسرور يفعمان فؤاده . وكان الليل صامتاً رهيباً فما يسمع الإنسان سوى نقيق الضفادع ، و همس الرياح كل آونة وأخرى ، ونباح الكلاب فى فترات متقطعة يسمعه الإنسان فيتولاه شعور كئيب . وإحساس بالوحدة والسكون !

— إن شاء الله نرى ابن عمك هنا .

— نعم سترينه يا زينب - إنه رجل شهم همام ، إننى أحبه أكثر من أخى عبد الجواد . توفي والدى وأنا ما زلت طفلاً صغيراً ، فأخذني عمى إليه ، وعشت ويوسف كالأخوين لا يفرقنا إلا النوم — ولكن هو الموت وغدرة — فقد مات عمى ، وأصبحنا من بعده أيتاماً ليس لنا من يعولنا أو يهتم لأمرنا ، فتزحنا نكافح فى ميدان الحياة والعود غص والغصن رطيب ، فذهب يوسف مع تاجر شهير إلى الفاشر ، وبقيت أنا أعمل إلى الآن فى مزارع صالح الطيب ، وإننى لن أنسى قط ذلك المنظر المؤثر حينما افترقنا ، فلقد كان يبكي بالدمع السخين ، ويجيش بالبكاء الحار . وترقرق الدمع من عيني خليل فمسحه بمناديله وقال لزوجته : « ولكن الكعك وحده لا يكفى لإكرامه ، ونحن يمكننا أن نستغنى عن غذاء يوم فلنأخذ هذا « الريال » وتبتاعى لنا به زجاجة تمر هندية من النوع الطيب من فضلك ؟ » وذهب صاحبنا خليل فى الصباح إلى عمله وشجع ابن عمه الآتي لا يكاد يفارق مخيلته ؟ . . .

وجاء ميعاد القطار فى اليوم التالى فذهب خليل مع رهط من أصدقائه لاستقبال

إبن عمه . فأرأوا رجلاً لاهو بالبدين ولا بالهزيل . يلبس قفطاناً حريرياً وجبة مخططة جميلة المنظر وصمامة بيضاء مكورة ، له وجه مستدير وشارب صغير جميل ، فحبوه جميعاً وأقبل عليه خليل يوسعه لثماً وعناقاً — وبعد أن ودع أصلقاه ووعده بزيارتهم جميعاً بعد أن يستقر به الحال ، لم يفته أن يقول لخليل قبل أن يركب الترام — وكان قد أراد أن يذهب معه إلى أم درمان « لاتعب نفسك . إن لديك أشغالاً . سوف أحضر لزيارة عائلتكم قريباً » . وهكذا ركب يوسف الترام وبعد ربع ساعة كان في منزله بأم درمان .

وأعد خليل في اليوم الموعد غرفته الخفيفة وفرش أرضها بالرميل الناصع البياض . وظل يعد الدقائق منتظراً مجيء إبن عمه في الساعة التي حددها له . . . . . وها قد أقبل الليل . وإبن عمه لم يأت . ماخطبه . ما الذي حال دون مجيئه كوعده ، فظن خليل أن قد ألم بإبن عمه سوء . فذهب مبكراً في الصباح إلى حيث يقيم خالد — صديق يوسف — وسأله : هل يعلم شيئاً عن حالة يوسف ؟ .

— نعم وقد كنا معاً البارحة في للعصر . وظل معي إلى ساعة متأخرة من الليل . ثم ذهب في آخر ترام إلى أم درمان .

— ولكنه لم يمر علينا كما وعدني !

— لا أدري والله السبب . وغاية ما في الأمر أنه كان مسروراً ، وقد قضى معاً نحو الأربع ساعات قضيناها جميعاً في لعب ومسر ، فلعله نسي موعدك .

وخرج خليل بعد هذه المحادثة مفكراً في هذا الأمر . وصار يقول لنفسه « قد وعدني هو وحده . وقال لي أنه يود أن يرى عائلتي . فما الذي عاقه ياترى ؟ » وكان يحبره أنه لا يجد جواباً شافياً لأستلثه . ولما عاد إلى منزله سأله زوجته « ما الأمر ؟ » فلم يرد سوى « ليس هنالك ما يوجب الإهتمام » .

وأصبح اليوم التالي . فكانت السماء متلبدة بالغيوم والشمس تظهر آونة وتختفي آونة أخرى . والرياح تتناوح تناوحياناً عالياً باكية مولوة ، والأشجار تتمايل بقوة تحت تأثير هذه الرياح الهوج . فلم يئن هذا الطقس الرديء من عزم خليل على الذهاب لابن عمه في أم درمان ليومه على عدم إنجازه وعده الذي وعد . فلما دخل منزل يوسف رآه هذا الأخير من النافذة وأمر خادمه أن يجعله ينتظر في الغرفة الخارجية ريثما يفرغ من هؤلاء الزائرين للكبار . . . . . وكيف لا يزورونه وقد صار تاجراً كبيراً وثرياً غنياً ، فغضب خليل في نفسه وصار يفكر فائلاً في نفسه : « أأجىء إليه من الخرطوم ، فيستقيني خارجاً ريثما

يصادف مع هؤلاء الأجانب ! لابد أن يوسف قد تغير . ما كانت هكذا طباعه ؟ !  
وظل يبعث بعصاه في الأرض ، ويفتل شاربوه الأشعث كل آونة وأخرى . بينما كان  
يوسف وصحبه يتحدثون بمثل هذا الحديث :

— نعم والله ياسى يوسف ، أرى الفاشر كده ؟ .

— جميلة والله ، بس الشغل كثير . خصوصاً شغلنا نحن في العاج وسن الفيل ، يا الله  
من التعب ، فقصد نظل الأيام والليالي الطوال ونحن نبحث عن الأفيال ، لاننام الليل  
ولانغمض بالنهار ، فإذا ما نمت قليلاً ، فنحن لاشك نكون تحت رحمة الأخطار .  
فلربما يشب علينا فيل أو حيوان ضار ! .

— لا ! إن الله معكم ، والحمد لله الذى أرانا وجهكم فى ساعة خير . وهكذا  
الحياة ياسى يوسف لاتكون بتغير التعب والنصب !  
وقال آخر :

— أظن جو الفاشر رطب شوية .

— على كل حال فى أحسن فى جوها من أم درمان .

وقال آخر :

— أتركونا من هذا الحديث ، ونعالوا بنا إلى المسائل المهمة . كام حنيه وفرت  
ياسى يوسف ؟

— والله شىء قليل بالنسبة للتعب ، يعنى نجى زى كام الف جنيه فى البك الأهل .

وعلى هذا المنوال استمرت محادثتهم نحو الساعتين . كان فى أثناءها خليل على أحر  
من الجمر ، وبعد أن خرج هؤلاء الزائرون ، دخل خليل على ابن عمه ، فهش له يوسف  
بمطف مصطنع ، وبعد أن تبادلوا عبارات التحية والسلام إنشغل يوسف بحلق لحيته وكان  
خليل فى هذه المدة بهم بالكلام فما يستطيع إلى ذلك ميلاً ، وبعد أن فرغ يوسف من  
حلق لحيته إبتدعه خليل قائلاً :

— أنسىتى يا يوسف ؟ لم هذا الإعراض ؟

— سيحان الله . كيف أنساك يا خليل ؟

— ألا تذكر يا يوسف أيام كنا لانفترق قط ، أيام كنا فى الكتاب ، أيام كنا نسلق  
أشجار اللوم معا ، وكيف كنا نبعث بوالدتك ، لقد كنا أشقياء حقاً ، وكان والدك  
— رحمة الله عليه وغفرانه — يقول : إننى لأترككم يا أبنائى ولامعيل لكم سوى الله وحده

فهو كفىل برعايتكم وعيشكم . أهل تذكر كل هذا ؟

— نعم ، أذكر ذلك ولا أنساه .

— ولكن أظنك قد تغيرت قليلا ، ويخيل لى أنك لست ذلك الأخ الحنون الذى عرفته وأحبته ، فكنا نقسم الأحزان والآلام معا .

— ولم كل هذه الظنون ! إنك عطىء يا صديقى .

— ذلك ما أتمناه من صميم قلبى !

— ولكن لم كل هذا الكلام ؟ ماذا رأيت منى ؟

— إنك وعدتنى بزيارتنا البارحة فما أثبت ! ولقد كنت وزوجنى والأولاد الصغار

كلنا فى إنتظارك فخيبت ظنهم كما خيبت ظنى ؟

— ولكن قد حدث لى ما عاقنى عن الذهاب لى الخرطوم ألا تفهم العذر ؟

— ولكن صديقك خالد أخبرنى أنك كنت معه فى نفس تلك الساعة التى وعدتنى

فيها بالمجىء .

فتلجج يوسف وظهرت على وجهه علامات التأفف . ومن بينهم فى صدقه ، فقال

بحركة عصبية : « ثم ماذا ؟ » .

— أنت ابن عمى يا أخى ، كيف تأتى لى الخرطوم فلا تمر بى وقد وعدتنى بذلك ،

ثم تذهب لى رجل غريب عنك فتقضى يومك معه ، ذلك ما لم يمر بحسابى قط !

— ليه . . . هذه خونه ووجع دماغ يا خليل يا صاحب .

فتغيرت سمات خليل ، وكور عمامته التى إستحالت من كثرة الغبرة سوداء الشكل ،

وظهرت عليه علامات الإندهاش والإستياء ، فما كان ينتظر مثل هذا الحديث من ابن عمه .

وأخيراً أرنجفت أركان شفتيه وقال بصوت متلعثم :

— مابك بابوسف . ألسنت أنا ابن عمك القديم . وأنت يوسف ابن عمى القديم !

ماذا جد ؟ . . . يجب عليك أن تزورنى إننى لا أسألك إحساناً ، هذا هو واجبك على الأقل !

قال هذا وهم باليكاء وارنج كيانه واحمرت عيناه ، وكيف لا يفضب . وهامو

القدر يعاجته فى أحب الناس لى فبرى منه هذا الجفاء والغلظة .

— لقد ظننت أنكم تقدمتم . ولكنكم لم تزالوا فى مثل هذه الخرافات .

— ليس فى هذا الكلام تقدم أو غيره . أما أن تزورنى فى بيتى أو تعلن للملا

براءتك منى . وبذلك يرتاح ضميرى ! . . . أما أن تظل ابن عمى الذى يعرفه كل واحد ثم ترفض زيارتي فذلك هو الشيء الذى لا أشمله .

وضرب الأرض بعصاه لتؤكد ، وعلا صوته وإحمرت عيناه ، فلما رأى يوسف هذه الحالة وهذه الحماسة من خليل قال له فى شيء من اللطف :

— لا تكن أحمق يا خليل . سوف أزورك يوم الخميس . أهذا يرضيك ؟ أخبر زوجتك وأولادك أنني سوف أزورهم يوم الخميس الظهر .

— نعم يرضينى ، ولكن . . . !

— فلنذهب الآن إلى عملك ولا تجعل هذه المواجهات تشغل بالك .

وخرج خليل مسرعاً قائلاً لابن عمه : « سئى ! ! فضحك يوسف بعد أن خرج خليل متعجباً من شأن هذا الأحمق كما أسماه وظل يقول لنفسه « أترك أعمالى وعودى لبعض الأصدقاء لأزور هذا العامل الحقير . ولكنه أحمق بالحماسة ! »

\* \* \*

اليوم الخميس ، وقد استأذن خليل سيده فى المزرعة أن يعطيه ظهر هذا اليوم عطلة لأمر ذى بال ، فسمح له صالحي الطيب بذلك . وأتى خليل إلى منزله وجهاز غداه المتواضع فثأمنه أن ابن عمه سوف يأتي للغداء معه . وظل خليل منتظراً ، ولكن الساعة الثانية والثالثة والرابعة قد مضت ولم يظهر يوسف . ماخطبه ، ووقف خليل فى الشارع لكى يراه من بعيد ، ولكن هاجى الشمس قد غربت ولم يأت أحد ، وعندئذ تولى خليل غم شديد واسودت الدنيا أمامه ، وجاءته زوجته قائلة : « كل غداً لك يا رجل تكاد تموت جوعاً ، ما أظن يوسفك هذا يأتي » ، فوقعت هذه الكلمات من نفسه موقعاً أليماً . ودخل حجرته متظاهراً بعدم الإكتراث وثقة المبالاة . وقد دخلت عليه ابنته الصغيرة فى هذه الساعة فخانتته شجاعته وظل يجھش بالبكاء . وتذكر فقره وكيف أن يوسف صار لا يعبأ به . وتذكر ما كان يقوله له بقية العمال فى الحقل « أنظن أن رجلاً ثرياً كيوסף يزورك ولو كان حتى ابن عمك » فكانت تضاعف حزنه وألمه . وأخيراً قال لنفسه بصيغة الحازم : « يا لضعفى ! أ أبكى من أجل رجل بخس مثل هذا ، أ أبكى . . . أثلث هذا الفرساقل كل هذا الشأن عندى ؟ » مغالطاً نفسه لكى يسليها ويرفح عنها . وذهب حوالى الساعة العاشرة إلى بيت خاله وسأله عن يوسف هل رآه اليوم ؟

— نعم . وقد تناول معى طعام الغداء !

ويمكنك أن تتصور حالة خليل أكثر من أن أصفها لك ، فقد اسودت الدنيا أمامه . وقبل راجعاً إلى منزله بعد سماع هذه الكلمة لا يلوى على شيء ، وقلبه ينفور بالحق والكرهية

نحو يوسف . كما كانت تتتاب نفسه عوامل الضعف والكبرياء متناوبة بين كل دقيقة وأخرى ، واستقر في فكره أن لابد من الإنتقام من هذا الرجل السافل الذي ليس لديه كلمة ولا إخاء ولا شرف ولا وفاء ، وراح يتقلب على فراشه طول الليل فما أغمض له جنين ، وأتته إبنته الصغيرة في الصباح وسأته :

- أين هو يا بابا عمنا يوسف الذي تقول عنه إنه آت كل يوم ولم يأت إننى مشتاقة

لرؤيته :

فنظر إليها نظرة كلها عطف وحنان وقال لها :

- ولكنه هو لا يجب أن يأتي يا إبنتى ما حيلتنا معه ؟

قال هذا ومسح دموعه حارة تنحدر على خده . وقبل إبنته في عنقه وخرج من بيته قاصداً أم درمان ، من غير أن يتناول طعاماً أو شرباً . ولقد كان ذلك اليوم ماطرًا والبرق لا يفتأ يومض ، والمطر يهال إنهيالاً على الأرض . فذهب تواراً إلى بيت يوسف عازماً على أن يكون له معه شأنه الأخير . ودخل غرفته فما وجدته . فانتظر في الحجرة وكانت عيناه تغدحان شرواً ، وأعصابه متوترة من شدة الإنفعال . وكانت يده لا تفتأ تردد على شاربته بحركة عصبية سريعة كما تلمس كل ناحية من نواحي وجهه . ودخل عليه يوسف فهاله منظره ووجل خوفاً ، وأخبراً قال له :

- أهلاً وسهلاً تخليل ، إنشاء الله خير . ما الذي أتى بك في هذا اليوم الممطر ؟

- ما الذي منعك يا يوسف من أن تحيىء كما أخبرتنى ؟ نعم ، إننى رجل فقير ولكننى

إبن عمك ، فماذا أنت فاعل ؟ نعم . لو تراءت منى لكان ذلك أهون على نفسى من سلوكك هذا . . . أتذهب لخالد ولا تمر بي . . . آه !

- هدى من ووعك ، ما هذا الكلام ؟

- نعم . هذه هى الحقيقة : إنك لتأتى لخالد كل يوم فلا تمنجل أن تمر بي .

وأعجب من ذلك أن تعصني ولا تأتى : هل تظن أننا سنسلب أموالك أم ماذا ؟ . . . وبماذا نعلو على يا يوسف بسوى المال ، ولكن تذكر أنه ربما يكون لعبيد أكثر منك . . . !

- ولكن الأمر لا يستدعى كل هذا الكلام !

- بلى ! إنه يستدعيه وزيادة ، هذه إهانة ، هذه حقارة . هل تظن أن بيتنا مبدنسك ؟

هل يحقرك الناس إذا ما زرتنى فى بيتى ؟ أم ماذا تظن حدثنى ماذا تظن ؟

- ليكن عندك أحسن من هذا الكلام يا تخليل ، ولتذكر أنك فى منزلى !

- وليكن ذلك فداذا يعينى منه . لست بالشعاذ !

وغلب عليه الضعف فسالت الدعوى من عينيه ١ .

— يا للعجب ، يا للجنون !

— وكيف لا تعجب من جنوني ؟

— ايه ! . . . أظنها راح تطول ، بلاش خونه يا شيخ ووجع دماغ لست بالفارغ  
مثل هذا الحديث الفارغ .

وخرج يوسف نازكاً خليلاً وحده في الحجرة ، فخرج خليل في أثره قائلاً :  
— سوف ترى كيف أنتم من رجل بخس مثلك .

• • • • •

ومرت الأيام والليالي وخليل يزداد ألماً وحقدًا على الحياة ، أيجونه ولا يهتم به من  
كان يحبه أعز الإخوان وأحب الخلال والأقرباء إليه ! ! ذلك ما لا يستطيعه نفسه ، وفهمت  
زوجته كل ما في الأمر فزاد ذلك إستياءه وحقدته ، وصار يتراءى له شبح يوسف في  
الليل خادماً حقيراً يكنس الغرف في ثياب رثة فلا يعرف كيف يعامل حلمه هذا ، وأخيراً  
استغفر فكره على أن يقتله شر قتلة . ذلك لأنه لا يستطيع أن يراه كل يوم ذاهباً إلى خالد  
وغيره من الأغراب ماراً ببيته وكأن لا أحد هناك ، ولكن فكرة قتل ابن عمه كانت  
تؤرقه الليل لأنه لا بد أن يقتل جزاء له ، وما جزاء القاتل إلا القتل وتراءت له خيالات  
أبنائه الصغار هائمين في شوارع المدينة متجولين يستجدون العطايا ويشحذون فيقول لنفسه :  
« ما ذنب هؤلاء المساكين ، وما ذنب هذه الزوجة المسكينة ؟ هل أتركهم فريسة للجوع  
واليم ١ » .

كانت هذه الأفكار تؤرقه وتبسط من عزمه ، وقد لاحظ ذلك عليه أهله وبقيّة  
العمال وراحوا يشاءون عن سر هذا التغير في خلقه وشروء ذهنه ، وعدم إهتمامه  
في ملبسه ومأكله ، ولكن حقدته كان قوياً وحسب الانتقام كان شديداً في نفسه فتغلب  
على بقيّة العوامل الأخرى ، حتى إذا ما علم في ليلة من الليالي أن يوسف مدعو إلى طعام  
عشاء فآخر عند صديقه خالد صمم على إغتياله في تلك الليلة ، فأخفى نفسه في ركن  
من زاوية يمر بها المار إلى منزل خالد وجهز مديته مصمماً على أن يجعل تلك الساعة آخر  
ساعات ابن عمه في هذه الحياة . وكان الليل مظلماً في تلك الليلة ولو أن الساعة لم تبلغ  
السابعة ، فظهر يوسف ورآه خليل ، فأرغى وأزبد كالثور الهائج ، ولما دنا منه تحفز خليل  
يريد الإنقضاض عليه ، فتنبه يوسف وقال له :

« أهلاً وسهلاً بخليل »



وعندها خارت قوى خليل ولم يذكر إلا عطف يوسف وإنهاءهما فى صباحهما وصدر  
شبابهما ، وتذكر فقره وبؤسه فأغمد السكين فى بطنه بدلاً من يوسف وخر صريعاً  
لساعته ، ووقف يوسف مشنوهاً أمام هذه الحادثة المروعة - جاحظ العينين ، وانطلق يصرح  
بأعلى صوته فى شىء من الأسى العميق والألم القاتل : إننى القاتل . . . . إننى القاتل . . .  
إننى القاتل . . . .

## إيمان •

— نعم أعرفه ، أليس هو ذلك الشاب الكث الشعر ، النحيل الجسم ، الطويل الأنف ، الذى يعنى بهندامه ويضع طربوشه قريباً من حاجبيه ، وهو جالس دائماً فى تلك الزاوية ، ينظر بإمعان للاعبى الطاولة قائماً فاه طيلة الوقت يلتهم حديث المتكلمين والمتحدثين التهاماً من غير مضغ ؟

— لقد مات ياسيدى بعد أن إعتراه مس من الجنون لم يطل أمده لأنه ترك الأكل إلا لماماً ، وصار هائماً على وجهه فى الشوارع والطرق العامة ، لا يثبته حر ولا برد من ذلك .  
— وأى سبب أدى به إلى الجنون قالموت ، فلقد شاهدته منذ زمن ليس بالبعيد يلعب الطاولة وبدأ مبتهجاً وهو على خير ما يكون إنسان .

— لقد كان جلال أفندى عبد الكريم أيها الأخ ، شاباً سمح الخلق طيب الخاطر ، كله نعمة واعلمئان وطيبة قلب . يستمع بشغف لأحاديث المتكلمين حوله فى المكتب والبرام والمشتريات العامة ، ثم يأخذ بعض هذه الآراء التى تروق عنده ، وهو أكثر ما يكون تأثراً إذا كان صاحب الحديث شديد العارضة قوى الحججة ، قوى الشخصية يتكلم بكل حزم وتأكيد . يأخذ هذه الآراء فيعبرها على صبحه وكأنها هي له والحديث من بنات أفكاره لشدة ما يتعصب لها ويلود عنها . وأذكر أنه كان فى وقت من الأوقات كثير التلطف بهذه الجملة وقد سمعها من جلال الدين أفندى « إن الرأسماليين عندنا هم رأس كل بلية فى هذا الضعف الإقتصادى ، وهم اللود الذى ينخر فى عظام هذه الأمة » ! كما أننى أذكر أنه قد ترك هذه الجملة فى وقت من الأوقات ومسلك أخرى سمعت أنه سمعها من نور الدين أفندى عن أغانيات القومية « إتنى لا أنكر على أغانياتنا بعض الخلاوة المختلة والميلودية الباكية الشاكبة ، ولكنها طنيرة هزيلة وأغان ملة لانضرب على أوتار النفس الشاعرة . وإنما وترها واحد هزيل لا بحث على الجهد ولا يدعو إلى النشاط والحياة الهيئة . » وأنت تراه وتسمعه يقول هذا الكلام بكل كبرياء ذهني واقتناع وعظمة ! وجلس فى يوم من الأيام مع جماعة من بينهم حسين أفندى حسنى الذى كان يطلب العلم فى القاهرة . فأراد صاحبنا أن يظهر علمه ولودعيته ، فأدار الحديث لذلك الغرض خاصة حتى إذا ما جاء الحديث عن الأغاني السودانية قال قوله هذه فى شيء من الإقتناع والفهم المصطنع ، وراح يلحن سيجارته بعد أن أنهى حديثه وينظر فى الفضاء بكل إدعاء فى التفكير والتأمل كما يفعل « خير الله المارردى » بالضغط . وأخيراً نطق حسين أفندى حسنى وقال

بعد أن تكلم عن عبقرية الأمم والأغاني القومية المختلفة: « وإن الذين يقلدون الأفرنج في كل شيء ويحاولون أن يلبسونا ثياباً لم تخط لأجسامنا ليشطون ويهرفون بما لا يعرفون . فكيف يريدوننا على أن نستبدل شعورنا الشرقي البسيط بالشعور الغربي . والأغاني شعور وهي شعورنا . رد على ذلك أن من يعلم حالة هذا الشعب وتاريخه يعرف تمام المعرفة لم كانت أغانيها على هذه الوتيرة الباكية، وأن « السايكلوجي » الإجتماعي ليقدر صحة ما أذهب إليه . وخير لنا أن نحاول تحسين أغانينا على هذا النسق من أن ننقد روحها وعناصرها فإن روحها هو روحنا وعناصرها هو عناصرنا . وعبث بمحاولة تعبير الروح والعنصر ! فأعجبت هذه الجملة صاحبنا جلال أفندي وحفظها لساعتها بعد أن اقتنع بصحتها وترك قوله القديمة في الأغاني . وهذه ولا شك تظهر له أكثر عمقاً وعلماً ولودعية من الأولى . ولقد كان قوي الذاكرة ، ويكفيه أن يسمع مثل هذه الجملة مرة واحدة فيلتمها التهاماً ويحفظها عن ظهر قلب . ولو أنه في بعض الأحيان يسي كلمة أو كلمتين فيتغير المعنى المطلوب تماماً . وصار منذ ذلك اليوم يردد هذه الجملة في المكتب والبيت والسندى . وهكذا كان صاحبنا — رحمه الله — شديد التأثير يصدق كل ما يقال أمامه بحرم وصوت مرتفع . وكان في حفظه كعندسة « الفوتوغرافيا » يلتقط الأفكار لأول وهلة ويرددها كأنها من بنات أفكاره من غير أن يشعر بأقل غضاضة أو فقر ذهني . ومع كل هذا فقد كانت الناس تحبه وتستظرفه لما فطر عليه من مراحة الطبع والدعابة والخفة . وهو إذا ذهب إلى مكتبه وكلم بعض إخوانه في المكتب عن المسائل العامة فلم يأبهوا له ، بأدبرهم بهذه الجملة التي سمعها من « الباشكاتب » على أفندي رحمه الله : « إن حياة الموظف عندنا هي حياة ملة سخيفة . وما أشبهكم بالآلات الميكانيكية تؤدي واجبها الآلي ثم يشبع فيها الصدا فتبلى وتتعطم » — كما أنه كان كثير التقليد لرؤسائه يقلدهم في ذرات أصواتهم وفي مشيتهم ويلتقط الكلمات الإنجليزية من رئيسه الإنجليزي . والويل في ذلك اليوم لراكبي الترام ، فإنه يزعجهم بمثل هذه الكلمات بمناسبة وغير مناسبة . وأذكر أنه كان يستعمل هذه الكلمات وقد التقطها حديثاً : « Tremendous, extraordinary, absolutely ! »

ولقد كان يرثى الموت الرقص الوطني بين حين وآخر فيأتي مسلوب العقل والوجدان معا ، ويقرر لك بكل حزم أن « فلاتة » هذه أرقص بنت هي السودان . وأن تلك البنت أجمل بنات العالم طراً . ولا يمر أسبوع من هذا التاريخ إلا ويأتيك بأسماء أخرى هي أجمل البنات وأرقصهن . وهو في كل ذلك محكوم « بالمودة » وما يقوله صحبه ورفقاؤه فهو قل أن يكون لنفسه رأياً حتى في الطعام والملبس . يأكل ما يقول بعض إخوانه إنه أجود الأطعمة ويلبس ما يلبس زيد وعمرو .

وحصل يوماً أن إجتمع بهاشم عرفات في المنتدى الذي يجلس فيه في عصر كل يوم هو وصحبه ، وكان « هاشم عرفات » هذا شاباً كبير الإطلاع ، كثير الشك الفلسفي لا يؤمن بالأقاويل ولا يستطيع الجزم في شيء . وهنا ابتدأت صفحة جديدة من تاريخ بطلنا جلال أفندي عبد الكريم إذ كل ما أتى بحملة من جملة المحفوظة : سأله هاشم عن صحة مايقول وعن أدلته وبراهينه ، ويتهى بأن يشككه في قوله ويستخف له هذا الرأي . ويفسد ذلك . وصار كل مقال رأياً سأله هاشم « هل أنت متأكد » حتى جعله يرتج في أجوبته ويشك كثيراً أو صار لا يقتنع بالقول الذي يقوله الصحاب ولكن لابد أن يراه عملياً حتى يصدقه . وقبل أن يتفرقوا قال له هاشم « ياسي جلال أفندي أبق من فضلك ماتصدقني كل حاجة . إن هذا العالم كله رياء وكذب وتدجيل » . فتركت هذه الكلمات أثرها في ذهن جلال أفندي وهو يودع صحبه في تلك الليلة !

وحصل أن كان يوماً جائلاً مع بعض الصحاب وفيهم من كان يدرس الكيمياء فقال هذا الكيميائي : « أتدرون أن الماء من الهواء » ؟  
 — « لا . لا أصدق » .

— يا عجباً : إنه لا متراج اهيدروجين بالأكسوجين في نسب معلومة .

« كلام فارغ » بررت من جلال وتبعها منه أيضاً . « هل أنت متأكد ؟ »

— « كئأ كدي من وجودك هنا » .

وإشترط الصحاب أن يذهبوا إلى أقرب معمل في الخروطوم ليراوا هذه العملية ، ولكنه لسوء الحظ أو لحسنه ، مهما حاول صاحبا الكيمياء في التحضير فقد فشلت كل مجهوداته .  
 « أخيراً صاح به جلال أفندي : « ألم أقل لك كلام فارغ » .

— « وأي كلام فارغ تعني ؟ إن المواد لسوء الحظ ليست جيدة وهذا كل ما في الأمر . وقد عملت أنا هذه العملية مئات المرات ، وهي حقيقة ثابتة كوجودي ووجودك ، وأطلعه على عدة كتب فيها هذه الحقيقة ، فكان جواب جلال أفندي .

.. « أنظني مغفلاً لهذه الدرجة ؟ إن هذا العالم كله رياء وكذب وتدجيل » وقفل راجعاً .

وجلس يوماً آخر مع بعض صحبه وكان بينهم جاد الله العربي . وهو فتى مرموق باخواب . معروف بسعة الإطلاع والفهم فقال لهم « هل تدرون أنه سوف يحصل كسوف جزئي للشمس في الغد » . « هل أنت متأكد ؟ » قالها صاحبا الذي كان يؤمن قبل بكل شيء :  
 — « أنت عيب . أقول لك إن في الغد سوف يحصل كسوف جزئي للشمس فسألني

هل أنت متأكد ؟ ، إن هذه الأشياء بقررها العلم ، والعلم صادق لا يداجي ولا يكذب .  
ويمكننا أن نعرف الدقيقة والثانية التي سوف يحصل فيها الكسوف ! . ووقعه الجميع  
على هذا الكلام ونظروا شزراً إلى جلال أفندي . وراح صاحبنا يعلن هذا الرأي وقد  
نسى شكه « إن في الخد سوف يحصل كسوف جزئي للشمس ! » . وظهرت الشمس عدأ  
أشد ماتكون لمعاناً وضياءً فلا كسوف ولا خسوف . وكلما تقدم النهار ولم تنكسف الشمس  
إزداد شك صاحبنا وقلقه وصار يقول لنفسه : « أقول لهم هل أنتم متأكدون فيقولون  
يا لعبيط ، أينما الآن العبيط أنا أم هم ؟ » .

وبعد هذه الحادثة رجع فقابل « هاشم عرفات » - الرجل الذي جعله أول مرة  
يشك في حياته - وقص عليه قصة الكسوف المزعوم . وكيف أنه شك في حديثهم فما  
كان منهم إلا أن ضحكوا منه ، فقال له هاشم أفندي : « اسمع يا أخي إن الأشياء لا تحصل  
حسب قوانين معلومة ولكنها تحصل كل يوم في حالات كثيرة متعددة . وأساس هذا  
العالم إنما هو « التغير والتحول » فعبثاً نحاول إستنتاج القوانين العامة التي تحكم الأشياء .  
وقد يظهر لنا في كثير من الأحيان أننا قد نجحنا في ضبط القوانين ومعرفة الأشياء . ولكن  
هذا وهم خادع . فالحياة لا يحددها قانون أو « سابقة » وهي دأخة التحول والتجديد . وهي  
مستبدة وهي فاهرة ، وربما نحصل بعض الأشياء عدة مرات . ولكن ليس معنى هذا أنها  
سوف نحصل دائماً . فأى قوانين وأحكام ثابتة يمكن أن يصدرها الإنسان والحال كما  
وصفنا ؟ » . قالتهم صاحبنا هذا الحديث وتأثر منه وأعجب به كثيراً . وزادت نزعة  
الشك من ذلك الحين كثيراً !

وكان صالح أفندي عثمان ، المشهور بنكاته والأعبيه في الأندية والمجتمعات في  
ليلة من الليالي يقوم ببعض الألعاب ، فجاء إلى مسألة كوب الماء إذا ماملت وأقتل فيها  
بورقة قوية أو خشبة مستديرة أو ما إليها ثم جعل سائلها عاليها لم ينطق الماء للضغط الذي  
داخلها . فقاطعه جلال أفندي عبد الكريم وأنكر عليه حديثه وقال له دونك التجربة ،  
فجربها صالح أفندي عثمان بوضعه « لكوب » الماء وهو مقلوب فوق رأسه فلم يصبه  
أذى ، ولكن جلال أفندي لم يقتنع إذا لم يجرب العملية بنفسه . فقام وملاً الكوب ماء  
 ووضع العطاء وأدارها فوق رأسه ، ولكنها سالت فوق رأسه وأبطل هتداه . وضحك  
الجمع ساخرين هازئين . فما كان منه إلا أن تناول طربوشه وقفل راجعاً إلى بيته لا يلوى  
على شيء وهو حائق مغضب أكثر ما يكون شكاً وحقاً على الحياة وما يفسله الناس كأنه حق  
لأبائيه الباطل من خلفه أو أمامه . ومن ذلك الحين اضطرب كيانه العصبي وصار يهيم على  
وجهه ويرد على كل من يسأله أو يكلمه بجملة « هل أنت متأكد ؟ » ولا يأكل ولا يشرب

إلا نادراً. فزاد جسمه تحولاً على تحول. وأخيراً لزم فراشه لمدة أسبوع عارق بعدها هذا العالم . وقد كان يوم موته يوماً عاصفاً ماطرأ . تقلع سحبه ويشجع غمامه ويصبح الجو أدكن غابراً لمدة ساعة ، ثم تشرق الشمس ويشع الضياء ، وفجأة تتجمع السحب مرة أخرى ويغير الجو كأنما يريد أن يهطل المطر ثم لا يهطل . وقد بلغتني ان آخر ما نطق به وهو على فراش الموت بعد أن سأله أهله أن يشهد مرات ويقول : لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله ، أن فتح عينه وقال لهم : هل أنتم متأكدون ؟ « ثم أغمض عينيّه وراح في سبات عميق . وهكذا مات جلال أفندي شاكأ في كل شيء بعد أن كان مؤمناً بكل شيء !

## في القطار \*

### مأساة

بعد أن قطع القطار صحراء العنوم العاتية وما فيها من جبال ملتهمة ورمال بيضاء منبسطة وأحجار سوداء متناثرة، في لجج ذلك الخضم الذي لا تقف منه العين على شيء من صور الحياة النابضة . وسار ينساب في أرض لا تحوجه إلى مثل ذلك الكفاح والتضال القوى ، بل راح راكضاً في إتساق وسرعة على ضفاف وادي النيل ، وكنت من قبل ذلك أنظر إلى هذه الصحراء وأمعن للنظر إليها وكلما أعمت النظر وجاشت بي الحواطر والذكر ، حيل إلى أن لي تاريخاً مع هذه الصحراء وأنه محال أن تكون هذه المرة الثانية أو الثالثة التي أشاهد فيها هذه الصحراء لما أشعر به من القرابة والعطف والإناس لهذه الحجارة التي تتراعى بالقرب من سير القطار . وربما جنح بي الفكر فحيل إلى أنني قد رأيت كل هذا وعرفته قبل حياتي الراهنة ، وإلا فكيف أفسر هذا العطف وهذه الألفة وهذه القرابة الروحية التي هي أشد من كل عطف وقرابة وإناس ! والقطار سائر إلى أن أقرب من مدينة شندى بعد أن مر بمدن عدة . والمسافر لا يرى غير السهول الواسعة حيناً . والأشجار المتناثرة الكثيفة حيناً آخر . وقد يرى بعض الأحيان أرضاً خضراء ، ولا يرى في غيرها سوى الرمال والحصى . غير أن النظر إلى شجرة من هذا الشجر الذي تجلده بين حين وآخر واقفاً متدلى الأغصان في أسى وإكتئاب وصبر ووحشة لا تخالطها بشاشة أو يمازجها فرح ، لحري بأن يحمل الإنسان إلى الاعتقاد بنضوب هذه البقاع من الحياة كما عرفها وذوقها بين المدن الصاخبة ، وأنفاس الإنسان النابضة ووثبة الحياة الدافقة . كل هذا وبعض أصحابنا المسافرين المترفين في شغل عن الصحراء والسهول والأشجار وحديثها : هذا يدخن سيجارته . وغيره يقرأ كتاباً . وثالث فائم ، وغيره وادع حالم ! . وما أن يقف القطار عند قرية صغيرة يحسبها الإنسان خلاء وقفرأ قبل أن يطلع عليه بعض أهلها من شبان وشيب ومعهم أشياء من الطعام يرغبون في بيعها إلى المسافرين أو أنواع من الخرف والآتية .

\* \* \*

ووقف بنا القطار في هدوء طاريء في محطة من المحطات بعد أن أجتاز مدينة شندى . وكنت تسمع المسافرين ينادون بعضهم بعضاً : « أقفل الشباك » « أقفل الباب » بين قصف الرياح وأصوات المسافرين — ذلك لأن الرياح قد ابتدأت تقصف بشدة وتذر التراب في

العيون والعاصفة تولول كالشارد المجنون، والشمس تختفي بين حين وآخر لأن بالسماء الداكثة غمام يتجمع ويقطع حيناً، ثم يتلاشى حيناً آخر، فنظهر الشمس سافرة . وكان النيل الذي وقفنا بالقرب منه يرسل أصواتاً هائجة من أمواجه الثائرة . وهكذا وقف القطار بين ولولة العاصفة . وهدير الموج الصاخب . ودكنة السماء وحلوة الجو . وبعد قليل رأينا رهطاً من النساء وبعض العصبية يهرولون نحو القطار غير عابئين بالرياح أو حلوة الأنواء ، ولقد كان مع هؤلاء النساء أوان من الخرف المزخرف . وهن في أسماهن البالية أبعد شيء من الخرف ودواعيه، وفيهن واحدة قد تجاوزت الثمانين أو كادت تعرض وجهها قد رسمت عليه الشبخوخة خيوطها الساخرة . وتعجب ما هذه وعراك الحياة والتكالب على العيش في مثل ذلك اليوم العابس، ولكنك لا تجد جواباً على هؤلاء سوى : إنها الحياة ! » . فقد جاءت تسابق الفتيات هازئة بشبخوختها غير معترفة بكبرها . أو ربما كان الأصح أن تقول إن العيش ودواعيه يضحك ساخراً أو معجباً من هذه المرأة الهرمة . وليست تعرض حاجياتها على المسافرين من خلال النوافذ من غير أن تبس بحرف واحد، وإنما بإشارة خفيفة من الرأس وامتداد من اليد إلى جانب نوافذ القطار . وهي في إيماءاتها ووقفاتها أنطق من كل كلام . وأدل من كل صراخ أو نداء، وكانت تمشي في خطاها المشاقلة من أول القطار إلى آخره ولا من يشتري أو يبيع حتى أخرجها الإعياء . وقد شهدنا أحد ركاب الدرجة الأولى من الإنجليز فقال لها بالإنجليزية مامعناه : خير لك أيتها العجوز أن تذهبي إلى بيتك الآن ! » ولكنها ظلت واقفة ناظرة إلى هذا الرجل من غير أن تفهم قصده، ولعلها ظنت أن قد سألها عن الآتية التي تحملها أو قال شيئاً يقرب من ذلك . فمادت تعرض آتينها في مكان ظاهر أمام الرجل وتطيل النظر مرفوعة الرأس في شيء من الإستهام والطلب !

• • •

وكانت هناك امرأة تجلس على بعد ثلاثة أمتار من القطار ناظرة إلى العصبية الذين ينادون على أفواههم بما عندهم من طعام وشراب للجماعة المسافرين ، وكانت تشير على أحد العصبية بين حين وآخر أن يجرى هنا وهناك من واجهات القطار متادياً : شاي ، وشا ، آ . . آي » وكان بقية العصبية يحملون بيضاً مسلوفاً صارخين « بيض مستوى » . . . بي . . ض مستوى » وهم يملكون كسرة الباء مدأ طويلاً تكاد تخرج معه حناجرهم من شدة الصباح . كل ذلك الصراخ كان من غير جدوى إذا استثنينا مسافراً واحداً إشتري من أحدهم بيضاً بقرش صاغ ، ولشد ما كانت ترمقه عيون آخرين حاسدة حاقدة ! أما ذلك الطفل الصغير فقد ظل في ندائه باجتهاد وصبر من غير أن يلاقي نجاحاً ! وكانت صرخاته تشتد كلما



مر الزمن ولم يبع شيئاً من « شايه » الذى يحمله فى آنية تعافها النفس، وأكواب يصعب على الإنسان الشرب منها — ولقد كان يلبس هذا الفتى الصغير جلباباً أبيض قد إستحال لونه من كثرة الإتساخ . وتراكم عليه التراب قاتماً أسود يمشى حافى القدمين ، عارى الرأس، لم يتجاوز عمره إحدى عشر عاماً، يراق العينين ، دقيق الشفاه فى أسى وإكتئاب تطل عليك من نظرتيه لوعة وشجو دفين . وقد ارتسخت على جبهته وحول شفثيه غضون جاءت قبل أوانها مبكرة لشدة وقوفه فى الشمس . وحياة المتاعب والتشظف التى يجباها . كل هذا وقد نرى فى وئيته وحركته شيئاً من السهوم الواجم ، والخفة المستحبة لاتلبث كثيراً إلا وتقلب إلى إفتياض ولوعة . ولعل خفة الحركة والقفز تتملكه عندما ينسى نفسه ومحاوليه . ونظرة الأسى والإكتئاب تعتريه عندما يذكر أخفاقه وبؤسه ! وإننى لن أنسى ذلك الصوت الذى ظل يردد لفظة « شاي » والناس عنه فى شغل ، ولعله هو الآخر فى شغل عما يحمل من آنية وشاي . بل كان السهوم فى أوجه المسافرين وكأئما تنطلق شفاهه فى حركة ميكانيكية بين حين وآخر بلفظة « شا . . . آ . . . شاي » وهو يمد فتحة « الشين » مدأ تكاد تحسب أن روح هذا المسكين تكاد تزهق مع ندائه الحار وكلما لم يسمع رداً لصداه ولاجيباً لندائه إزداد عدوه من أول القطار إلى آخره، ومن آخره إلى أوله . كأئما هو الحيوان الخائف الهارب ! . . . . . وابتدأ المطر يتزل رذاذاً فى هذا الوقت والقطار واقف ، وصوت الرياح وهدير الأمواج يبعث فى الإنسان شيئاً من الخوف والخلال والرهبة . . . وبين جيشان الطبيعة وثورتها كنت تسمع صوت هذا المسكين بين حين وآخر منادياً « شاآآآى » .

وأحس الفتى برداد المطر بهطل على آنية المشاي وهو لم يبع منها شيئاً . فازداد حزنه وكثرت همومه ! . ولقد كان المسافرون فى حاجة إلى الشاي ، غير أن ماصدهم عنه رداءة آنيته وإتساخ أكوابه ، وهبته حامله التى لاتدل على النظافة أو شىء من ذلك، ولقد كانت تناديه تلك المرأة بين حين وآخر مشيرة عليه بأن يسرع خطاه وأن يذهب إلى الناحية الأخرى من القطار لعله بائع شيئاً لأحد المسافرين . وأخيراً بلغ به التعب واللغوب مبلغهما وبع صوته ، غير أنه واطب على ندائه وكأئما القطار بانتظاره الطويل قد زاد من ألم هؤلاء الناس وضاعف أحزانهم وشقوتهم — وقد برد الشاي وصار كالماء البارد وهو لم يزل ينادى ! — ولقد إستحال وجه الفتى من تراكم التراب وفعل المطر وإجهاد الصوت . ولما تعب ذهب إلى تلك المرأة وأراد الجلوس إلى جانبها فما كان منها إلا أن دفعته إلى ناحية القطار ، ولكنه وقد خارت قواه لم يستطع الصراخ فصار ينادى فى شىء من الهمود والإعياء وفقدان الصوت : « شاي . . .

شأى . . . شأى ! ، حتى كأن صوته قد ابتلعه الريح فيما ابتلعت فلم يعد يسمع له صدى ! . . . وصفر القطار معلناً سفرته رغم أن رذاذ المطر مازال يتساقط ، والرياح مازالت تعصف بين كل حين وآخر . . . فذهب هؤلاء الباعة متعدين عن القطار قليلاً ! . . . وسمعت هذه المحادثة والقطار يتحرك بين تلك المرأة وذلك الفتى . . . قالت المرأة : « ها قد خسر الشأى ! من ذا الذى قال لك ضع القرشين فى مثل هذا الشأى ومن سيثريه لك الآن ؟ . . . لتنام الليلة من غير عشاء . . . يا قاسى الرأس ، ألم تر الرياح تهب حينما عملته ، أليس لك عينان ؟ » وظلت توبخه على هذه الوتيرة وهو ساكت ، وقد بلغ بها الحق والغضب غايتهما . فدفعت بشدة لإرتج لها جسم الفتى ، وأخذت منه آتية الشأى ، وبعدها أخذ الطفل ييكى ويتهد تنهداً حاراً ، فاقتربت منه فى عطف وأسى وأخذت رأسه بين يديها وخانتها قواها ، فالتحدرت دعة كبيرة من مآقيها . ولما رآها الفتى على هذه الحالة . إسترد شيئاً من شجاعته وقال لها : « ولكنك أنت يا أماء التى قلت لى أعمل هذا الشأى علما نريخ منه قرشاً ، وقد عملته كذا أمرتنى ! ، فأجابته بعد أن نظرت إلى عينييه الدامعتين ، وشكله المتشنج ، قائلة فى صوت هادئ : تحالطه مرارة دفينية . وهم لاجع : « نعم ! أنا . . . أنا . . . أنا السبب . . . أسكت يا ولدى . . . الله فى ! ! » وبعد هذا المقطع لم أسمع شيئاً بل رأيت الأم والإبن يتجهاد نحو قريتهما فى خطى متناقلة وسكون كئيب . على حين كان المطر يزداد . والأمواج تصخب والريح تولول هامة ، وجسماهما يختفيان فى تلك الدكنة كنتقطين سوداوين وسط ذلك الظلام الدامس ! . . . وابتعد القطار رويداً رويداً ، وصورة ذلك المشهد لا تشارك نظرى ، ونغم ذلك الجرس الصارخ المملوء لوعة وأسى « شا . . . آ . آى » مازال يرن فى أذني . . . وإذا بصراخ بعض أفندية القطار يقطع على تفكيرى وذكرى فهو ينادى الجرسون : « واحد بيرة ، بس خلى الثلج يكون كثير شوية ، فاهم ! وقام البعض يلبس ملابسه ويصلح من هندامه إستعدادا لطعام العشاء ، وقال أحدهم وهو يربط رباط الرقبة « يا لله . . . آيه . . . يا ولاد . . . أنت ليه ماجبتش الكرافتات الحرير ؟ ابقى ذكرنى علشان ما نأخذ دسنة من دفس براين » ! . . . وأتى من بعد ذلك خادم « الرستوران » مشيراً إلى أن طعام العشاء قد آن . فقام البعض فى مشية متناقلة كلها خيلاء وكبرياء ، ورأينا هناك فزراً من الموظفين الإنجليز وهم جالسون فى غرفة الطعام يتكلمون بسرعة ويتبادلون النكات المضحكة ويدخنون . وكنت نسمع الأفندية من ركاب الدرجة الأولى والثانية وهم على مائدة الطعام الأنيقة ينادون بين حين وآخر « واحد توست » بينما القطار فى عذوه لايلوى على شئ .

## في الخرطوم

### خواطر وذكريات محزنة

الوقت ليل . والكون ساج نائم . فما تسمع نائمة ولا ترى حركة ، ولا تحس سوى الركود والإغفاء ، والسكون الشامل ، والظلام الصافي ، والهدأة الباعسة . ولقد تحس الحين بعد الحين حركة ضئيلة ، أو تسمع صوتاً خافتاً فيزداد إحساسك بذلك الصمت ويشد تقلبك لذلك السكون ، ويأخذك ذلك السحر ، وتستول على نفسك تلك الهدأة ويغمرك ذلك الصفاء . فتروح في عالم الأحلام والذكريات وتدخل إلى عوالم الفكر والعواطف المشجيات . وقد خيل إلى أن الحياة قد وقفت فجأة ، وأن الوجود قد أخذ إلى نومة هادئة ، وبعمديني ذلك الشجو والسهم فلا أستطيع أنا الآخر حركة أو قياماً ، أظل أتبع حركة الماء الدافق أمامي حيناً ، وحركة مايجري في خواطري وأحاسيسي حيناً آخر . وأنا جالس على أحد المقاعد على ضفاف النيل الأزرق في مدينة الخرطوم . والنيل ينساب في مشبه هادئ كأنه صفحة المرأة المجلوة وعلى عيني في النهر بضع سفن بخارية وأمامي الخرطوم بحري وجزيرة « توتي » وعلى شمالي مدينة أم درمان ، يجم عليها الصمت ويكسوها الليل ثوباً رقيقاً ، ويخيل إلى أن ذلك الشجر الحاني بعضه على بعض والذي يظلل شارع الشاطئ ، وذلك النهر الهادئ بما فيه من قنطرة وأمامه من مدينة وجزيرة وما فوقه من سماء تحسبها لشدة زرقتها وإنكفائها على حدود النيل أن السماء نيل وأن النيل سماء ، وأن الكل صورة يمكن أخذها ووضعها في إطار للتأمل فيها وإستلهاام الوحي منها . . . وخطرت سفينة من تلك السفن المرصوفة ، فحسبت لأول وهلة أنها لاشك طامسة أثر ذلك الجمال ، عابثة بذلك الهدوء الصامت مثلثة لتلك الصورة الرائعة ، ولكنها لم تصنع شيئاً من ذلك بل أعطت الصورة لونا ، وزادتها حياة وبشراً ، وما يخيل للرأي أنها سفينة تعبر نهراً . وإنما كأنها قلم يرسم خطاً على صفحة ، أو كأنها شهاب يشق عنان السماء في اتقاد وسرعة ! عجباً لمنظر النيل ليلاً ! . . ليس بعده جمال ولا جلال ، وما يفوقه منظر مما رأيت سحراً وروعة . وماتستجيش الخواطر ولا يصفو الذهن ولا يتألف الفكر ولا تكثر الذكريات وتغمر النفس فيضاً وحينئذ مثل ما تفيض النفس في حضرة النيل ، ويمن القلب ، ويحلو في كل ذلك الشجو والحنين .

ظلمت الساعات وأنا مأخوذ بسحر ذلك المنظر ، في شبه صلاة روحية ، وخشوع فكري ، وجلالة تغمر النفس ، وتخلج على الحياة شعراً ، وتحيطها بالأطياف والأرواح ، وتغلفها

بأسرار النفوس وخفاياها ! وبالقسورة منظر كمنظر النيل على ابتعاث روافدها وزخرف جميع تياراتها من حين إلى المجهول ، وشجو إلى الماضي ، وتطلع إلى المستقبل المنظور !

لم يظهر لي النيل في تلك الليلة كالشيء السائل المائي ، وإنما هو بالتماسك أشبه وإلى مادة كالزئبق أقرب . فما تشهد شيئاً من العنف أو من الإندفاع الظاهر ، وإنما تشاهد العمق البعيد مشحواً بثوب الهدوء والسطحية البارزة وتشاهد العدو السريع ولا تلمح شيئاً من آثاره ومظاهره . ولقد تسمع الوسوسة من حين لآخر بين نباتات المياه كأنما اشتدت بها الوحشة ، وكثر عليها الصمت والسكون ! ولكن العالم غاف ، وللعالم حرمة عندها ، فتنتطق في صوت خافت ، ونهمس بدلاً من أن نفصح ويعود الماء إلى سكونه ووحشته الجميلة والعين لا تفتأ تنظر إليه ولا تتعب من ذلك ولا نحس إعياء ولا فتوراً . ولقد يقع حجر في النهر وسط ذلك السكون فيكون للصوت الذي يحدثه موسيقية لا تعثر عليها عند أعظم أرباب الموسيقى والفنون ! وأسأل أحياناً . من أين باترى تأتي هذه المياه وإلى أين هي ذاهبة ؟ أمي لا تفتر من هذه الحركة الدائمة والدائرة التي تنتهي لتبتدىء وتبتدىء لتنتهي . إلى أين أيتها المياه ومن أين ؟ ألا تفترين ؟ ألا تسخطين ؟ ألا تتناكب عوامل الفجر والسأم ؟ فألمحها تسخر بي وتشفق علي ، وعلى شفيتها إبتسام . وفي نفسها مرارة وهي تهمس خوفاً من أن تسمع : هكذا ، هكذا ، فقد نفذ القضاء . أليس من الحماقة والضيق التأفف مما لا بد منه ولا يحيد عنه ، ونحن أبناء الحياة ولا شيء هنالك غيرها ، أليس من الخير أن نتحملها ونكون عند ظنها ولا نفتر عنها ؟ بل نحياها في أناة ورضاء وإبتسام وادع مرير . ذلك أحجى وأحكم لو كنتم تعلمون . . . وكللك تذهب المياه معززة حديثها بالابتسام والاصطخاب ، ونسيانها للشعور بالنفس ، وهزتها بشعور الملل والإعياء ! . . . والماء في جريه ووسوسته الدائمة يتخطى المدن والبلدان راكضاً وادعاً ، يمثل فلسفة الحياة وكيف يجب أن يكون إحتمالها والتغلب على شعور الملل ودواعي الإعياء والسخط .

وبأني النيل الأبيض من الناحية الأخرى وهو أكثر زبدًا وصخباً من النيل الأزرق . قد ترى موجهه المزبد وآذبه المصطفق يتكسر في عنف وشدة على الشاطئ ، حتى إذا التقى بالنيل الأزرق عند الخرطوم شد من أزره وأخذ يساعده وتكاتف الإنسان معاً في مرحلة الحياة التي ليس لها أول ولا آخر ، وهكذا يسيران وقد صاروا نبلاً واحداً وقلت وحشتها وزاد أنسهما ، فتلمح نجواهما وشعورهما بالرضاء الوادع . والحكمة الهادئة . وهما يندلفان في سير سريع ماسار الزمن وبقيت الحياة . . !

وهذا الجمال ماشأه ؟ هذا الجمال الساهي الوادع الذي تستمره النفس لأول نظرة ويفرح له اللب ، وتجزؤ الروح ، ماله يميل بذهني إلى خواطر محزونة ، وصور مشجية ؟

هذه السفن التي تنبسط أمامي أجعلها في خوف - ولعل السبب موت خال لي غريقاً في سفينة بخارية في النيل الأزرق . و « نوتي » منبسطة هي الأخرى أمامي : ما لها تأثير في نفسي شجواً حزيناً . وما لشجوها المكتيب الذي لم يبق له إلا أن يدمع : وما هذه الوحشة المخيفة . وما لرمالها الناصعة تبعث في نفسي شعور الأسى والذكريات الأليمة ؟ . . وإنني لأذكر « نوتي » وأذكر أياماً لي بها . وأذكر زرعها وأذكر مجدها ، وأذكر تلك الخضرة ملء العين والبصر نهاراً ، وهي الجلال والأطراف والخوف ليلاً . وأذكر - وبالشدة ما أذكر - أذكر أبي وأذكر بيت أبي ، أذكر ذلك البيت القائم وسط الزرع وحيداً لا أخ له ، كالشارة الموسومة وسط ذلك الزرع الحافل ! . أين كل ذلك اليوم ؟ لقد مات أبي واضمحل الزرع وتهدم البيت ، وما بقي منه سوى الجدران والتراب ، وصار مأوى حيوانات ضارية ، تسكنه الهوام ويعمره الخراب المائل للعيان .

وهذا الشارع الجميل المنسق على ضفاف النيل الأزرق ماذا يترك في نفسي من إحساس ؟ لا تزال صورته التي رأيته وأنا طفل بأفم درمان مرسومة أمام ناظري وهي صورة فيها من الحنين والشوق والقدم مالا سبيل إلى وصفه . على أن ما يعنى العالم بخواطر حالم مثل ؟ ! وهؤلاء بعض الناس يتحدثون في شغب وقد خرجوا من دور السينما . وربما كان هنالك حفلة راقصة ! وفي البحر حيتان ، وفي الشجر أطياف نائمة ، وغير هؤلاء وأولئك من أعمال متباينة ، وحالات مختلفة . ماذا يعنى كل هذا التناقض سوى طريق الحياة وشموها وعدم معرفتها للسهولة ، بل هي « الشدة » وهي القوة الغازية ! تلك هي أم درمان وادعة نائمة . ومن يدري ما بداخلها من المتناقضات ومختلف مظاهر الحركة والسكون . وشئني مظاهر العاطفة والشجون ! وإنني لأذكر النيل الأبيض وسفرتي فيه وأنا مازلت صبيّاً حدثاً . كيف نسيت نفسي في مروح وبساطة وأنا على السفين ! كلها ذكريات قوية واضحة ، تسلسل إلى ذاكرتي من حيث لا أشعر أنني في حاجة إلى « بروسست » ، آخر لبصف كل ما يجري في وعي المستر في تلك اللحظة من الزمان . إنها لتملأ حلاًلاً ضخماً وماتفتي ! وإنني لأذكر ليالي المدرسة . وسماعي لذلك « البورى » الذي يهز كياني هزاً ، ويلعب بنفسى ويذكرها بمن مات من أهلي وأحبائي ! ولا أدري أى علاقة لذلك الصوت وتلك الذكريات المحزونة ، فلربما لأن خالي كان ضابطاً ، وأن ذلك « البورى » يضرب لمشاء الضباط . وخالي قد مات ! . وأنظر إلى يميني فأذكر ضواحي الخرطوم وأذكر « برى » بنوع خاص . لا أذكر « برى » اليوم وإنما أذكر « برى » التي لم أرها بل سمعت عنها ، وأصغيت إلى أناشيد الفتيات وأغانيهن في مدحها « برى الطراوة والزول

\* مارسيل بروست قصصى باع إشتهر بتحفيد لحالات النظم واللاوعي .

حلاوة ، إن ذكر هذه الجملة ليمثل أمامي صوراً من الماضي قوية . حية كأشد ماتكون  
حياة وقوة ! بالصور الماضي وبالشجوه وحبته ! أذكر شوقي إلى الماضي ، وأذكر  
حنيني إلى المجهول ، وأذكر شعور الإغتياب والجمال الفني الذي أشرف عليه عند  
مشاهدي النيل في تلك الليلة ، فأقول يا للعجب ! أتراني أود أن أعيش الماضي والحاضر  
والمستقبل في ساعة واحدة ! يالهم الحياة ، وطبع الإنسان ، وعطش العواطف !

فأنا الآن أذكر كل هذا . أذكر الليلة القمرية بألم حرمان وأنا صبي ألعب . وأذكر  
مكاني من الخرطوم ومكان الخرطوم من الكرة الأرضية - إن صح أنها كرة - أذكر  
الخرطوم وجمالها السامي ، وصفاءها الصامت ، ورونقها وأحلامها وصمتها وما يحيط  
بها من ضوضاء . وما يتصل باسمها من أسماء تاريخية ، وهالات وحروب . وأذكر  
الحيتان في قعر النيل ، وأذكر الشجر في وقفته الكثيفة ، ووحشته الدامعة ، وأذكر عوالم  
أخرى شهدت أوفرات عنها . . . وأذكر أبي وأذكر أختي التي فارقت هذه الحياة ، وأذكر  
هؤلاء الراقصين المقاصفين ، وأذكر الجمال المائل لعيني ، وأذكر غير هؤلاء أشياء  
كثيرة لا صلة بينها ولا قرابة عندها . . ! فأسال نفسي ماذا تعني كل هذه الأشياء ؟ . .  
وليس من عجيب . . . سوى أننا في هذه الحياة وسنظل فيها إلى أبد الآبدين ، لانعرف  
عنها شيئاً يرتاح إليه الضمير ، ويسكن عنده الخاطر . وإذا أنا في هذه الخواطر المسائية  
أشعر برعشة في جسمي ، وأحس بنعمة في عيني . . . فما أدري أهذه اللذعة شعور  
يجذل الحياة ، أم هي بكاء عليها ؟ . غير أنني أعرف أنني أذهب وأعمل بعد ذلك كما  
ينذهب أناس كل يوم ويعملون ! .

## أم درمان

### مدينة السراب والحنين

بدخلتها الإنسان عن طريق القنطرة الحديدية المقامة على النيل الأبيض بعد أن ينهب الترام سهول الخرطوم الخضراء الواسعة ، فيلقى نظرة على ملتقى النيلين في شبه حلم : ويعجب لهذا الالتقاء الهاديء الطبيعي . وذلك التصاق العجيب من غير إثارة ضجة ولا صوت ، فكأنما النيلان افترقا في البدء على علم منهما وهنا يتلاقيان كما يتلاقى الحبيبان ويندجان نبلاً واحداً ، فما ندري أنهما كانا نيلين من قبل ولا ترى في موضع الالتقاء ما يشير إلى شيء من المزاومة أو عدم الاستقرار مما يلاحظ عادة في إلتقاء ما بين جهتين مختلفتين ، وإنما هنالك عناق هاديء لئن ، وإنساط ساكن حزين . فإذا فرغ المشاهد من هذا المنظر الذي لا بد أنه آخذ بنظره مرضه على التأمل ، ينتقل إلى الضفة الأخرى من النيل الأبيض فرأى البيوت الصغيرة مثبتة في الصحراء . ورأى السراب يلعب ويتماوج بعيداً ورأى بعض العربان وراء جمالهم المحملة خطياً تمشى في اتقاد وفتور . ومن ورائها سراب ومن أمامها سراب ، فكأنما هي تخوض في ماء شفاف . ورأى إلى شماله بعض ثكنات الجنود السودانيين مثبتة هي الأخرى في أماكن متباعدة ، ثم سمع صوت « البوري » يرن حزناً شجياً وسط ذلك السكون الصامت وفي أجواز ذلك الفضاء اللامع وتلك الشمس المحرقة ، فيحس بشيء من الحنين البعيد والحزن القاتر المنبسط ويعجب لذلك المكان ما شأنه وشأن الترام الكهربي والقنطرة والأوتومبيل الذي يغطف كالبرق بين كل آوثة وأخرى في ذلك الفضاء السحيق . وإذا سار به الترام قليلاً في اتجاه النيل رأى أول المدينة المعروفة « بالموردة » ورأى السفن البخارية الآتية من أعلى النيل واقعة على الشاطئ محملة بضائع تلك الأماكن الجنوبية كما رأى بائعي النرة أمام حبوبهم المرصومة في شكل أهرامات صغيرة وهم يبيعون للمشترين وينطقون العدد في نغمة إقاعية موسيقية فيها شيء من الملال والترديد الحزين . وفي مثل ذلك المكان كانت تباع الجوارى ويباع العبيد في أسواق علنية مفتوحة في عهود مضت ، وكان المباحون يفتنون في عرض تلك الجوارى بما يلبسون من الحلى والزينات . فإذا سار الترام قليلاً وجد المشاهد نفسه أمام « قبة » المهدي — ذلك الرجل الذي كان له الشأن الكبير في تاريخ تلك البلاد — ورأى تلك التبة مهدمة مهلولة كما رأى الجامع الواسع الكبير الذي بناه الخليفة عبد الله لكي يصل فيه المصلون أيام الجمع والأعياد فوقف هنيهة يذكر عهداً مضى بخيره وشره وخطابه شيء من إحساس « الزمان » الذي لا يبقى على شيء إلا مسخه وتركه باهناً شائخاً بعد أن كان كله رونق وشباب !

وهنا يذكر الإنسان قصة ويذكر تاريخاً ويذكر حروباً أقامت عهد المهدبة وتخلته وقضت عليه أخيراً .

وربما يرى في الشارع القوائم بين ذلك الجامع وبين طريق الترام صبيّاً واضعاً رجلاً على رجل في حماره القصير وهو يمشى في طريق معاكس للترام ساهم النظر مفتوح الفم . ينظر إلى بعيد من الآفاق ويغمغم بنغمة حزينة ملؤها الشجوة والفتور ناسياً نفسه ناظراً في ماحوله نظرة الحالم الناسي .

ذلك مشهد لن نخطئه قط في شوارع أم درمان . حركة خضيفة ساهية وغناء كئيب حزين كأنما يستعيد قصة مضت ، ويحكى رواية مجد وبطولة عفى عليها الزمان ودالت عليها الحوادث كما تدول على كل عزيز على النفس حبيب إلى الفؤاد ، ولم تبق على شيء سوى الغناء والسهوم الكئيب .

وفي ذلك المنظر يتجسم تاريخ أمة وقضية شعب رمت به الطبيعة وسط ذلك الحو المحرق . وتركت له صفات الصدق والبساطة في عالم لا بساطة فيه ولا صدق ! هو شعب من بقية أمم مجيدة طيبة الأرومة ؛ اضطره الكسب والمعاش أن يهاجر إلى تلك البلاد ذات السهول الواسعة والصحراء المحرقة ؛ فكان تاريخه مأساة تتبع مأساة ، وماضيه كله الجرم والإثم . وهؤلاء المهاجرون من أذاقوا السكان الأصليين الألم والتعب والخوف ، وإذا كل السكان سواسية عليهم النوبة من أمم أخرى فكان نصيبهم الألم والتعب والخوف ، وإذا كل السكان سواسية أمام عوامل الجوع ودواعي اللال والسأم ، ومغريات الشعر والذكر وويلات الفقر . وإذا بكل تلك العوامل المختلفة تترك طابعاً خاصاً على نفوسهم وسمات تخلقهم وسحات وحوهم لا يخطئها الناظر العارف . ولا تنقل في الدلالة والشاعرية والحزن العظيم عن تلك الخصائص التي يراها الإنسان على وجه الرجل المروسي الحزين !

وأبلغ ما يدل على تلك النفسية وذلك الخلق الأغاني الشعبية التي يرددها الكل . من أكبر كبير إلى الأطفال في الطرقات والشوارع ؛ بل أنني لا أعرف شعباً فتن بأغانيهم أعجب بها فتنه السوداني وإعجابه بها . فأنت تجد الموظف في مكتبه والتاجر في حانوته ، والطالب في مدرسته ، والشحاذ والحمار والعامل والمزارع والطفل الذي لم يتجاوز الثالثة ومن إليهم كلهم يغنونها ويرددونها في كل ساعة وكل مكان . ويأخذون من نغمها وإيقاعها معيناً لهم يعينهم على العمل ويلهب إحساسهم بدواعي النشاط واليقظ الشاعر . بل بلغ إفتانهم بها أن الرجل ربما يشتري « الاسطوانة » الغنائية بعشرين قرشاً وهو لا يملك قوت يومه ، وقل أن يمر الإنسان بأي شارع من شوارع أم درمان إلا ويعثر على إنسان أو جماعة



تدمدم بتلك الأغاني في شبه غيبوبة حائلة وصوت باك حزين !

والأغاني لا يمكن أن تذيع في أمة مثل هذا الذبوع وتحظى بمثل هذا الإنتشار إذا هي لم تعبر عن نفسية تلك الأمة أتم تعبير .

وأغرب من ذلك وأدعى إلى الدهشة أنهم يرقصون على تلك الأغاني الخزينة الكثيرة ولا يرون فيها حزناً ولا كآبة لإعتيادهم سماعها وإرتباطها الوثيق بحباتهم . فإذا غنى المغني قائلا « يا حبيبي خالفت نجفاني » وكان هذا المقطع الأخير الذي يرددونه مثل « الكورس » المسرحي وغناها المغني بصوت عال وتريد شجى ناعم طرب الكل وأشد الرقص وأشتعل النظارة حماساً، ونسى كل نفسه في موجة طرب راقص، فيعرف المشاهد أن هذا الشعب قد وطد نفسه على قبول الحياة كما هي في غير ماثورة وكان له في آلامه الدفينة البعيدة القرار نعم السلوي عن الحاضر، ونعم العزاء عن الآلام والمتاعب. وتلك هي نعمة الإمتسلام والحنين ومظهر الإستهتار بألم طال وتأصل فأنقلب فرحاً ونعيماً !

ونفوس السودانيين واضحة واسعة وضوح الصحراء وسعتها . وخلقهم لين صاف لين ماء النيل وصفاء، وفيهم رحولة تكاد تقرب من درجة الوحشية. وهم في ساعات المذكرى والعاطفة يحيش الشعور على ببرات كلماتهم وسيماء وجوههم حتى تحسبهم النساء والأطفال ؛ وتلك ميزات لا مكان لها في حساب العصر الحاضر . وإن كان لها أكبر الحساب في نفوس الأفراد الشاعرين وهي تقدير الفن والشعر والحضارة .

## • المكان •

### قصة تحليلية

مقدمة :

( حينما فرغت من كتابة هذه القصة رأيت واجباً على أن أعين القارئ العربي على فهمها ، لأن هذا الضرب من التأليف القصصى حديث العهد حتى في أوروبا نفسها ، وهو آخر طور من تطورات القصة التحليلية ، وفيه ولاشك صعوبة للقارئ ، خاصة إذا لم يكن ذلك القارئ واقفاً على هذا اللون القصصى في الآداب الحديثة فأقول :

هذا النوع من الفن القصصى ليس من مهمته تصوير المجتمع ولا النقد الإجتماعى ، ولا إستجاشة الإحساس والعطف القوى على الخلائق ، وليس من مهمته أن يحكى حكاية ، وإنما هو يتناول التفاعلات الداخلية فى عملية الإحساس والتفكير عند شخص من الأشخاص ويربط كل ذلك بموسيقى الروح وإتجاه الوعى . كما يعرض لمسائل الحياة العادية المتبدلة ، ويشير عن طريق الإيحاء إلى علاقتها بشعر الحياة ومسائلها الكبرى . وهو يعرض لذلك الجانب الغامض فى تسلسل الإحساسات واضطراب الميول والأفكار وتضادها فى لحظة واحدة من الزمان عند شخص واحد من الأشخاص . كما أنه يصور ما يثيره شىء تافه من ملايسات الحياة فى عملية الوعى وتداعى الخواطر ، وقفز الخيال ، وتموجات الصور الفكرية . هذا اللون القصصى — والحالة كما وصفنا — يعرض لأدق المسائل العلمية السايكولوجية المظلمة حتى للعلماء أنفسهم ، ويمزج ذلك بنسوع من الشاعرية والغموض العاطفى . ويخرج من كل ذلك تحفة فنية حقاً . ويتطلب فى كتاب هذا اللون القصصى أن يستثيروا نفوسهم ويكتبوا من معين حياتهم . فكأنهم يترجمون لأنفسهم مع بعض الزيادة والتقصان وتغيير الأمكنة والأزمان والأسماء . هذا النوع إنتشر فى أوروبا وعرف منذ عشر سنوات تقريباً حينما أخرج « مارسيل بروست » الفرنسى روائحه القصصية كما أنه عرف فى أممه وأحسنه عند « كاترين مانسفيلد » و « فرجينيا ولف » من كتاب الإنجليز . ونود ولاشك أن يكتب وأن يعرف فى وادى النيل . )

• • •

فتح مذكرته التى يدون فيها خواطره وأسماء الموضوعات التى يود الكتابة عنها فقرأ فيها أسماء هذه الموضوعات : (١) — حماسة شاعر عصرى (٢) — هكنا نحن ! (٣) — حرفة الكتابة (٤) . الأولاد الأشقياء فى الليل (٥) — إحساس بالمكان . ووقف عند هذا الموضوع الأخير يديم النظر فيه ويفكر متى كتبه ؟ إستجاش إحساسه بالمكان ، فذكر أن للمكان من

كل ظاهرات الوجود النصيب الأوفر من خياله وإحساسه . وإستولى عليه شعور قوى يدفع به لتدوين ما يحسه تجاه المكان . لكنه شعر أن الموضوع مترامى الأطراف مشعب النواحي لا يستطيع صهره وتركيزه وتبويبه على الوحد الذى يرصيه 1 وكيف يستطيع ذلك الموضوع شائع فى كميانه شيوع النور فى الفضاء كله . وعلى كل حال إبتدأ بالطريقة الزمنية فى توضيح الموضوع ولم أطرافه واستعرض صفحة حياته من طفولته إلى عهده الحاضر .

فلذكر أنه وهو طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من العمر ، كان قد أخذه والده إلى بيت زوجته الثانية لكى يلتحق « بالخلوة » هناك . وبقي زمناً فى ذلك المكان ، كانت أعجب الظواهر العقلية عنده أنه حالما يستيقظ من النوم مبكراً على صباح الديك يذكر أهله وبيته . لكن شيئاً واحداً أعجب له وظل يعجب له طيلة إقامته هناك ، وهو أنه خيل إليه أن عنده مفتاحاً سحرياً يعرض أمامه السوق التى كانت تقع بالقرب من بيتهم فى كل حركتها وصخبها وجوهرتها ولم يبق له لكى يصدق خياله إلا أن يشترى من ذلك البائع أو يضرب ذلك الرجل ! ! فلما كبر قليلاً فطن فى نفسه أن هذه الظاهرة غريبة فيه وأنه يجدر به أن يسأل الناس إذا كانوا يحسون ويتخيلون مثلما يحس ويتخيل . لكنه لم يعمل ولعل شيئاً من الإشفاق على نفسه والخوف من الضحك عليه منعه من ذلك السؤال .

وكبر « مجدى » فادخله والده المدرسة الابتدائية فكان يرى حوائط المدرسة جميعاً تقرب العطللة الكبرى باهتة شائخة ويملاؤه شيء من الإشفاق عليها ، فلا يترك المدرسة يوم العطللة إلا بعد أن ينظر إلى كل حائط وكل شق ويذرع الحوش ثم يودعها ويلبس ينظر إليها وهو فى الطريق إلى أن تغيب عن نظره . . . . . !

ثم راح « مجدى » إلى المدرسة الثانوية فى الخرطوم . فكان وهو فى حجرة الدرس يكتب أو يستمع إلى المدرس تقفز به ذاكrote من غير أن يشعر إلى خرائب رآها قبل عشر سنوات فى أم درمان ! ولا يعرف ما علاقة تلك الخرائب والأطلال التى لم يقف عندها فى يوم من الأيام باللمحظة الحاضرة ، وما لها تلح على خياله وتصوره وتحتلها من غير أن ينادىها أو يفكر فيها أو يفكر حتى فى أم درمان كلها - وبعد جهد ليس بالقليل يستطيع صبرهما والإنتباه إلى حاضره . !

فلإذا ذهب لينام فى الليل وسمع صوت « البورى » الذى يضرب عادة لعشاء الضباط الإنجليز ذهب خياله توأ إلى من فقد من أهله وقرباته .

وأغرب من ذلك كله أنه كان لا يسمع صوتاً إلا ويعطيه لوناً خاصاً . فصوت

البورى أصفر باهت، وصوت « الأتومبيل » أسود عامر السواد ، كما أنه كان ينظر إلى الأرقام المكتوبة كلها بخط واحد، فيتغافل بالبعض ويتشام من البعض الآخر، ويعطى تلك الأرقام ألواناً: فالثمانية والأربعة أرقام عامرة طيبة، والخمسة والتسعة أرقام باهتة صفراء لا يرفاح إلى رؤيتها أو التيمن بطلعتها !

وكان صوت ذلك « البورى » دائم الإقتران بصورة خاله الذى مات. وهو لا يذكر ذلك الخال حينما يذكره إلا على صورة واحدة ولو أنه رآه فى مختلف الصور والأشكال . يذكره حينما كان معه فى المولد النبوى فى ليلة مقمرة فى حركة واتجاه واحد بعينه دائماً !

وهذه الظاهرة هى الأخرى لا يستطيع لها تفسيراً ، فإنه قل أن يذكر الناس الذين عرفهم من ماتوا من أهله أو من هم يعملون عنه إلا فى هيئة الحركة . وفى أغلب الأحيان فى حركة بعينها وفى مكان بعينه ويوم وساعة بعينهما — فلا يذكر خادمتهم التى ماتت ، فى البيت مثلاً أو فى المطبخ أو ماله من الأماكن التى طالما رآها فيها، ولكنه يذكرها فى مكان بعيد كان برقتها فيه . فى مكان قفر بالقرب من النيل بعيداً عن المدينة وفى خطوة وإيماء واحدة، حالما يذكر تلك الخادم يذكر ذلك المكان الغريب وتلك الإيماء من غير قصد ولا تعمى ولا استحضار !

وهكذا فالصور التى رأى فيها والده مثلاً كثيرة ، ولكنه قل أن يذكره فى غير صورة واحدة وحركة واحدة ومكان بعينه !

• • •

وكان إذا قرأ عن مكان أو سمع به تخيله ورسمه فى مخيلته، فإذا ساعدته الظروف وذهب إلى ذلك المكان رآه مثل ما تخيله حتى الوضع وأشياء دقيقة لاتلوح فى خاطر إنسان، وقد يدهش أحياناً حينما يزور مكاناً لأول مرة فيخيل إليه أنه قد عرف هذا المكان قبل الآن فى حياة أخرى . والكل يظهر أمامه كحلم غريب ! . . . . لكن الألفة أو الإيتاس الذى يشعر به نحو تلك الأمكنة ومنعرجاتها يخيل إليه أنه قد عرف ذلك وصحبه ودحا من الزمن لاشك فى ذلك ولا ريب فيه . . .

فإذا أمعن فى التفكير والتعليل ظن أن هذا الذى نسميه « زمناً » وهم لأصل له Illusion « أو خرافة تخلفها عقولنا » Fiction « وأن الحقيقة الواحدة الباقية هى « المكان » واننا أحياء من أوائل الأزمان إلى أواخر الآباد فى صور وأشكال ومواد مختلفة كلها لها حظ من « الوعى » يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأفراد والأشياء . وعلى هذا الزعم فللحواط والمادة الصماء والأشجار وعى وإحساس من نوع وعينا

والإحساسنا، إلا أنه قليل في الكم بنسبة حفظ تلك الأشياء من الحياة والحرية والحركة ! وأن مهمتنا نحن أن نتفصل من شكل من أشكال الحياة ونمر على تلك الأدوار في تلك « الأثناء » التي نسميها الزمن، وهو مصدر ذلك الإحساس، وسبب ذلك العطف الذي نحسه نحو أشكال الحياة المختلفة من غير أن نعرف سببه ! . . .

ويرى « مجدى » أن بعض أحلامه تتكرر فيرى أمكنة غريبة في بلاد لم يعرفها . فلا يمر عام أو عامان حتى يسافر إلى بلد من البلدان يرى فيه نفس ذلك المكان الذي رآه في حلمه من قبل أعوام ! . . .

ولمجدى عادة تقلقه ولا تريحه، لكنه يحس في ممارستها والشوق إليها راحة وطمأنينة . فهو إذا لم يضع ملابسه وكتبه وسريره في أمكنة بعينها وفي أوضاع خاصة لا يرتاح إليه قط . فإذا وجد أقل تغيير في وضع كتبه وملابسه غيرها إلى نفس الوضع والمكان لأنه يتفاعل بأمكنة بعينها ويتشام من أخرى .

وقد يلج به هذا الإحساس المكاني في ساعات تيقظه إلى ما هو أغرب من ذلك . فإذا مر بالسوق لجج به الخاطر أن حياته لا تكمل إذا لم ير كل الدكاكين والشوارع . فإذا مرغ من هذه العملية ودلو أن في مكنته أن يدنجل كل حوانيت البقالة ويرى من قرب حوائطها الداخلية وزواياها وترايبها . كأنما لكل تلك الأشياء قصة معه، وهو لا يعلم من أمر تلك القصة سوى هذا الإحساس العارض الذي يقلقه في بعض الأحيان ولا يرتاح ضميره إلا حين يفقده ! .

استعرض « مجدى » كل تلك الذكريات والصور والأسباب في خياله في لحظة واحدة من الزمان وظل يفكر . . . يفكر !

« مامعنى كل ذلك ! . . . معناه . . . . . معناه . . . . . نعم معناه أن الإنسان لا يموت أبداً . وأن ما يسميه موتاً هو في واقع الأمر تغيير لشكل الحياة، وأننا نحن والسما والأرض والأمكنة كلها أخوان وأولاد أعمام وهذا هو سبب العطف والكلف بالمكان !

فألت له نفسه الثانية : لاهذا عبر صحيح . وإلا فلماذا يمتاز بعض الناس بهذه الحصلة والبعض الآخر لا يعرفها . ألا تذكر ما قرأت في كتب « السايكولوجى » أن بعض الناس يتركيبهم أقدر على تخيل المراتب، وآخرين على المسموعات . والبعض الآخر على المشومات . وبعض الطلبة يفهمون أكثر إذا قرأوا الكلام مكتوباً والبعض الآخر إذا سمعه منطوقاً .

« نعم ، هذا صحيح ، ولكن مامعنى كل ذلك أيضاً ؟ ! » .

مرة أخرى وهو في وادى التفكير العميق ! « معناه . . . معناه . . . ماذا يعنى معناه . هذه هي الحياة وكفى . . . وليس من معنى لأن نعتقد أن وراءها معنى . . ! معناها أنها الحياة ويكفيني أن أصور الحياة كما أراها، وليس من مهمتي أن أفسر كل ظواهرها ، فلفل هذا الإضطراب وعدم مقدرتنا على ردها إلى سبب واحد هو من حواصها الأساسية . وليس من ذنبي ولا ذنب الحياة أن الناس ينظرون إلى أشياء وراء الحياة . . لعل هذه هي لمبتها الكبرى علينا - وضحككتها المكبوحه التي لا يفتقر ثغرها عنها . ويكفيني أن أحكى الحياة بالعرض دون التفسير . فلفل العرض نفسه هو التفسير، ولعل الاعتقاد أن وراء كل ظاهرة ظاهرة أخرى خدعة من خدع المنطق . فلنحك الحياة في تقييد عواطرها وولائدها ولانكن حمقى فنطلب التفسير والتعليل، إذ الحياة تعرف الخلق الذكي ولانعرف التفكير والتعليل فلأعرض تجارب إحساسى بالمكان كما أحسست به ورأيت، ولعل ذلك كل وفق مزاجه وتفكيره إذا كان لابد له من التعليل والتفكير . . . !

هذا هو منطق الحياة المصميم . وهكذا يجب أن يكون منطق الفنان الذى يحكيها . . . وارناح إلى هذا التفكير كثيراً . وإبتدأ بلم أطراف موضوعه تهيؤاً للكتابة النهائية . فخط فى وسط السطر « إحساسى بالمكان » وكتب :

(١) كيف أننى أذكر الأشخاص الذين عرفتهم دائماً فى مكان بعينه وبتكر ذلك المكان كلما ذكرتهم !

(٢) كيف أننى فى ساعات الدرس والتحصيل تلح فى ذاكرتي صور خرائب وأمكنة رأيتها منذ عشرات الأعوام فتزورني من غير أن أناذيتها . وقد يقفز بي مكان فى بلد إلى مكان فى بلد آخر لا أعرف ما العلاقة بينهما قط ولا أستطيع أن أعرف .

(٣) كيف أنخيل بعض الأمكنة ومواقعها قبل أن أراها . فلما تسلمت الظروف برؤيتها تكون وفق ما تخيلت فى أغلب الأحيان !

(٤) كيف أحس أن المكان الذى رأيت لأول مرة فى حياتي هذه قد رأيت من قبل فى حياة سابقة أخرى !

(٥) كيف أن خاطري فى بعض الأحيان يلح بي لكى أفرغ حواظ الدكاكين الداخلية - التى لا أعرفها - وأتمن فى ترابها وزواياها كأنى قد تركت روحاً هناك !

وبعد أن كتب هذه الأشياء شعر بأنه قد تعب وفتح مذكرته التى بدون فيها خواطره وأسماء الموضوعات التى يود الكتابة عنها فقرأ فيها أسماء هذه الموضوعات :

(١) حماسة شاعر عصري (٢) هكذا نحن ! (٣) حرفة الكتابة (٤) الأولاد الأشياء بالليل  
(٥) إحساسى بالمكان . !

تقام فجأة من الكرسي ثم رأى وجهه في المرأة ثم إندأ ينظر إلى الأفق من شباك  
غرفته وأراد أن يفكر غير أنه أحس أن رأسه أصبح قراعاً مطلقاً . . . !

## الموت والقمر \*

الساعة الثامنة ليلاً، والجزيرة هادئة صامتة. والقمر يفيض أمناً وسلاماً على المزروعات الخضراء. وسكان الجزيرة الذين قتلوا من جهد اليوم المضني إستراحوا إلى منازلهم ليستعيدوا قواهم ويجددوا أعصابهم.

تلك هي جزيرة «توتي» التي تقع عند ملتقى النيلين الأزرق والأبيض. وهي في زمن الفيضان جزيرة حقاً، وفي ماعداه شبه جزيرة كبيرة—هي مزيج من الزرع الأخضر ومن الرمل الأبيض الناصع البياض.

ركب القاسم بن اسماعيل وابن أخيه جلال الدين الصغير القارب الذي ينقل الركاب مابين أم درمان وجزيرة «توتي» وكان جلال الدين أثناء تلك السفرة بين عاطفتين قويتين: عاطفة الخوف من تأرجح ذلك القارب الصغير الذي كان يغطس إلا بعضه في أمواج النيل. وعاطفة الجمال الذي يراه في البحر وسيطره في الجزيرة التي سمح عنها كثيراً ولكنه لم يرها.

— «هيله بيله» يردد المجدد بين كل حين وآخر.

— الملوخية في سوق أم درمان غالية قوى.

— أبوه. ويا أخي يياخذوها منا رخيصة خالص.

— انت قلت لابن عمك إيه امبارح.

— لا يا أخي مال كمش حق.

— وبعدين...

يتكلم المزارعون من الركاب في شؤنهم الخاصة كأن المركب الذي يركبونه لا يتأرجح. وكأن لاقمر صافى البياض رائع النور ولا شيء غير عادى. وجلال الدين كأن ليس معهم، دائم الخوف من هذا العالم الجديد المخيف المفزع معاً!

وصلاً إلى الشاطئ ذى الرمال البيضاء الجزيرة. وأخذ القاسم بن اسماعيل وابن أخيه جلال الدين الصغير عيشيان في تؤدة وحذر لأن الطريق طويل إلى القرية، والمشي متعب مضن. وأرجلهم تسوخ في تلك الرمال الغزيرة فيقتلعانها إقتلاعاً، وكانا وهما في ذلك الطريق الضيق والمزروعات العالية من شمالهم ويمينهم ومن قدامهم وخلفهم، لا يسمعان سوى صفير الرياح الهادئة يداعب أعالي المزروعات ولا يريان مدى بصرهما سوى الأشجار تمايل في حركة خفيفة يقرب أثرها من الوحشة والخوف، ولا يسمعان



إلا فحيح بعض الحشرات وهمس النسائم . وقد تأتي الرياح المثقلة بين حين وآخر بتباح  
كلب متقطع ، غائر الصوت ، بعيد الأثر .

قال جلال الدين وسط ذلك الصمت الرائع « أسمع حركة بالقرب منا » !

— آه . لا تكن جباناً إنها حركة حشرة من حشرات الأرض .

— أشعر بخوف شديد ، خصوصاً وقد سمعت من أبي أن في توتى بعض لصوص  
يتربصون بالمارة ليلاً .

— إليه الخوف ده يا جلال ، إن مثل هذا الصفاء ومثل هذا الإشراق والسكون والنور

لا يمكن أن يكون معها أى خطر . . محال !

واستمر في طريقهما . ووقع أقدامهما يرسل موجة من الصوت يرن صداها في

آذانهما فيخيف ذلك جلال بعض الشيء ، ويستولى على كيانه شيء من الخلل والتوجس  
المخيف .

إقتربا من القرية فزال منهما ذلك الانقباض والسكون ، وشعر جلال الدين بأنه رجع  
إلى نفسه حينما رأى الأبقار وسمع « خوارها » . وبعض الأطفال يلعبون جماعات جماعات  
وهم جلوس على ذلك الرمل الأبيض . ووقف نظره بنوع خاص عند رؤية قروية تحلب  
بقرة من أبقارها وطفلها الصغير يصرخ داخل البيت ، وهي تتاديه باسمه بين حين وآخر  
لتؤكد له أنها موجودة راجعة إليه حالاً .

— آه هي دى « توتى » بقه !

— أبوه دى « توتى » مش كويسة ! ؟

— فين بيت عمى ، هو العرس مش بكراه ؟

— أبوه قريب من هنا . بس عاوزين نرور خالتي خديجة في الطريق قبل ما نروح

اليست .

— طيب .

ودخلا بيتاً صغيراً فوجدوا خديجة جالسة في سريرها ساهمة ناسية نفسها تردد أغنية  
محزونة وبجانبها إبنتها الصغيرة عائشة ، فكان ظهورهما مفاجأة عند خديجة لم تكن تتظرها  
خصوصاً وهي غير مستعدة في ذلك الوقت لاستقبال أولاد أختها « أولاد المدارس »  
النظيفي الثياب .

— اتفضلوا . أهلاً وسهلاً يا مرحب شرقم .

وفرشت لهما ثوباً نظيفاً على السرير الثاني . ونسيت مرض إبنتها عائشة .

- « ماله البنت بتصرخ ! ! سأهلا اسماعيل فى شىء من الرفق .  
 - البنت قطعت لحمى . كل يوم يمرض جديد . حسم هى أحسن بكثير من زمان .  
 واقتربت اسماعيل من البنت فلمس جلدها الذى كان يتوقد حرارة  
 - دى عندها حمى شديدة قوى !  
 - لا يقولوا عندها ملاريا . سينها منها ومن ملاريتها اللي اتعبتنا طول السنة .  
 - امتي عرس بنت خالتك ؟ أعملى للقاسم وجلال الدين شاى يا فاطمة .  
 ونددت على إبتها الكبيرة ، وجلست أمام عائشة فسدت عليها الهواء فى تلك الغرفة  
 الضيقة، وابتدأت تتكلم مع القاسم فى شؤون شتى متجاهلة صراخ إبتها المحمومة، وكلما  
 اشتد عويل البنت وصراخها إقتربت منها أخضا الكبيرة قائلة لها فى شىء من التأنيب :  
 - ماتسكتى يا بنت أنت مش شايفه الضيفان والابيه ؟  
 - العرس بعد يكره .  
 - انشاء الله كان نحضر يوم عرسك أنت يا اسماعيل .  
 - آه . . . آه . . . آه . . . !  
 - ماتسكتى يا بنت ما كفافا !  
 - مسكينة ، ما اعطيتوها كينا ولا حاجة ؟  
 - أظن أن ده أول يوم يشرف فيه جلال « توتى » بلدنا .  
 - ابوه وكان خايف طول الطريق من الحرامية زى ماقال .  
 - لا ماهو صغير . دى مافيش بلد أمان أكثر من « توتى » !  
 استمرت الأم فى حديثها مع الضيفين ، وتجمع فى ثيابها بين كل حين وآخر، ظاهراً  
 على وجهها الإهتمام بزيارة أقاربها هؤلاء .  
 - « آخ يا ليدى . . ! » كادت البنت المريضة أن تزهق روحها .  
 - « مالك ! مالك ! » وهى لا تدرى أنها قعدت على يدها . « ماتشربوا الشاى يا اسماعيل  
 واهه أزل إذا ماشربوا . »  
 - فشرى قليلاً بالرغم من قذارة أقداح الشاى لإرضاء خاطرها . وزاد فى تفرز جلال  
 الدين الصغير أن شاهد فى نفس الغرفة عدة الطليخ وأواني الأكل المتسخة تحت السرير  
 يحوم حولها الذباب ومواء قطرة سوداء . كما شاهد فى سقفه الغرفة حبلاً عليها ملابس  
 قديمة منتشرة . وشعر الفتى الصغير بضيق يمسك بصدره، فلا نوافل يدخل منها الهواء  
 ولانور سوى بصيص مصباح صغير .

شعر جلال الدين بأنه يرغب في الخروج خصوصاً وهو يعرف أن النور خارج  
الغرفة ينتظره ، لكنه كان خجولاً فبقى على مضض منه .

إقربت فاطمة — بعد أن جمعت أواني الشاي، وكانت تسارق اسماعيل النظرة من  
حين لآخر وتلتهم حديثه التهاماً — من أختها عائشة المريضة وسألته إذا كانت تريد قدحاً  
من الشاي . فلم تنطق بل ظلت راقصة مسيلة الأجفان في غير حراك . أداتها بيدها  
وحاولت إبقاؤها ولكنها كانت في سبات أبدي . هتفت صرخت صرخة داوية . .  
— « أخنى . . . ! »

فسألته أمها : « مالك يا بنت » .

— « شوفي عائشة يا أمي ! » فنظرت الأم مخلوعة القواد إلى إبنتها وحركتها بيدها .  
ولما لم تنطق أو تستيقظ صرخت الأم وابتدأت في الإعرال والبكاء ومعها بنتها .  
صحق اسماعيل وجلال الدين ، واستولى عليهما صمت رهيب ، وسمع الجيران ذلك الإعرال  
فجاءوا معزين . واختلط عويل النساء مع أصوات الكلاب التي ابتدأت تعوى هي الأخرى  
عند سماعها لهذا الصراخ العالي وسط ذلك الصمت والمسكون !

\* \* \*

والبر في عليائه يسكب النور ويتخطى بعض السحاب الرقيقة ويبدأ غير حافل  
بما في الأرض ، يمشى مشية الواثق المتشد بينما كلاب القرية تعوى ويمتدح عواؤها مع  
صراخ النساء .

كانت فاطمة في تلك الأثناء تبكي وترى صورتها بين كل آونة وأخرى لابساً  
ثوبها الجديد الذي أعدته لمرس ابن عمها فيزداد بكاءها ويشد .

وعندما ترى نفسها في صورة الأم المكومة جائسة حزينة وأقرباؤها يأتون إليها  
معزين قائلين « البركة في فاطمة » فيعطونها ذلك الإحساس شيئاً من الرضاء وعاطفة الحنان  
وأهمية النفس !

تسلل بعد ذلك اسماعيل وأبن أخيه بعد أن عزيا — في خفوت وتلصص — وهما من  
تلك الحاجة في اندهاش وتفكير متعدد التيارات !

وظلا يمشيان في هدوء إلى أن قطع جلال الدين ذلك الصمت مستغراً : « أظن المرس  
سيؤخروه يا اسماعيل ! » .

لم يحب اسماعيل ، وظلا يمشيان في صمت وإنكار . والكلاب مازالت تعوى  
والنساء مازلن يعولن . والقمر مازال يرسل نوره المهادى فتلعب الجزيرة كأنها ترقل في  
حلة من نور .

خواطر يومية

## لا يصح ولا يعقل .

ينشر الأستاذ زكى مبارك فى جريدة البلاغ أبحاثاً فى الأدب العربى بأسلوب يظنه حضرته غاية التحقيق العلمى مع أنه خلط من التواضع العلمى ، بكثرة فيه من تأكيد شخصيته ويأتى بلفظة « أنا » بين كل حين وآخر مع أن السياق لا يتطلب ذلك . ويقرر آراءه فى لون صارخ وهو يبحث مسألة علمية ليس للعاطفة والحماس من مكان فيها . ويكفيه فى ذلك المنطق وذلك التحقيق أن يقول « وأنا أرى غير ذلك ! » أو « ليس من المعقول أن يكون الأمر كما قالوا » من غير أن يقول لك السبب فى عدم معقوليته . ثم لا يكفى بعد ذلك كله أن يكون الشئ غير معقول لأذهاننا لترفضه . فالأشياء والآراء المقررة صحيحة إلى أن تتجمع البيئات ضدها — وليست هى غير صادقة لأننا لا نستطيع البرهنة عليها على الوجه الذى يرضينا ! ! .

ولنعط القارئ نماذج من طريقة الأستاذ فى البحث فهو يقول : « ويمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التى سبغت الإسلام لم تكن تخالف كثيراً لغة القرآن . لأن التطور الكبير الذى ينفل اللغة من وضع إلى وضع لا يتم فى خمسين سنة مثلاً . » لم ؟ هل هذا تحقيق علمى ! ثم هالك رأياً آخر صرفه بلفظة « لا يعقل » قال : « بعد ذلك ينبغى أن ننظر فى نشأة العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض وهى أيضاً فى « رأيى » قديمة لا يصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الإسلام فى القرن الأول والثانى كما يظن مؤرخو الآداب العربية لأنه « لا يعقل » أن يظهر كتاب كالقرآن فى أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا فى القصة والعروض والنقد وطرائق التعبير . « أ رأيت هذا المنطق الذى هو غاية العجب أن يصدر من إنسان يزعم أنه درس طرائق التحقيق العلمى المنطقى ؟ ومن الذى قال له : « إن الكتب الأدبية تظهر بعد التفكير فى علوم القصة والعروض والنقد وطرائق التعبير . » هذه الأشياء إنما تستتج إستنتاجاً من الكتب الأدبية وليست هى التى تقرر الأعمال الأدبية وطرائقها ! .

ويقول فى مكان آخر فى صدد الحديث عن الأدب المعاصر للقرآن .

« أفيعقل أن تمر حركة كهذه من دون أن تهب فى وجهها أسنة الخطباء وأقلام الكتاب وشياطين الشعراء . » ويستتج من كل هذا الذى لا يعقل أن هذه الحركة فضلاً وجدت — منطق سكلانس ! !

أو « وهل تسمح طبيعة الوجود بأن رجلاً كـ محمد يقضى سهراته . . . الخ » تسمح أو لا تسمح مادخل ذلك فى تقرير الحقائق العلمية ؟

مثل هذا الكلام يقال في أحاديث المجالس ولكنه لا يكتب على رعم أنه تحقيق علمي .  
ويقول في مكان آخر :

« وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للعرب بأن يدركوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة، فإنه « لا يصح » لنا أن نستنتج أنهم لم تكن لهم حياة أدبية مهمة تصور ميولهم وأذواقهم، وعواطفهم ومشاعرهم، وكفرهم وإيمانهم، ووفاءهم وغلرهم . . . » يصح أن نقول إنه لا حياة أدبية عندهم لأن الطريقة الوحيدة لمعرفة الحياة الأدبية هي الكتابة . فإذا لم توجد تلك الكتابة فالتاريخ لا تهمة القروض والصحة وعدمها - بل الأنكى من ذلك وأدعى إلى العجب أن يفتخر الأستاذ من ذلك ليقول :

« وإنما ينبغي أن نعتقد أنه كان لهم أدب قوى متين يقرب في روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه » .

لماذا ؟ لأنه لا يعقل أن لا يكون لهم أدب ؟ ! .

أم لأنه ليس لدينا نصوص تدل على تلك الحياة الأدبية وإذا يجب أن نعتقد أن هنالك حياة أدبية ! !

واقراً هذه القطعة المنطقية وأضحك في سرك من فضلك . لا الأستاذ لا يود أن يسمعك ، قال :

« والذي قضى به ابن فارس في نشأة النحو والعروض هو الذي نقضى به « نحن » في نشأة البديع . بل نشأة البديع أظهر وأوضح . فإن القرآن سجل مظهر من مظاهر التخريف وهو السجع - فهو إذاً كان موجوداً قبل الإسلام » .

بالمنطق وبالسرعة « إذا » . . . . إن الحقائق العلمية يا أستاذ زكى لا تخضع بمثل هذا الكلام الغريب ، فكون القرآن سجل مظهر من مظاهر السجع لا يدل بحال من الأحوال ولا يستلزم أن يكون موجوداً قبل الإسلام . ويمكننا على هذه الطريقة أن نقول لأن السجع وجد قبل الإسلام لا بد قد وجد في العصر الحجري ! ! .

و « أنا أرى » ولا يعقل « ولا » يصح « و » إذا « ألف من هذه الأشياء تذكر ولا تدل إلا على عكس المنطق والتحقيق العلمي ، ولا تقدم شبراً واحداً في البرهنة على نظرية واحدة إذا ، ولا يصح أن تدل ولا يعقل كما أرى أنا شخصياً .

## تكريم النبوغ \*

من أنخبار لبنان خبر ذلك الإحتفال العظيم بنشيع نعش الأديب جبران خليل جبران وإشتراك الشعب في ذلك الإحتفال والتقدير .

وهذه ظاهرة رفيعة في الشرق العربي ، فجبران لم يكن بالرجل الشعبي الذي تفهمه الجماهير حتى ولا عامة القراء من المشتريين في إقامة تمثاله ومشيعي نعشه .

فكائنات جبران ليست مما يسهل فهمها إلا لأخصر الخواص من الأدباء والمتأدين . فلقد كان الرجل حالماً لا يمشي برجليه على الأرض ولا يخاطب بقلبه مسائل اليوم والساعة . وإنما كان يخلق فوق الجماهير ، ولا يخاطب إلا أعماق حقائق الموت والحياة في تعبير هو غاية الشعر الرمزي . وهو لم يفكر حتى من خاصة الأدباء والمتأدين إلا بعد أن راجت مؤلفاته الإنجليزية في أوروبا وأمريكا وكتب عنه النقاد هناك .

فكيف أساغت الجماهير عظمة هذا العالم الخيالي الذي لم يكن يسكن دنيا الجماهير ولا يبعث بما ينالها من خير وشر — على الأقل في الظاهر ؟

لاشك أن تلك ظاهرة أقل ما يقال فيها أنها تؤذن بتيقظ في الشعور العام الشرقي وتدل دلالة بعيدة على تكريم النبوغ والاحتمال به بعد موته ! . وليس أكرم ولا أبعد دلالة في هذا التكريم من أنه موجه إلى رجل من رجالات الفنون الرفيعة التي ماتزال عبر مفهومه في الشرق أجمع .

وكثير من أولئك المشيعين والمحتفلين بحثمان الراحل العظيم ذلك الإحتفال . لم يقرأوا بخبر أن حرفاً واحداً ، ومنهم من قرأ ولم يفهم . وقليل هم الذين قرأوا وفهموا .

ولكن بعد ذلك كله فهم نبلاء . نبلاء لأنهم يكرمون عبقرياً تسامت فيه الحياة فأخرج ذلك الفن الذي لا يخطئ الناظر إليه طابع جبران بأي حال من الأحوال . سواء في رسومه أو في تعبيره وخیالاته الشعرية .

وأجمل من ذلك وأدل على التقدير أن تشترك الحكومة اللبنانية وحكومة الإنتداب رسمياً في تكريم الراحل ونشيع نعشه .

كل هذه ظواهر جميلة . وأجمل من ذلك كله أن تظهر هذه الظواهر في تقدير رجل كجبران . هو رجل فن قبل كل شيء . والفن غير مقدر لدى الشعوب سواء في الشرق أو في الغرب .

## غاندى \*

نشرت الصحف أخيراً خبر مقدم «المهاتما غاندى» إلى مصر فى طريقه إلى إنجلترا ليحضر مؤتمر المائدة المستديرة . ونود أن لا نمر زيارته «المهاتما غاندى» لهذا القطر مع السيدة الشاعرة «ساروجينو نايلو» من غير أن يكون لنا من ذلك أروع العبرة وأبلغ الدرس . فهذا الرجل الخزيل البنية العارى الجسم . له من الأثر فى العالم اليوم مالا يئاله إلا القليل من بنى البشر . لم تقتصر زعامة غاندى على الهند أو ما جاورها . بل تعدتها إلى أوروبا وأمريكا . فله غاندى « من الأتباع والمعجبين فى ألمانيا وأمريكا العدد الوافر . وكثير من الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى المسيح ويحجون إليه فى اعتد كما يحجون إلى بيت الله الحرام . ويعتبره كثير من كتاب الغرب من أعظم الرجال الذى ظهروا فى تاريخ العالم . أو أعظم رجل فى العالم اليوم بلا نزاع !

لم كان كل هذا التغير لذلك الرجل الضعيف المظهر العارى الجسم ؟ وأى شيء أقاله تلك المكانة الرفيعة فى قلوب أعدائه وصحبه على السواء ؟ وأغرب من كل ذلك وأدعى إلى دهشة القارئ أن يعلم أن «غاندى» يعينه فى حركة اللاعنونية فى محاربة الإستعمار الانجليزى . أصدقاء إنجليز هم أوفى الأصدقاء وأحب الناس إلى قلبه وأكثرهم له عبادة وحباً !

«غاندى» يغزو قلوب البشر لأنه مبشر بدين المحبة . وهو قوى لأنه لا يستعمل العنف . وهو رجل سياسى ناجح لأنه رجل مبادئ إنسانية قبل أن يكون سياسياً ، ومبادئه وأعماله وسلوكه شيء واحد . فأعماله تتبع مبادئه . وسياسته هى وفق آرائه فى الطبيعة البشرية . فهو يحيا ويفكر ويعمل حياة واحدة هى نتيجة إقتناع داخلى ومبادئ سامية .

ولقد كتب أخيراً تاريخ حياته بنمسه . وذكر فى تلك الحياة ما حدث له فى بساطة وماعمله هو فى صدق . فإذا عمل عملاً اقتنع هو بخطئه إعترف بذلك ، ولم يكتم بذلك الاعتراف بينه وبين نفسه . بل أعلنه للجمهور وأعلنه لأعدائه . فهذا الرجل لا يقول بأن الجماهير سوف لا تفهمنى . أو أن الحياة السياسية تستلزم منى أن أكذب ، أو على الأقل أن لا أصرح بأعدائى باخطائى وآرائى . وأن أساعدهم فى ساعة حاجتهم . ولكنه يجلب الجماهير والأعداء إليه فى عوالمه العالية ويقنعهم بوجهة نظره .

وعسى أن غاندى بلغ حسداً المبلغ الرفيع فى الحياة الإنسانية لأنه تعلم كيف ينظر



إلى ما يسمى « شخصيته » نظرة مجردة من الهوى كما ننظر نحن إلى نبات أو جماد . وإنه  
تمكن بواسطة ذلك أن يتسيطر على ميوله الذاتية . وأن يضبط عواطفه ويعامل ذلك الجسد  
الذى يسمى « هو » معاملة العالم لمواده البعيدة عنه فى حيدته تامة وضبط للنفس وتنقيب  
وراء الحق ؛ لأنه حق الخير البشر ودفع للإنسانية كلها لأن تحيا الحياة الكاملة المجردة من  
أهواء الجسد . وعوامل الأثرة . وغوايات الطمع . وتزوات الميول بين هرد وفرد وبين شعب  
وآخر .

نعم « إن ذلك من عمل الآلهة لامن عمل الخلائق الهالكين » !

## تشارلي شابلن وغاندى

جاء فى الأنباء التلفزيونية أن « تشارلي شابلن » حظى بمقابلة « غاندى » وقد تمت تلك « المقابلة الغريبة » فى المساء عند عودة « غاندى » من قصر « سان جيمس » كما تقول تلفزيونات « البلاغ » الأغر . وأن « تشارلي » كان يجلس بكل احترام إلى جانب « غاندى » المترج على الأرض وهو يتلو صلواته !

ولعل نمت تلك المقابلة « بالغريبة » يمثل شعور عامة الناس الذين يعرفون فى غاندى ذلك الزعيم السياسى . وذلك الرجل المتكشف . ويعرفون عن « تشارلي » ذلك الممثل الهزلى الذى يضحكهم ويسليهم بضروب فكاهاته !

ولعل الذين يعرفون « تشارلي » ( الرجل ) على حقيقته ويعرفون « غاندى » ( الرجل ) القديس لا يرون فى تلك المقابلة أقل غرابة . فليس شك أن تشارلي رجل عظيم وعنده من خصائص الروح والفكر ما يذنيه من « غاندى » ويتصل به عن قرب . فالمجابهة النفسانية بين « غاندى » ( الفنان القديس ) وبين « تشارلي » ( الفنان المفكر ) أعمق من كل تلك الظواهر . وأصح دلالة وأبعد مغزى من دلالة السياسة والتمثيل .

« تشارلي » ليس بأمر المضحكين فحسب . وإنما للرجل مشاركات كثيرة فى الفلسفة والموسيقى وشئون الفكر عامة . كما أنه رجل ذو قلب كبير وإحساس مفعم بالشعر والخيال . ولعل إجادته فى التمثيل الهزلى ماهى إلا ناحية من نواحي تلك الشخصية الكبيرة وذلك الروح العظيم . فلو لم يكن « تشارلي » ممثلاً عظيماً لكان شاعراً عظيماً أو موسيقياً نابهاً . أو لكان مجيداً فى غير تلك من الفنون والآداب !

و « غاندى » - فى أخص خصائصه - فنان بالسليقة ، وما يشتغله بالسياسة إلا حادث طارئ فى حياته . لعله كان يكون أعظم لو لم يتعرض لها . كما يعتقد طاعور - بل إن « غاندى » نفسه لم يكن يخل بالسياسة ولم يكن له أى ميل إلى الاشتغال بها كما يظهر ذلك واضحاً جلياً فى تاريخ حياته الذى كتبه بنفسه !

ورأى الناس فى تلك المقابلة عرابية لأهم يرون « غاندى » الزاهد فى متع الحياة ولذاتها . ويرون « تشارلي » متمسكاً بالحياة ضاحكاً لها ممثلاً لها وضاحكاً . وفاتهم أن حياة « تشارلي » مملوءة بالشحن والحزن والحنين إلى اللانهاية ، وأن تمثيله المضحك ما هو إلا « رجوع » ذلك الإحساس الحزين . وأن « غاندى » فى تقشفه وزهده من أشد الناس تفازلاً بالحياة واستمتاعاً

بها استمتاعاً لا يعرفه الكثيرون .

غير أن الناس يعتمدون على المظاهر فيما يصلحونه من أحكام وما يقررونه من آراء !

وأحسب أن مقابلة « تشارلي » لـ « غاندى » هي من أسعد المقابلات وأحضرها . وأن حديثهم تناول شيئاً خلاف السياسة وخلاف التمثيل ، وسيكون كل منهما سعيداً بمقابلة أخيه ، قرير العين برويته . فليس أسعد ولا أشد عزاء للإنسان من أن يقابل إنساناً آخر هو في مهنته بعيد عنه ، في روجه جد قريب !

## ساروجيني نايلو \*

حق لنا أن نقف هنيهة ونذكر - والصحف في هذه الأيام طافحة بأخبار زيارة « غاندي » ومؤتمر المائدة المستديرة - أن في رفقة امرأة هندية فاضلة ، هي الأخرى ستحضر مؤتمر المائدة المستديرة . نعم ستحضر مؤتمر المائدة المستديرة امرأة ، وامرأة هندية ! و ستساهم بنصيب وافر في تقرير مصير بلادها !

هذه المرأة الفاضلة هي السيدة « ساروجيني نايلو » الشاعرة والخطيبة والمجاهدة في سبيل تحرير بلادها ذلك الجهاد المعروف .

فهذه المرأة خطيبة من الطراز العالي ، تمتلك على الجمهور سمعه وبصره وتقوده أتي شاءت وهو أكثر ما يكون لها حماسة واقتياداً .

وهذه المرأة مفكرة مدبرة بصطفيتها « غاندي » من بين كل صحبه لتفود حركة العصيان المدني من بعده في حالة سجنه . فتؤدي تلك الأمانة أحسن أداء وتبلغ تلك الرسالة أبين بلاغ !

وهذه المرأة من بعد كل هذا شاعرة مجيدة الشاعرية ، إذا ذكر شعراء العالم في الوقت الحاضر كان اسمها في طليعة من يشاد بذكره .

وهذه المرأة قد احتملت آلام السجن ونصب النضال والجهاد الذي لا يطيغه كثير من الرجال .

فإذا ذكرنا كل هذا ، فليقف القارئ ويذكر أن في مصر أناساً يعادون تعليم المرأة ويحرمون عليها الإختلاط بالرجال في معاهد الثقافة ودور التعليم ، ويبعدون تلك المعاهد إذا هي تأسست وقرغ من تأسيسها ، وبذلك يقضي على كل أمل في أن تنجب مصر امرأة كالسيدة « نايلو » !

هذه المرأة سوف تجلس جنباً لجنب مع مولاي « شوكت علي » في مؤتمر المائدة المستديرة ! فما رأيه في ذلك ؟ وهل هي إلا امرأة ؟ ! فكيف أبيع لها أن تقرر وتناقش وتتأصل فضلاً عن الإختلاط في معاهد العلم وحلقات الدراسة ؟ إن البلاد تكون عظيمة بنسائها عظمتهن برجلها .

هذه بدينية ولكنها محتاج في مصر إلى تقرير ! وما أحوجتنا في هذا البلد إلى تقرير البدينيات !

إن قصة المرأة في الشعر والتشيل وبقية الفنون وفي نهضات الشعوب وفي ميادين الحروب قصة معروفة مشهورة ؟ فهل يتأني كل ذلك من غير احترام المرأة واستقلالها وحسن النظر بها ؟ كلا وماهنا حاجة لأن نقول كلا !

ففي الهند « نايدو » وحوالها رهط كريم من فضليات النساء .

وفي تركيا « خالدة أديب » وأترابها تكتب الكتب وتمتطي صهوة الجواد وتعمل مالا يمله كبار الجنود !

ولقد قرأت أخيراً كتاباً لمؤلفة تركية حديثة اسمها « سلمى أكرم » كتبه بلغة إنجليزية فصيحة تقص فيه تاريخ حياتها الذي هو تاريخ حركة تحرير المرأة في تلك البلاد الشرقية في صراحة فادرة ، وفكر حصيف . وجمال في الأداء والتفكير ، مما أطلق ألسنة نقاد الأدب في الغرب بالثناء عليها ومدح كتابها وعده من أحسن ما أخرجت المطابع من تراجم في هذا العام !

كل هذه الحوادث تحصل حوالينا وفي بلاد شرقية ونحن ما نزال نتحدث عن اختلاط الجنسين - في دور التعليم - كفكرة جديدة « إباحية لا يصح التسليم بها ! !

## شخصية غاندى من خطه \*

شاهد القراء مما نشرته الصحف خط « المهاتما غاندى » وخط السيدة « ساروجينى نايدو » فيما كتباه من تحيات وأمان للشعب المصرى المجيد .

ونود أن نشرك القراء بهذه المناسبة فى حديث « الخط » ودلالته على الشخصية .

يزعم بعض الباحثين أن للخط دلالة كبيرة فى معارف الخلق وسمات الشخصية غير أنهم يختلفون فى درجة تلك الدلالة وصحتها على الدوام . فعما لاشك فيه أن لخط اليد دلالة كبرى على خلق الإنسان وشخصيته . حتى أن لدى بعض الشركات والمصارف الكبرى رجالاً أخصائيين فى فحص خطوط طالبي الوظائف وتعرف خلقهم وسماتهم ومتجه سلوكهم .

وفكرة الشخصية فكرة يهتم بها علماء النفس فى هذه الأيام . كثيراً . ويولونها كبير عنايتهم ويبحثهم .

فالبعض ينقب عن « الشخصية » فى لون الشعر ، والبعض الآخر فى شكل العيون ومعالم الوجه وشكل الجمجمة ، وآخرون يقتنعونها فى هندام الرجل وطريقة مشيته ونحيته وصوته إلى آخر الخصائص والشيآت التى تزخر بها الكتب التى كتبت فى هذا الموضوع .

وعندى أن أولئك العلماء الذين يولون خط الإنسان عنايتهم الكبرى فى تعرف الشخصية هم أقرب الباحثين إلى الصواب . وأدنى إلى إصابة هدفهم . وأنت لا يمكنك أن تجد ذلك الرجل الذى يستطيع التزوير فى خطه . حتى فى محاولته التزوير تظهر خطوط شخصيته واضحة جلية ليس إلى إخفائها من سبيل .

ولقد قرأت كتاباً جديداً فى هذا الموضوع . وقعت بتجارب كثيرة لتطبيق تلك النظريات فى خطوط أناس لا أعرفهم . فكنت أصيب دوماً فى تعرف خصائص تلك الشخصية أو أقرب من الصواب .

والذين شاهدوا خط غاندى كما شاهدت لا بد أن يستعجوا منه بساطة ذلك الخط وقربه من خط صبية المدارس ؛ وفى ذلك دلالة واسعة على بساطة خلق غاندى بساطة تقرب من بساطة الأطفال فى براءتها وطيبتها . كما أن لخلوه من الزركشة والأناقة معنى آخر نجد له صدى فى خلقه وسلوكه ، وفى انحنائه قليلاً إلى الراء معنى من معاني قوة الإرادة والثبات . وفى خط الشاعرة « نايدو » نجد الأناقة والجمال والبقة ، كما نجد فى إلتواء بعض

حروفها لوناً من ألوان الخيال المكبوح . وفي تفكك حروفها بعضها عن بعض معنى من معاني الصبر والثبات ، كما أن في عمق حروف ابتداء كلماتها وامتلائها بالخبر وتمكن الخطوط المقاطعة وتأكيدها وطولها دلالة على القصد والتأكيد والتثبت من الأمور ، وفي بعد كل كلمة عن الأخرى معنى من معاني الأريحية وكرم الروح والنفس !

ونجعلها في مجموعه خط فنان لا يخطئه القارئ في دقته ونظام حروفه وأريحيته !

## استقالة وزير .

عرف القراء مما نشرته الصحف أن من بين أعضاء الوزارة الإنجليزية ثلاثة من العمال من بينهم مستر «توماس» الذى كان يرأس الإتحاد القومى لعمال السكة الحديدية. والذين قرأوا خبر إستقالته من ذلك الإتحاد ثم قرأوا خطاب إستقالته وماتضمنه من نغمة نبيلة لا بد أن يكونوا قد استوقفهم ذلك الخلق النبيل وتلك الثقافة الرفيعة .

فهذا الوزير الذى يستقيل — أو يضطر إلى الإستقالة — من رئاسة ذلك الإتحاد الذى ظل يعمل فيه منذ عام ١٩١٥ — هو مثال الشهامة والتضحية وكرم الأخلاق . وفى قصة إستقالته درس بليغ لنا نحن معشر الشرقيين عامة وللمشتغلين بالسياسة والأحزاب السياسية فى مصر خاصة .

وهذا الوزير يرغم على الإستقالة من منصبه فيستقيل فى ظروف دقيق . وكان يستطيع بما له من حق أن يستأنف قرار الهيئة التنفيذية لإتحاد العمال ؛ ولكنه لم يعمل خوفاً على الحزب من الإنشقاق والتصدع أو ماهو شر من الإنشقاق والتصدع .

وقد كان يبكى وهو يسلم خطاب إستقالته ، ويعتقد أن تلك الإستقالة «هى آلم حوادث حياته وأحزها فى مؤاده» .

فالاختلاف كان جوهرىاً بينه وبين الهيئة التنفيذية مما جعل العمل سوياً أمراً متعذراً . فترك كل منهما الآخر فى إحترام متبادل وحزن عميق لمنطق الحوادث وعجزاتها !

ويعتقد مستر «توماس» أن إستقالته من الوزارة القومية بالحديدية — التى قبل العمل فيها عن إقتناع شخصى — بعد جبناً منه وضعفاً ينأى بنفسه عنه . وهو يعتقد أنه بانغراطه فى سلك الوزارة الحديدية يؤدى أحسن الخدمات لعمال السكة الحديدية الذين أحبه وأحبه ، كما أنه يؤدى واجباً قومياً يشعر من أعماق ضميره بأنه يناديه ، ولقد قال «ابتدأت عاملاً صغيراً أنظف القاطرة وأنا لم أبلغ الحادية عشر من عمرى . وكنت طيلة تلك المدة عاملاً مخلصاً وخداماً للإتحاد أميناً . فإذا اضطرت أن أترك الإتحاد اليوم رسماً فإننى سأذكر دوماً تلك الثقة العالية التى أولاتها عمال السكة الحديدية وإتحادها ، وسأكثر تلك الذكرى فخراً عشت من أجله وهى بذلك جد جذيرة ، كما أننى مقتنع بأن التاريخ سوف يبرر عملى القومى هذا وينصف تصرفاتى . »

المخلص لكم

ج . هـ . توماس



هذا ماكتبه ذلك الوزير العامل في خطاب إستقالته الجليل ! .

أرأيت كيف يترك الإنسان حزباً ؟ أرأيت النبيل في المعاطفة والرجولة في تقرير الأمور تتمترج بترعة إنسانية شجية وخلق صميم ينأى بالرجل عن مفاصل المتازعات وتفاهاتها ؟

فهذا الرجل العامل - الوزير الخالي - يضطر إلى الإستقالة فلا يدمدم ولا يشنع ولا يستفد ولا يكابر، بل يحل مكان كل ذلك النبيل وكرم الروح ومعة الصدر والتسامح والإخاء والثقافة الصحيحة .

فلتعلم هذا الدرس النبيل من ذلك العامل الصميم ؟ .

## نحن وجائزة نوبل

فى بلاغ أمس الأول كلمة بعنوان «غاندى وجائزة نوبل» علق فيها المكاتب على الخبر القائل بمنح «غاندى» جائزة «نوبل» للسلام .

وقد وقف المكاتب يستعرض رجال الهند الذين حازوا جائزة نوبل كل منهم فى ميدانه مثل «بوز» و «طاغور» ثم قال :

« ولكن لماذا تحرز الهند وغير الهند جوائز «نوبل» ولا تحرز نحن شيئاً منها ؟ هذا هو ما يجب أن يتناقله القارىء المصرى ويتعرف أسبابه ، لأن حرماننا من هذه الجائزة ظاهرة تدل على نقص فى اجتماعنا وأدبنا ولغتنا وعلومنا . . . فحرماننا منها حكم سىء علينا ! ! » .

وإنه كذلك . نعم إنه لحكم سىء علينا وسىء جداً ، لا لأتينا لم نحرز على جائزة «نوبل» فقط ، ولكن لأن علمنا وأدبنا لا يكاد يكون له أثر أو صدى بين أمم أوروبا والعالم أجمع ؟ ولم يسمع للآن بشيء اسمه أدب مصرى مع كثرة صحفنا وحديثنا عن الأدب وملء أعمدة صحفنا بما يسمى أدبا وثقافة وفنا !

والذنب ليس ذنب البيئة المصرية كما أراد بعض الكتاب أن يظن . ولا هو عدم احتفال الشعوب الأخرى بمنتجاتنا . أو إحتقارها لنا كما يظن البعض الآخر . وإنما العيب عينا والنقص نقصنا وما ندعوه بإسم الأدب والفن ونملأ به أعمدة الصحف والمجلات برىء من الأدب والفن . والإجذاب إنما هو لإجذاب من يتصدون للأدب والفن . والعقم إنما هو عقمهم . فلم «تال» مصر جائزة «نوبل» فى الأدب أو غير الأدب إذا كان كل أدبنا محصوراً فى الكلام عن إبن حزم أو من شاكل إبن حزم . وكل صفحات جرائدنا الكبرى مكتظة بالبحث عن الخطيئة أو الأدب الجاهل ، أو «إرم ذات العماد» أو «نظرية تنقل الشعر فى القبائل» أو «لقد جدت الحرب بكم فجعلوا» أو «إن كنت ربيعاً فقد لاقت إعصاراً» وأمثال هاته الأبحاث التى لو عشر بها المؤرخون بعد مائة عام لا تخلط عليهم معرفة العصر الذى يؤرخون وحسبوا هذا العصر العصر الجاهل أو صدر الإسلام !

لم نولى العصور العربية الدراسة وكل هذه العناية ، ونكسب عن صفائر الأمور فيها ونترك ما هو أولى بالبحث والدرس والعناية ؟ !

من سمع أن صحف إنجلترا المعاصرة لا حديث لها الآن إلا عن هومر وكيف كتب

إلباذته . أو ان مجهوداتها الأدبية مقصورة على الكتابة عن «نشوس» و «سبنسر» و «الحي» !  
ويقينى لو أن هذا حدث من بعض كتاب الغرب لحسبهم الجمهور القارىء يهزلون  
ولا يجدون ، ولضحك منهم وسخر . ولكن ذلك لم يحدث ولن يحدث طاماً كان لأدباء  
الغرب حاسة الفكاهة والاذتران التى تنأى بهم عن مثل تلك السخافات وتدفع بهم لأن  
يولوا شؤون عصرهم عنايتهم كلها فيصوروا حياتهم ومضطرب أهواتهم ومشاكل  
مدينتهم !

إن هذا الذى نسميه أدباً عندنا يسمى تبطلاً فى الغرب ! وإن هذا الذى تزخر به  
صحافتنا الأدبية السبارة لا يمكن أن ينشر إلا فى كتب المستشرقين وسجلات البحوث  
المقتصرة على اللوائح التاريخية العلمية . وبعد هذه الأشياء عن الأدب الحى هو بعد التجارة  
عن الشعر !

أبعد كل هذا يحق لنا أن نسأل لماذا لم تنل مصر جائزة « نوبل » ؟ ! ! ؟

## هل من موطن للأدب ؟

نشر أديب فاضل في « بلاغ » أمس الأول مقالا أسماه « هل نعيش في الأدب على موائد الغرب إلى الأبد ؟ » عرض فيه لإعجاب الأدباء في مصر بالأدب الغربي ، ثم قال إن ذلك الأدب مبيد لروح الإستقلال والخلق في مصر ، وإن الإعجاب به هو إعجاب « أعمى » وأثار بذلك مسألة الأخذ عن الثقافة الغربية وكيف أننا نختلف عن الغربيين في المناخ والتقاليد إلى آخر الأسباب المعروفة .

والذي إستوقفنا في ذلك المقال نغمة خطيرة وفكرة خاطئة نود أن نصصح النظر إليها ، وأن نفهم المسألة على وجهها الصحيح .

فإذا سأل سائل كما سأل الأديب الفاضل « هل نعيش على موائد الأدب الغربي إلى الأبد ؟ » كان جوابنا كلا ! ولا يمكن أن يكون غير ذلك جوابا .

ولكننا نسأل الكاتب الفاضل الذي أروعنا بالحديث عن الخطيئة وأمثاله من الشعراء « هل نعيش على أدب العرب إلى الأبد ؟ » . ذلك ما أود الجواب عليه !

وليفهم حضرة الكاتب الفاضل أن الحديث عن الأدب الغربي وفصله عن كل أدب وثقافة ، هو حديث سطحي لا يدل على علم ولا بصيرة بحقيقة الأمور .

فليست هنالك حضارة غربية محضة أولاً ، ثم حضارة شرقية خالصة ثانياً . وليس من السهل أن نتكلم في شؤون الفكر والفن فنقول هذا لهذا وهذا لذلك ! !

وإنما الثقافة تراث إنساني ليس لانجلترا أو النمسا أو الصين أن تستأثر به وتقول للأخذ منه « هذا لي وليس لك فيه أى حق » .

وأقل إلزام بتاريخ الفكر وتيارات الثقافة الإنسانية يدعم ما نقول . فما نسميه الآن ثقافة غربية هو في الأصل وواقع الأمر ليس كذلك ، وإنما هو ثقافة إنسانية ساهم فيها الشرق والغرب وإشتركت فيها جميع الديانات والآداب والفلسفات والفنون .

والثقافة الغربية وبالتالي الأدب الغربي هو نتاج للفكر « الهليني » والإحساس العبرى والأديان الشرقية والعلوم والفلسفات العربية والهندية الخ .

فأنت ترى من هذا أن لكل شعب مشاركة في ما يسمى ثقافة غربية وأدباً غريباً . وأنه من حقنا نحن في مصر أن نطلع على الأدب الإنجليزي أو الألماني وننتفع به في حضرة قوانا الفكرية كما تأخذ إيطاليا أو فرنسا من الثقافة الانجلوسكسونية أو من المدين الشرقى

من غير أن تشعر أى واحدة منهما أنها تستعير ، أو أنها عائشة على موائد الغير .  
والثقافة حق مشاع ، وليس لاي شعب أن يستأثر بها . وهي حق الإنسان وحق الإنسانية وصلت اليه بعد تاريخ طويل من التضحيات وقبام مدنيات وانهباء أخرى .  
فلذا فرغنا من هذا الذي نقرر وددنا أن ننتقل إلى فكرة أخرى بديهة ولكنها في مصر تحتاج إلى تعزيز وإثبات ! وهي أن الآداب في أى أمة من الأمم لا تمتنعش ولا تنمر إلا تحت تأثير ثقافة أجنبية تحفزها . هذا ما حصل في العصر العباسي ، وما حصل في عصر النهضة الأوروبية ، وما يحصل كل يوم بين كل الشعوب . وهو ما يحصل في مصر الآن وما نود أن يحصل بصورة أتم وأجلى .  
فإن الأدب الغربي هو خلاصة جهاد طويل وثقافات متعددة عمل فيها الصقل وأنضجها الزمن وزكاها التاريخ . « فليس غريبا أن نتغذى بما فيه من ثقافة وتهذيب » كما يقول المكاتب ، ولكن الغريب كل الغريب أن لا نفعل !

## نزع السلاح .

عادت الصحف الأوروبية تتكلم عن مؤتمر نزع السلاح وضرورة الإهتمام به بعد أن رأى العالم نتيجة الحرب الماضية تتجسم في أزمة مخيفة ، وبوادر حروب جديدة . واستنفاد الخزائن القومية في معدات الحرب وآلات القتال المختلفة مع فقر هذه الأمم وحاجتها إلى المال تصرفه في غير هذه الشؤون ، وغير تلك المرافق .

والذي نعجب له في هذه الحركة أن الحروب لا يمكن أن توقف بهذه الطريقة السلبية . وأن السلام لا يمكن أن يكون أساسه التخوف والخير والإتفاق على إنقاص المعدات الحربية مما يجعل كل أمة تتوجس شراً - في سرها - من الأخرى ، فتلجأ إلى الممالة والنفاق والتسلح الخفي . وكلما ألحت أمة من الأمم في ضرورة نزع السلاح أو تخفيضه زاد الشك في نفوس الأمم الأخرى ، وتنبهت إلى الخطر الذي يحيط بها أو توهمته كذلك .

وهذا ما حصل بالضبط قبل نشوب الحرب العالمية الكبرى . فلقد كانوا يتفاوضون بين كل حين وآخر في ضرورة إيقاف التسليح ، بينما كانوا يعملون سراً في بناء السفن وإعداد المعدات الحربية . وأخيراً لم نجد تلك المفاوضات شيئاً في إحماد روح الحرب والضغائن الكامنة ، فنشبت الحرب . . . . إلى آخر القصة ! .

وأغرب من ذلك وأدعى إلى الدهشة أن الأمم المتنادية بنزع السلاح كقادمة للسلاام العالمي . تعمل في تمجيد أبطال حروبها ، وتعلم ناشئها التاريخ من وجهة قومية ضيقة . وثبت فيهم روح القومية . ولا تتورع من تغيير الوقائع وطمس الحقائق لمثل هذه الأغراض . ثم سمع الساسة والكتاب يتكلمون بكل فصاحة عن السلام والإخاء العالمي !!

ومحال أن يكون هنالك سلام أو إخاء عالمي بهذه الطرق وأشباهها ، وإنما السلام يكون بنزع الضغائن لا بنزع السلاح . والإخاء يكون بعد إبادة روح الجشع والأثرة والاستعمار وما إليه من الصفات الروحية قبل أن يكون مسألة آلية يمكن حصرها ونزعها . وكل جهد من هذا القبيل جهد ولائك ضائع !

وطالما بقيت الدوافع النفسانية التي تدفع بالأمم إلى الحرب . وطالما بقيت الأحلام القومية وحب السيادة والجنس المال وما إليه من صفات الأثرة متأصلة في نفوس الأمم فلا سلام ولا إخاء ولا تقدم عالمي . وستبقى الحروب وستبقى الأزمات الاقتصادية والويلات

العالمية - وربما كانت كارثة الحضارة كلها - إلا إذا رجعت الأمم إلى نفسها وعرفت  
أن رخاء جاراتها وسلمها هو رخاء لها وسلام عليها . بذلك وحده تتحقق أمانة العالم في  
السلام والتقدم المضطرب . والحضارة الثابتة !

## أديسون \*

جاءت الأنباء التلغرافية منبثة أن « أديسون » - كبير مخترعى العصر - قد فارق الحياة بعد أن ازدادت عليه الآلام وألح عليه الداء .

ويود أن لا يرحل رجل مثل « أديسون » من غير أن يكون لنا فى حياته وفى رحيله أبلغ الدرس وأوفر .

فهذا الرجل قد عاش طيلة حياته للإنسانية - وحياته كلها نصحية واحدة كبيرة ، فهو لم يعرف ما هى مسرات الحياة وملذات الحواس بل كان يعيش فى مخبره الخير الإنسانية وسعادة النوع .

بل هو لم يعرف النوم كما تعرفه بقية الأحياء . فلقد كان يسهر الليل كله ، وربما ظل يعمل الليل والنهار إلى أن يهجم عليه النوم هجوماً ، فيستريح إلى غفوة هادئة يقوم بعدها مستأنها عمله . و « أديسون » هو القائل إن النجاح فى الحياة ٩٩ فى المائة « عرق » - كناية عن الجهد والتعب - و ١ فى المائة « وحي » كناية عن الذكاء والعبقرية .

ولقد برهنت متجذراته على صدق زعمه ، فهو قد عاش طيلة عمره الطويل و « العرق » يتصب من جبينه . لم يكمل ولم يعمل ، فأثني بتلك المدهشات وأحصيت مخترعاته فجاءت بالآلاف !

وفى « أديسون » ولاشك يتمثل مبدأ « الإيمان بالواجب » .

والأعما الذى يدعو إنساناً كـ « أديسون » ليكرس كل حياته لخدمة الإنسانية ، وليحرم على نفسه لذات النفس البريئة ومتع الحياة والأهواء ؟

هذا هو الإيمان بالواجب فى أعلى مظاهره . يتجسم طوراً فى أعمال رجال الفنون والآداب . وطوراً فى دعاة الوطنية والسلام ، وفى أهمال المكتشفين والمخترعين ، وفى غير هذه من نواحي النشاط البشرى .

هذا هو الإيمان بالواجب الذى غنى أغنيته « جويسب ماترينى » فى إيطاليا فى كتابه الفذ « واجبات الإنسان » .

وهذا هو الإيمان بالواجب الذى حين يؤديه الإنسان يموت وهو يشعر بأنه قد ترك العالم وهو أحسن مما دخله . وأنه قد إشتراك فى تشييد الحضارة والثقافة « بوضع حجر » فى هبكل ذلك البناء الخالد .

وذلك خير عزاء باقى فى عالم لابقاء فيه ولائبات .



## الجامعة المصرية :

قرأت في « بلاغ » أمس كلمة عن الجامعة المصرية وجهها الكاتب لتقد قسم الدكتوراه في كلية الحقوق وفقدان النشاط العقلي والإنتاج الفكري في ذلك القسم . وكيف أن « الكلية قد افتعلت ذلك القسم إفتعالات » وكيف أن الكلية قد بدأت تحس بالسامة والملل من ذلك القسم إلى آخر ما جاء في كلمته .

والذي فلاحظه في الجامعة المصرية بوجه عام أنها يتقصها أهم مميزات الجامعات وخصائص « الروح الجامعي » ولو أن لها مظاهر الجامعات الكبرى وازديادها . لكن ذلك كله لم يتعد المظاهر الخارجية . فهي تستخدم كبار الأساتذة وتدفع لهم المرتبات الضخمة من غير أن ينفع الطلاب بثقافة هؤلاء الأساتذة . ولأن تهيب الجامعة لهم سبيل ذلك الإقتطاع والاختلاط .

وكل مهمة هؤلاء الأساتذة أن يلقوا كذا من الدروس كل في مادته الخاصة . وليس يعيهم بعد ذلك أن ينفع الطلاب بهذا الذي يلقى أم لم ينتفعوا ! ! ثم يذهب أولئك الطلبة كل منهم إلى منزله الخاص . فلا اختلاط متين بينهم وبين الأساتذة . ولامباقيات في ما بين الدروس . وأخذ ورد بشحد الثبكر ويدفع به إلى التمهيع والتحقيق .

وكل واجبات الطالب أن يحضر كذا من المواد في السنة . وأن ينجح في « ورقة » الإمتحان النهائي وفيما بين ذلك ليفعل ما يشاء فلا رقيب ولا واجبات ولا نظم جامعي ! فإذا كان ذلك كل ما فهمه الطلاب من فكرة الجامعة فإنها لفكرة خاطئة لانعرف كيف تفوت على من يهمهم شأن الجامعة .

وليس بنا حاجة لأن نقول إن الجامعة « وسط » قبل أن تكون معهداً لتفقي المعارف والعلوم . وإنما « مؤسسة » تشير إلى مجهودات الأمم الفكرية وخصائص عبقريتها . وتنتج لها من الشبان من يشيرون إلى أنبل وأعرق خصائص تلك الأمة ومنتجاتها الفكرية ومساهمها في الحضارة العالمية .

وليس قصارها أن تمنح كذا وكذا من الشهادات وأن تلقى فيها الدروس على هذه الطريقة « الاسكولاستكية » العتيقة .

والسبب في كل هذا الإرتباك والمعد عن جادة الصواب مرجعه إلى حب مظاهر

الأشياء دون بواطنها وحميمها .

والهوة بين الطلاب وهؤلاء الأساتذة واسعة عميقة ؛ فقد حدثني صديق لي يعرف الأستاذ « دوبريه » أن هذا الأستاذ كان يضطر لشرح الكلمات الانجليزية البسيطة للطلبة وهو يحاضرهم في الأدب وفلسفة الدراما .

فإذا لم تنجح الجامعة المصرية في إحياء « الجو الجامعي » بمعناه الكامل الشامل كذا هو معروف في الجامعات الغربية كانت كل مجهوداتها عبثاً لا يستحق عنه .

## تحديد النسل \*

أثار يا حث إجتماعى منذ أيام مسألة تحديد النسل على صفحات هذه الجريدة التى علفت عليها بتخطئة الفكرة لأسباب عدة .

وقد عادت الصحف تلهج بالمسألة . واستطلع صاحب مجلة المصور الإجتماعية رأى سمو الأمير الجليل «عمر طوسون» فى موضوع تقليل النسل الذى يدعو إليه بعض المفكرين كما تقول جريدة البلاغ ، وكان رد الأمير بلاشك ضد هذه الفكرة الخاطئة التى لا مبرر لها . ونقول : خاطئة لا مبرر لها ، لأننا لا نعرف علام يستند الداعون إليها . أيستندون على علم «اليوجنكس» وهو لا يقول : بتقليل النسل ، وإنما يقول بتحسينه . أم يعتقدون أن مسألة البطالة وما إليها من الأزمات الاقتصادية يمكن أن تحل بمثل هذه الفكرة الغريبة ؟

إن مسألة البطالة وما إليها من المسائل الاقتصادية مرجعها — فى صميم الأمر — إلى النزاع الدائم بين أصحاب رؤوس المال وبين العمال . وكلما تفاهم رجال العمل ورجال المال واقترب كل منهم إلى الآخر مؤثراً مصلحة الأمة على مصلحته الذاتية وكان التعاون اساس تلك العلاقة ، لا المنافسة ولا الخوف ولا الحسنة . حصل الوفاق وكان النظام الإجتماعى على ما يجب له طلاب السلام ودعاة الخير الإجتماعى .

ومهما يكن من أمر فليس فى تقليل النسل — بقصد التقليل — أى مبرر . بل له كل الخطر وكل الأذى فى كيان الأمة كجسم حى نام .

وقد أتاحت لى هذه الفرصة أن أقول إن فكرة «تحسين النسل» بمنع الضعفاء والفقراء من التناسل فكرة هى الأخرى خاطئة لاتصيب لها من الصحة والسداد إذ أن فكرة التقدم فكرة «إجتماعية» قبل أن تكون فكرة «بيولوجية» .

فإن الخطرات التى تخطوها الأمم فى سبيل المجد والحضارة تكون كذلك بمجهود النخبة الممتازة من أبنائها لا بأنقراض العجزة والضعفاء .

ولبعض الناس — ممن تبدو عليهم صفات العجز والمرض والضعف الظاهر — صفات أخرى لاتبدو للعيان ولا سبيل إلى «اليوجنكس» أن يتحقق منها مثل صفات الأمانة والصدق والشاعرية .

فليس عظماء الرجال — ممن أنجبهم الإنسانية — بأقوى الناس وأصحبهم أبداناً وأقدرهم على سبل العيش ومكافحة الأمراض .

إن فكرة تحسين النسل أو تقليله فكرة بعيدة عن الصواب خاطئة من الأساس

## موت من وفرة الحياة !

نشر « البلاغ » الأغر أمس الأول صورة ذلك المشهد البليغ ، مشهد جنازة الطيارين  
الفرنسيين « لوبرين » و « ميمان »

والقارئ لابد واقف أمام ذلك المنظر المهيب . يشع عينه من صورة الجمهور المحتشد  
في سكون وخشوع . ويحدث نفسه بقصة البطولة وبأحداث الحياة الثمينة وبمعاني المخاطرة  
ودلائها على وفرة الحياة وحفظها من العيش والبقاء !

فهذان الطياران قتلا في حادث طيران وما كان أغناهما عن الطيران ومخاطره  
وموته المنتظر !

لكنهما قتلا بعد أن عاشا كل دقيقة واستمتعا بقوة الحياة كل لحظة . وبلغا مالا  
يلفه الرجل الوداع الآمن العائش عشرات الأعوام .

وهذان البطلان قد قتلا لأنهما أحبا الحياة . وهما في موتها نفسه دليل قوى على  
غلبة الحياة على الموت ، لأنهما كانا يعيشان حياتهما بوسائل « الموت » فتعود حياتهما  
بنسلك أملأ وأقوى ما يكون عيش وتكون حياة .

ولأنهما كانا يحاطران كل يوم فهما قد عرفا قيمة الحياة ونعمة الوجود . وعرفا  
لذة الظفر والفتح بعد أكفهرار الجحود ودواعي الهلاك والدمار !

فهما أحبا المخاطرة لأنهما لم يحتفلا بالحياة . بل لأنهما احتفلا بها واهتما لها أشد  
ما يكون إحتفال وأقوى ما يكون إهتمام ! فإذا أكرمهم ذلك الجمهور الخاشع الذاكر  
للبطولة فإنما يكرم غلبة الحياة على الموت وحب العيش والوجود حينما يذكر الناس  
المخاطرة وحب الموت !

وأحسب أن موتها نفسه ماهو إلا صفة قوية في وجه الموت ودليل محسوس على  
أنهما « ماتا » من وفرة الحياة !

فلتب منازلنا على فوهة بركان لكي نعيش ولكي نميت !

## عبقرية متعددة النواحي ١

نجاه فى « الليبرتية » أن « جبرائيل داننزيو » - شاعر إيطاليا الأكبر - قد نصحه الأطباء أن لا يقرأ وأن لا يكتب خوفاً على عينه الأخرى - ذلك لأنه قد فقد إحدى عينيه أثناء الحرب - أن يزداد عليها الألم والضعف فيصبح مكفوف البصر . غير أن قوة الخلق والكتابة المستحوذة على كيانه لم تستطع الصبر على أوامر الأطباء وشروط الصحة ، وابتدأ يكتب على الآلة الكاتبة !

وفى هذا المثل دليل محسوس على أن ملكة الكتابة والخلق قوة خفية تمتلك على الإنسان كيانه وتستحوذ على لبه وذهنه فلا يستطيع عنها إنصرافاً ، ولا يد من منفذ لتلك القوة تنساب فيه وقولب من الفن والكلم تنصب فيها وتتخذ أشكالها !

وحبوبة « داننزيو » تكاد تكون خارقة للعادة ، فليس هذا الرجل شاعراً فحسب وإنما هو جندي مجيد كسب لوطنه معارك عدة آخرها واقعة « فيوم » المشهورة ، وهو نبى وطني مشهور يذكر القارىء بمواطنه العظيم « ماترينى » . وهو قصصى مجيد - له أسلوب يتفرد به ويشير عليه - وهو ذلك المؤلف المسرحى الذى شيد المسرح الإيطالى اخديث . وهو من بعد ذلك كله « رجل » فى أملأ معاني هذه الكلمة دلالة . وعجب يتبع العالم القارىء قصص حبه الكثيرة بشغف واهتمام .

هو كل هذا وأكثر من هذا !

« جبرائيل داننزيو » ! كأن هذا الاسم لا يشير إلى رجل واحد بل إلى عدة رجال . ولا يعنى فناً بعينه وإنما يعنى « لجنة » من رجال الفن والثقافة !

وهو فى كل هذا وذاك دليل النشاط الوافر الحيوية ، ودليل العبقرية المتعددة النواحي ، ودليل قوة الحياة الكامنة فى فرد واحد ، وهى القوة التى لو قسمت على عشرة أفراد لعادوا بعد ذلك أحياء أقوياء .

ونحن ندعو لشاعر إيطاليا وفخرها بجلاء النظر وطول البقاء ليستمتع ناظره بمشاهد الحياة التى أحبها ، ولكى يتبع فى مختلف نواحي نشاطها ، البديع الموفق . الرائع والجليل .

## الترجمة إلى الأدب العربي .

أعجبني مقال الصديق إبراهيم المصري عن الترجمة والخلق في « بلاغ » الأمس .  
والقراء لا بد ذاكرون تلك الحملة على الترجمة يوم أن ردونا على أحدهم قائلين أن لانهاوض  
لأدب أمة من الأمم ما لم يلهب إحساسها ويحدد من نشاطها أدب أجنبي .

وقد أستمروا أولئك النفر في حملتهم يقللون من شأن الترجمة . ويوهمون البسطاء  
أن لنا منها تراثاً كبيراً فكان رد الصديق جامعاً شاملاً صادقاً .

ونود أن نؤكد ناحية واحدة وهي أننا لم نترجم إلى العربية حتى الآن شيئاً من  
مخلفات الأمم التي ترجمت إلى جميع اللغات واعتبرها العالم كله تراثاً إنسانياً وأطلق  
عليها إسم « الكلاسيك » .

هل عندنا ترجمة « ماركس أوريلوس » و « ايكوتس » من الفلاسفة القدماء . هل  
ترجمنا أعمال « جيون » و « ليفي » و « كارليل » التاريخية ! هل نقلنا في الدراما الإغريقية  
أعمال « سوفوكليس » و « أرسطافيس » و « أريبيدس » .

هل نقلنا في الرواية أعمال « دكتور » و « تاكري » و « فلوير » و « دستوفسكي »  
و « توسوي » و « لثراك » .

وأيّن مخلفات « جولدميث » و « شريدان » و « ابسن » و « سترندبرج »  
و « مايترفلث » و « شو » في العربية ؟

وهل ترجمنا « شلي » و « وردزورت » و « كينس » و « مرلين » و « الفريد دي  
موسيه » و « لامارتين » و « هايني » و « جيته » من الشعراء . مع أن هؤلاء هم شعراء  
العالم . وأيّن هي الكتب العلمية التي ترجمنا ؟

إن هذه الأسماء التي ذكرناها هي أسماء المفكرين والكتاب في العالم أجمع . وقد  
ترجمت آثارهم إلى كل اللغات العالمية منذ زمن بعيد . وأصبح أبناء تلك الأمم ينظرون  
إليهم كما ينظرون إلى ممتلكاتهم الخاصة .

فهل يحق لنا أن نتكلم عن الترجمة ونحن لم نترجم بعد الأعمال الإنسانية الخالدة  
التي ترجمت إلى جميع لغات العالم ماعدا العربية مع شهرتها وكثرة المالك التي تتكلمها  
ودعوى أبنائها أنها أحسن اللغات وأعظمها أدباً !

هذا فضلاً عن المؤلفات الحديثة التي ما ظهرت في لغة من اللغات إلا وترجمت  
بعد أسبوع من ظهورها إلى عدة لغات !

فإذا كان تمت شيء ينقص حياتنا الأدبية فهي ترجمة الأعمال الفكرية والفنية الخالدة .  
فإن ترجمة مثل هذه الأعمال — فضلاً عن ضرورتها — تعد عملاً أدبياً ضخماً يعلو على  
كثير من أعمال الخلق والابتكار . بل إن شهرة رجل مثل « الكسندر بوب » تقوم على  
أنه ترجم « إلياذة هوميروس » وإسم « فتر جولد » معروف في عالم الأدب لأنه ترجم  
الحيايم تلك الترجمة العبقريّة .

نحن إذاً في حاجة إلى ترجمة الأعمال الفنية العالمية ، وكل ما يقال في هذا الموضوع  
خلاف هذا دليل على الجهل بتاريخ العالم الفكري ونهضات الأمم والشعوب !

## شتترلر ..

فى الأبناء التلغرافية أن الكاتب النموى الشهير « آرثر شتترلر » قد توفى . وأظن أن معظم قراء العربية لا يعرفون عن « شتترلر » شيئا . وأن الأدباء عندنا لا يهتمون بالأدب النموى إهتمامهم بالأدب الفرنسى والانجليزى . ونحن فى مصر نتكلم عن كتاب الدرجة الثالثة فى فرنسا وانجلترا ونجهل من هم على طليعة كتاب العصر الحديث . لا لسبب سوى أنهم من أمم ليس لها حظ انجلترا أو فرنسا من الإنساع والسطان . مع أن أدباء هذه الممالك كلها يعرفون لأمثال « شتترلر » و « هامسون » و « نتل » و « فرانس فيرغل » بالإجادة والعبقرية . ويأتون بهم ويحلون حذوهم . ونجى عن فندرس هؤلاء المقلدين من أدباء فرنسا وانجلترا . ونجهل مثل تلك المتنايع القوية التى تتمخص عنها أمم النمسا والسويد والنرويج وبولندا وغيرها من الأمم الصغيرة التى تنجب أدباء العالم . والذين يعرف لهم حظهم من الإجادة والإنقان الثقاد العارفون والقراء الدارسون .

و « آرثر شتترلر » و « فاسرمان » و « فرانس فيرغل » « ثالث » مقدس فى أدب النمسا الحديث . يكتبون بالألمانية ويضافون فى بعض الأحيان للأدب الألماني . ولو أن طابع عبقريتهم النموى واضح جلى لا يخطئه القارىء اللبيب .

و « آرثر شتترلر » قد ابتدأ حياته طيباً ومارس هذه المهنة شأناً كثيراً من الأدباء ثم تركها واشتغل بالأدب وحاول الشعر غير أن ميلاته الذى برز فيه وأجاد هو ميدان القصة والدراما . وهو أول من أدخل الطريقة الطبيعية « ناتيورالزم » فى الوصف القصصى فى الأدب النموى . وأول من حاول أن يسبق على أدب أمته طلاباً قومياً واقعياً . فكرس جميع رواياته وقصصه لتصوير الحياة فى لبنا تصويراً « سايكولوجياً » . وتفرد بطريقة خاصة فى تشخيص أبطاله وتحليل ميولهم ونزواتهم . بل أصبح صاحب مدرسة فى التحليل النفساني دقيق اللسة ، صادق الفكاهة قوياً . سريع الأسلوب . ناصع البيان . ولم يعرض لتصوير حياة الجماعات كما عرض لها زميله « فاسرمان » بل أقصر جهده على مدينة « فينا » وأشخاصها ولم يحاول أن يكون عالمى الموضوع والمادة شأن رفيقه « سيفان زفايج » .

فنحن نود من الأدباء فى مصر والقارئ أن يهتموا بأدب القارة الأوروبية وأن لا يقتصروا ثقافتنا فى الإطلاع على منتجات انجلترا أو فرنسا . بل ينجح إلى فى كثير من الأحيان أن أدباء النرويج وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والسويد والنمسا نحن أقدر على فهمهم والإستفادة منهم من أدباء الامبراطوريات والممالك الضخمة التى لا تشترك معها فى عاطفة



أو أمل وألم .

ففي أدب تلك الممالك الضخمة—فى الأعلى والأعم—تسيطر . واعتداد بالنفس .  
وعجرفة . ونحن إذا أدمنا قراءتهم بخلاف غيرهم نخيف علينا من الإيحاء السىء الذى  
تتركه نفمة القوى المعتر بتفسه أمام الرجل المصادق المتواضع !

وفى يقينى لو أن أدباءنا إبتدأوا يتدبرون منتجات « هامسون » و « ستيفان زفاييج »  
وأندادهم . لوجدوا فيها أشياء جديدة تنزل من نفوسهم مكان العطف والمجاوبة . ولعمدوا  
فيهم نفمة تختلف عن نعمات « ولز » و « شو » و « زولا » و « دوهايل » وأندادهم .  
ولاكتشفنا فى تلك النفمة صداقة وقرابة روحية مثل ما وجدنا من صداقة وقرابة فى  
الأدب الروسى .

## تحديد النسل أو تحسينه

كتب الأديب « عبد الله » فى هذه الجريدة بتاريخ ٢٢ أكتوبر يرد على خاطرة لـ صغيرة فى موضوع « تحديد النسل أو علم اليوجنكس » كما يعرف فى اللغات الأجنبية . وفى ذلك المقال يناقش الأديب الأسباب التى أتت بها لتخطئة هذه الفكرة ونقدتها . فأردت أن أرجع إلى هذا الموضوع ببعض التفصيل والشرح والرد .

أولاً — أما اننى لم التفت إلى كلمة « تحديد » وإن الكلمة لاتعنى معنى التقليل فقط ولا الإكثار فكل ذلك أعرفه ولا داعى إلى بسطه والكلام عنه . أما الذى دفعنى إلى ذلك فهو أن الكاتب الأول كتب الموضوع بعنوان « تقليل النسل » وأن الصحافى سأل الأمير « عمر طوسون » عن موضوع تقليل النسل . فكل أولئك أسباب كافية لتساؤلى ماذا يعنى الكتاب فى مصر حينما يتكلمون عن تقليل النسل . وهل هم يستندون إلى ما يسمى « يوجنكس » وعندئذ يكون فهمهم لهذا العلم فهماً مغلوطاً . ثم أتاح لى الفرصة أن أناقش القائلين بفكرة « اليوجنكس » عموماً فى كل العالم لافى مصر وحدها .

ولتحديد النسل غرضان غرض إجتماعى وغرض « بيولوجى » .

وأحب الآن أن أناقش الغرضين « أما أن الغرض الرئيسى لتحديد النسل هو ضمان الصحة والسعادة للعائلة . وضمان المستقبل للأفراد . فهو يرمى إلى زيادتها وتقوية الكتلة العاملة فى الأفراد » . فهذا تعبير الإجتماعيين وليس هو الغرض الرئيسى . اذ الغرض الرئيسى من تحديد النسل « بيولوجى » فقط أى أن الداعين إلى هذا العلم يزعمون أننا يجب أن نستعمل « الانتخاب الإصطناعى » لكى تبلغ البشرية الكمال الإنسانى أو ما يقرب منه ، ولكى نحظى بنوع من الإنسان بعد أجيال عدة على هذه الطريقة يكون مثابة « سوبرمان » وذلك يكون بتشجيع الأفراد الذين يظن فيهم أنهم ممتازون قادرون على التناسل والتكاثر . ومنع الأفراد الذين يبين عليهم الضعف من الزواج والتكاثر . بل لقد فكرت كثير من الحكومات الغربية فى تنفيذ هذه الخطة .

والفكرة لاتقنعنى كما لاتقنع الكثير من المفكرين الصحيحى الإدراك : مهما كان اعتمادها على علم « الوراثة » وقوانين « مندل » ومهما كان غرض هذا المعلم : حينما يظن فى السمع جسيلاً ونبيلاً لأول وهلة ، إلا أنه غير صحيح لافى الطريقة ولافى الغاية ولافى النظرة الإجتماعية .

وأعلم أن مثل هذه التصريحات تكاد تكون حريئة جداً عند طلبة العلوم والدارسين

« فرانسيس جونز » وأضرابه من مؤسسى هذا العلم . وهل إذا علم القارىء أن علم « اليوجنكس » يكاد يكون حقيقة ثابتة عند طلبة الجامعات وأساتذتها مثل نظرية التطور عجب لنقدى للفكرة ونخطئى إياها ؟ — إلا أننى لست بالرجل الوحيد الذى لا يقنعنى هذا العلم . فقد سبقنى فلاسفة إجتماعيون كبار أمثال « هوبهاوس » إلى تخطئة الفكرة وأنها وبعدها عن الصواب .

وفكرة « اليوجنكس » ومركباتها والابحاث التى سوف تسوقنا إليها جد معقدة : وهى تنفذ بنا إلى فكرة التقدم وتعديدها وتعريفها . وذلك ينفذ بنا إلى منعرجات فلسفية أغلب النظم أن القراء لا يصبرون عليها . ولذلك فسوف نناقش الفكرة من الجهة المباشرة ونترك التبحر فى الموضوع إلى من يريد التعمق فيه وإستيعابه .

وصديقى عبد الله متحمس لفكرة كما أخذها عن الأساتذة ، وهى والحق يقال تظهر صحيحة لأول وهلة لاشك فيها . خصوصاً وأن غرضها غرض تقدم النوع الذى تسعى الإنسانية كلها إلى بلوغه . فهو يقول : « إذا ف » « اليوجنكس » وتعديد النسل كلاهما يرمى نحو غرض واحد هو خدمة المجتمع . وكل منهما يعتمد على الآخر فى هذا السبيل . حقاً يقول « اليوجنكس » بتعسين النسل . ولكن عن أى طريق ؟ عن طريق تعديده ولاشك . فتدعو « اليوجنكس » إلى زواج الأفراد الذين ينعمون بالصحة والقوة . كما تدعو إلى زواج الأفراد الذين يحملون صفات بارزة أو ميولاً خاصة تهم المجتمع وتخطو بأمتهم نحو المجد والخلود . كصفات الذكاء والإقدام والشجاعة وقوة الذاكرة . فالليل للآداب أو الفنون . والميل للموسيقى أو العلوم . والميل للاختراع كذلك . تشجع زواج من ميزتهم الطبيعة بالمناعة ضد الأمراض . فهذه جميعها وغيرها صفات وراثية تنتقل من جيل إلى جيل ومن الآباء إلى الأبناء وإلى الأحفاد وأحفاد الأحفاد .

كل هذا حسن وكل هذا جميل . غير أن معرفة هذه الأشياء يا صديقى ليست بمثل السهولة التى عددتها بها . وسهل أن تتخيل وأن ترسم الأشياء ولكنه جد صعب أن تتأكد من الطرق ومن الحقائق التى تعتمد عليها فى هذا التقرير . وقل لى من جهة عملية كيف تدعو إلى زواج الأفراد الذين ينعمون بالصحة والقوة ! أن تتولى الزواج الامة . وتعد هؤلاء الأصحاء الأقوياء بالمثال . أم يتحتم عليهم أن يكونوا أغنياء ؟ وكيف ينعغ فردين على ذلك الزواج ؟ ثم هنالك مسألة التثبت من هذه الصفات البارزة فى الأفراد كيف نتأكد من الذكاء والإقدام والشجاعة ؟ بطريقة مقاييس الذكاء لـ « سيمون بنيت » وهذه

مكان شك كبير. أنجعل الإنسانية كلها رهن نظريات غير محققة ؟ ليس فى ذلك أقل صحة إدراك ولاشبهه .

ثم أن مسألة «الميل» يا صديقى لهذا الفن أو لذلك مسألة مطاطة لا يمكن الثبت منها . وحتى علوم الوراثة نفسها يا صديقى فى اختلاف كبير فى أمرها — كما لا يفتك طبعاً — فالميل للموسيقى وللفنون والاختراع على حسب الباحثين فى الوراثة مشكوك فيه . وهل هذه الصفات تورث أم لا ؟ ثم هذا الميل قد يكون أحياناً اجتماعياً . أى أن ظروف الاجتماع هى التى هيأته للأفراد . فكيف نستطيع أن نفرزه من الميل الطبيعى خصوصاً والميل الطبيعى لا يظهر إلا فى وسط ملائم ؟

إن مسألة وراثه الخصائص الذهنية المكتسبة وغير المكتسبة موضوع جدل ومحل شك كبير بين كبار الباحثين . فهل نرهن مصير الإنسان بمثل هذا الكلام المعلق على الهواء ؟ ثم ماذا فى تشجيعنا لمن حبتهم الطبيعة بالمناعة ضد الأمراض إذا هم لم تكن لديهم صفات أخرى يعتمد عليها التقدم الإنسانى — أى الصفات الذهنية — كما هو الشاهد فى كثير ممن يتمنون بكامل صحة الجسد وليس عندهم فهم ولا ذكاء ؟ يجب علينا أن لا نلقى عقولنا فى قبول نظرية قالها إنسان ولو كانت تلك النظريات تدرس فى الجامعات كأنها حقائق ومعارف عامة ؟

فهذه الصفات الكثرة التى عددها صديقنا الأديب مما يسهل أمره على العلماء الذين يجيدون الإحصاء والتسمية ولكنهم لا يجيدون النفاذ إلى بواطن الأمور والتقد الفكرى . ثم الأمزجة يا صديقى : فقد يكون عندك أننى وذكر كلاهما ذكى . . إلى آخر الصفات . لكن مزاجيهما مختلفان يخرج منهما الأبناء غير مستغنى الأعصاب — كل ذلك مشاهد معروف . وهناك مسائل كثيرة تعن للذهن ولا داعى الآن إلى حصرها وتعدادها .

وهناك من يدعو « اليوجنكس » إلى عدم تناسلهم لأنهم يحملون صفات ضارة بهم وبالمجتمع الذى يعيشون فيه . كصفات ضعف العقل والغباء والجنون والإنقباض الخ . ومن يحملون ميزات أخرى كبيرة ربما لا تظهر لحولاء الباحثين الأجلاء فيأخذوهم بالظواهر التى تيسر للمقاييس العلمية كشمعها وتبيانها .

إن فكرة « اليوجنكس » يا صديقى تقوم على دكتاتورية علمية . وهى بذلك أبعد عن العلم واستقامة الرأى .

أما أن هذه الصفات فى هؤلاء الأفراد تعوق تقدم المجتمع كما يدعى دعاة « اليوجنكس » فالدليل المادى حاصر على بطلانها . إذ أى دليل إلى الآن يدل على أننا لم نتقدم من أول عصور الإنسان إلى الآن — التقدم حاصل . ولو كانت هذه النظريات

حققة لوقفنا مكاننا في الطور الزراعى أو رجعنا التهتري - وذلك ما لم يحدث ولن يحدث ولو تحيل « اليوجينيون » .

ثم يقول الأديب : إن «اليوجنكس» أيضا يدعو إلى تحسين الوسط والظروف المحيطة بالأفراد وجعلها ملائمة لظهور الصفات الممتازة الخ . ونحن لنا في حاجة إلى «اليوجنكس» ليحول لنا نحسين الوسط ، فكلنا يعلم ذلك بالداهية . لكن الصعوبة في التنفيذ يا صديقى . ونظام العالم ثابت والطبيعة البشرية هي لا يستطيع «اليوجنكس» تغييرها أبدا .

إن بعض العلماء يظنون أن مسألة التقدم مسألة هينة ليس أمامهم إلا أن يفكروا ويقولوا بنظريات ثم يذيعوها فيحدث « التقدم » . فليعلم هؤلاء أن التقدم البشرى وليد عوامل كثيرة : منها ما يدخل تحت المعرفة البشرية ، ومنها ما لا يدخل . وهي في جملتها من عمل التاريخ . ومحكومة بعوامل الجو والظواهر الكونية الأخرى التي لم يستطع الإنسان أن يحكمها أو يتصرف فيها . بل هي التي تحكمه وتتصرف فيه مثل الأمطار والأنهار والحرارة والبرودة الخ . . . !

ثم إن هؤلاء « العجزة الصغفاء » الحق في الحياة مثلما للأقوياء . فيأى حق تصرف في حياتهم ومنعهم من التناسل ؟ هذه هبة الحياة كيف نسلهم إياها . فإذا كان في ذهن الإنسان أى كبرياء فعليه بتحسين حالتهم إيجابياً لاسلبياً . أما منعهم من الزواج وخلافه من المحظورات لدليل العجز والإستبداد !

وأغرب من ذلك كله وأدعى إلى الدهشة أن الذين ينادون بهذه العملية « عملية الانتخاب الإصطناعى » هم القائلون بالانتخاب الطبيعى . اتروكوا الانتخاب الطبيعى فهو كفيل بعملية التبرز والتقدم والتطور . كما قال بذلك « داروين » في القرن الماضى . أتريدون شل حركة الانتخاب الطبيعى . وهو ولاشك أكثر عصمة وأحق بأن يعمل من الانتخاب الإصطناعى .

مع كل هذا القول أن فكرة تحسين النسل « علم اليوجنكس » فكرة بعيدة عن الصواب خاطئة من الأساس . بعد درس ونظر . ولايمتنا بعد ذلك إذا درست في الجامعات وقال بها « جولن » وأضرابه .

وفكرة التقدم فكرة إجتماعية قبل أن تكون فكرة بيولوجية . والخطوات التي نخطوها الإنسانية نحو المجد والحضارة تكون بمجهود النخبة الممتازة من أبنائها من حيثهم الطبيعة والوسط والظروف بتلك الصفات . لا بانقراض العجزة والصغفاء . وما شأن العجزة والصغفاء أمام الأقوياء ؟

إنهم لاشك منقرضون، فإذا لم ينقرضوا فهم إذاً لاعجزة ولاضعفاء شاء ذلك  
«اليوجنيون» أم لم يشاءوا !

ويسير الزمن في طريقه غير عانٍ باصديقى ، والتاريخ يلون خطواته ، ودائرة  
دكاء «الحيوان البشرى» محدودة، وتسير الحياة في طريقها معصومة لاتعرف ماهو الإهلك  
والكذب ! !

## الكلمة ثلاثة جنيهاً •

التقى مستر « شريف » مؤلف مسرحية « نهاية الرحلة » محاضرة في أكسفورد جاء فيها أن روايته المذكورة بلغت أرباحها للآن معدل ثلاثة جنيهاً عن كل كلمة. ومثل هذا الربح لم يسمع به قط في تاريخ الأدب والكتب

والغريب في أمر هذه الرواية وقصة كاتبها أن المؤلف لم يكن معروفاً من قبل في عالم الأدب . بل هذه كانت أولى أعماله الأدبية . فليس يعزى هذا الذبوع والرواج إذاً لإسم المؤلف كما اعتدنا أن نسمع . ولا لكثرة الإعلان عنها ولا لأي اعتبار آخر بخلاف ميزتها وتقدير الناس لها ومجاوبتها لمواطنهم وصدق تصويرها لحقيقة الحرب .

والمؤلف نفسه لم يكن يحلم لروايته بمثل ذلك الذبوع والانتشار الذي أخذ عليه ليه واستوى على مكان الدهشة منه ! وقد ترجمت تلك المسرحية إلى لغات أوربية عديدة فكانت تجذب إليها النظارة في كل بلد تمثل فيه ويعاد تمثيلها الليلة بعد الليلة لعدة شهور .

وقد شهدت بنفسى تمثيل تلك الرواية في العام الماضي في جامعة بيروت الأمريكية . فعرفت فيها قطعة فنية محكمة الأصول صادقة العرض . تتخللها فكاهة صادقة وتسمع فيها فرقة الضحك بين دخان النار ودوى المدافع الحربية ؛ وترى فيها كيف تصلىء الحرب بوس الجنود . وكيف يسون . وكيف تنتابهم عوامل الذكري والألم الممض . وكيف تخرج القوانين الصارمة مع الثورة النفسانية الشاردة التي لاتعرف قانوناً — ترى كل هذا فتقول تلك هي الحرب ! ثم لاتلبث أن ترى الجنود في معسكرهم يأكلون ويعبثون ويشربون الخمر والشاي ناسين الحرب وما يحيطهم من القلق والخطر . فتعرف أن الحرب أصبحت عملية بسيطة إذا استثنينا الثورات النفسانية التي تفجر في نفوسهم بين حين وآخر !

والرواية في حملتها تصوير بليغ لأثر الحرب في نفوس أولئك المحاربين . والمؤلف لم يعن يرسم الجهة السوداء من الحرب فقط كما يفعل عادة المؤلفون وإنما عرضها كلها بسحقها وقوانينها . بصحكتها ولذتها . بموامل الخوف منها وبمظاهر الشجاعة والامتنان فيها . فنجحت الرواية لأن مؤلفها لم يكن مفرضاً في عرضها . ولأنه لم يقصد الإعلان عن ميقات الحرب أو حسناتها . وإنما هي صورة ناطقة لكل إنسان أن يشرحها ويفهمها وفق مزاجه وفهمه .

وهذه فى اعتقادنا أهم عوامل النجاح فى العمل الفنى . ثم نجحت الرواية من جهة أخرى لأنها أثبتت فى المسرح لألوف المشاهدين صورة بهمهم أن يروها على حقيقتها ، صورة مازالت عالقة بأذهانهم وخيالهم ، تزورهم فى يقظتهم وفى منامهم . والمشاهد الأوربي أما أن يكون قد فقد قريباً أو صديقاً فى تلك الحرب . وقل أن يكون هنالك إنسان لم يتأثر فى أى شكل من الأشكال من تلك الحرب . فصورة تلك الحرب إذاً مطلوبة . ومطلوبة على حقيقتها أكثر من أى صورة أخرى ، فهذه الصفة الإنسانية التى تخاطب كل فرد . وهذه الصفة العالمية التى بهم كل مشاهد هى سر آخر من أسرار ذبوع تلك الرواية وانتشارها .

لكن هل فكر المؤلف فى كل ذلك وهو يخطط روايته ؟ لا !

والدليل على ذلك أنه دهم من نجاحها فلما حاول أن يبنى عليها بواحدة أخرى كان نصيبه الفشل !

وبعد ، نخرج من كل ذلك أن المؤلف الغربى حين يجيد مهما كان مغموراً غير معروف فإنه ملاق جزاءه الكبير مادياً وأدبياً .

فهل ترى إذا أجاد المؤلف المصرى أواجد هو مايقرب من ذلك الجزاء والتقدير ؟

لا ! وذلك لايرجع لأى نقص فى التقدير والفهم ولكنه يرجع إلى عدم القراءة والعناية بشؤون الفكر ومشاهدة الآثار الفنية . والإعتقاد السائد أن كل هذه الأشياء لاخطر لها ولاضرورة فيها .



## بازروف .

فى الأدب الروسى شخصية معروفة هى شخصية « بازروف » فى رواية الآباء والأبناء « تروجنيف » . وفى تلك الشخصية تتجسم ثورة الحيل الحديد على الجيل القديم . كما أنها تجعل المراك الخالد بين الشباب والشيوخ فى صورة محسوسة . ولقد هنا المحافظون مؤلفها حين ظهور الرواية . لأنها فى اعتقادهم قد رسمت شخصية الجيل الحديد على حقيقته . وقالها الجيل الحديد حينذاك بالسخط والنقد لأن « تروجنيف » فى اعتقادهم لم يرسم صورة صادقة . وإنما عرض « كاريكاتور » فقط .

والحقيقة التى نعرفها الآن أن « تروجنيف » كان صادقاً فى قصته وأن « بازروف » ولا شك شخصية حية تمثل أغلبية كبيرة من الجيل الحديد .

ولقد كان المؤلف فى صميم نفسه يعطف على الجيل الحديد وطموحه ومثله العليا . عبر أنه لم يكن داعية إجتماعياً ولا مروجاً . بل كان فناناً كل هذه الصدق والأمانة بعيداً عن الدعاية والتشيع . فرسم شخصية « بازروف » وهو شاب ذكى ثائر لا يشترك مع الجيل القديم فى كثير أو قليل من الآراء . ثم رسم المفارقات والتكاهات التى تنشأ من مثل ذلك التصادم الذى ينشأ عادة بين الجيل القديم . « بازروف » لا يعرف للمجاملة مكاناً . ولا يفتصد فى آرائه . بل يعلنها فى وقاحة وصراحة . مسرف فى آرائه . لا يؤمن بشيء . ويتهمكم من كل شيء .

كل هذه الصفات والفعال تجعلنا نعتقد أن « بازروف » بعيد عن الإنسانية يعيش فى إطار أفكاره الثغرية . غير أنه بعد قليل يتضح لنا أن معبر الإنسانية فيه واسع كبير . وأن سعة العطف عنده قوية كبيرة . وأنه من بعد ذلك كله إنسان كبير القلب لا كتلة أفكار كما رأيناه فى مبدأ الأمر . وذلك حين نراه بين والديه يحتملانه ويرمقانه بعين العطف . فيعرف أن الفروق ليست فى الإنسانية وعطف الحياة وإنما هى فى الأفكار والإتجاهات الذهنية . ثم نرى أن ذلك الشاب الذى لا يؤمن بغير الفكر يحوت مبة كلها تضحية وعطف فى سبيل علم الطب — ذلك لأنه كان طيباً — إذ يأخذ العلوى بينما هو بشرح جثة مريض بالتيفوس . ثم منظر الإبن وهو يحضر وكيف يرق وكيف يعطف . ثم منظر حبيبته والولده والولده وعطفهم وحزهم . وزياراتهم لقره بين آونة وأخرى .

والحق أن « تروجنيف » قد حل عقدة النزاع بين الجيل القديم والجيل الحديد . فأبان

عطفه عن كليهما . فهو يعطف على « بازروف » المحب للمثل العليا الذي يضحى بنفسه في سبيل الإنسانية ، والذي تزكو فيه عوامل العطف الواسع ، والحب المكبوح ، والإنسانية الخقة . فإذا أُلحِثَ الظروف أو أُنْتَابَ الخطاب ظهرت كل تلك الأشياء من تحت دخان الفكر على أشد ما تكون قوة . ثم أظهر لنا الجيل القديم ولو أنه يتبرم وتشد التقطيع وتنسع هوة الخلاف بينه وبين الجيل الجديد . إلا أنه عاطف على نفسه في شخص الجيل الجديد أشد من عطفه على نفسه . حادب عليه ناظر إليه نظرة العطف والحب والتفاني ، كل هذه الأشياء تظهر جلية إذا ما جد الخطاب لأنها موجودة هناك .

ولكن من الجيل القديم والجيل الجديد وجهة نظره . والأشياء التي تنأى بالجيلين عن بعض مرجعها إلى حب « توكيد الذات » وليس مرجعها في صميم الأمر إلى نزاع أصيل بين الجيلين أو عدم عطف بينهما صادق أكيد .

## دون كيشوت •

فى الأدب الأوربي شخصيات معروفة خلقها خيال الأدباء من العدم، وأصبحت بفضل ذلك الخيال النشط حبة موجودة لاشك فى حياتها ووجودها ، وأصبح الناس يتناولون تلك الأسماء القصصية ويجرونها على لسانهم كما يتناولون الشخصيات التاريخية أو الأحياء على حديد سواء . فلذا قال قائل « نايليون » أو « هاملت » أو « بيرون » أو « دون كيشوت » لكانت كل تلك الأسماء واحدة فى صدق التاريخ ودلالة الواقع وصدق المعنى . وتلك هى معجزة الخيال القوى الذى لايعجز بعده ، ودلالة قوة الخلق فى هذا « الإنسان الخالق » .

فليس « دون كيشوت » أو « هاملت » أو « بازروف » أو « خلافيهم من الخلاق القصصية المشهورة ، بأقل حياة وواقعية للذين يعرفونهم من خلاق اليوم وشخصيات التاريخ . بل أن لهذه الشخصيات القصصية من الرمز القاطع والدلالة المعروفة ما ليس لكثير من شخصيات الحياة الواقعية !

معنا منا لايعرف « دون كيشوت » ومن منا لم ترسم فى مخيلته صورة واضحة قوية لذلك الرجل المبهوس الذى خلقتة عبقرية « سرفانتس » القصصية » .

ونحن نستطيع الآن أن نصف بلخيستا خلق رجل فنقول عنه إنه « دون كيشوت » فيفهم مانعنى بالضبط إذا ما كان له أقل إلام بمنتجات الأدب الأوربي . فهذه الأسماء الخالدة قد تعدت كونها أسماء ، وأصبحت صفات تدل على ألوان من الخلق والسلوك والعقلية نطبقها كل على مانريد وكأنها الفاظ فى معاجم اللغات !

«دون كيشوت» ليس هو « دون كيشوت سرفانتس » فقط . ولاهو « دون كيشوت أسبانيا » فقط ، وإنما هو «دون كيشوت كل عصر وكل يوم» وهو « دون كيشوت » الحياة ، ولعل وجوده فى عصرنا هذا ليس بأقل منه فى عصر المفروسة الكاذبة فى أسبانيا !

وعندى أن المؤلف لم يقصد إلى نقد طائفة خاصة — برسمه لذلك البطل — ولم يكن قصده التمد والإصلاح ، كلا ولا الدهابة والسخر . وإنما كان قصده أن يرسم الجانب الضعيف من الحياة الإنسانية فأجاد الرسم والتصوير .

«دون كيشوت» هو رمز الوهم والهوس والعظمة للكاذبة وآمال الإصلاح ومخاوف الطريق ، وقل فى الناس من لايمر بفترة فى حياته تشبه هذه الفترة وتغرب منها

وإن لم نحارب الطواحين ونضطرب من ظلنا ونقتل قطع الأغنام ظنا منا أنه جيش  
الأعداء !

فدحور كيثوت» إذا صورة لضعف الإنسان ومعين السخف والخورس فيه !  
وهو من جهة أخرى رمز لمأساة الحياة وجموعها في إطار من الضحك والعبث !

## إياجو ١ •

عرض طلبة معهد التمثيل برئاسة الأستاذ جورج أبيض رواية عذيل « لشكبير » .  
وفي تلك الرواية شخصية فذة . إلى جانب شخصية « عذيل » المركبة . هي شخصية  
« إياجو » .

وشخصية « إياجو » هي من شخصيات الأدب القليلة التي تعدت دلالتها الأدب  
إلى حياة كل يوم . وأصبح ذلك الاسم يستعمله الناس وكأنهم يستعملون لفظة الشر  
واللؤم والوقبة وماشابهها من الصفات . وتلك هي قدرة « شكبير » الخالقة على تحوير  
الأسماء للشخصيات وطبعها باللون الذي يميزها ويشير إليها ويدل على هذا المخلوق وتلك  
السجية بين كل الناس وفي كل العصور .

« إياجو » هو نموذج الشر يعمل للشر . ولذة التلذذ الذي لا دافع له ولا حافر  
سوى لذة التلذذ وحسب الشر لأنه « الشر » وهو مثال الطبيعة اللئيمة التي لا تعرف الحياة  
ولا يمكن أن تحيا في غير الوحل والطين - الطبيعة التي تجد كيانها وسلوها ولذاتها في  
حبك القصور الجهنمية . وتسلك لذلك القصد كل طرق الكذب والتفاد والحديعة .  
ولا تتورع عن ارتكاب أي شيء وتبرير أي عمل في سبيل الوصول إلى تلك الغاية المبتغاة  
ولعل تلك الشخصية نفسها - إذا وقفت نحاس نفسها - لا تعرف ما الشر الذي يدفع بها  
إلى ذلك العمل وبغري بها إليه . إنها طبيعة والسلام .

وقد أنكر بعض النقاد هذه الشخصية على « شكبير » وعدوها من هفواته التي  
لا تغتفر . إذ أنهم يقولون أن ليس في الحياة شر خالص . وأن في أحلك الشرور وميضاً  
من الخير وأنه يصعب وجود إنسان تنطبق صفاته على « إياجو » الذي ليس له من دافع  
سوى لذة الشر وحده .

ويقولون إن الإنسان الشرير ربما يعمل الشر ولكنه يبرره فيما بينه وبين نفسه ويرى  
أنه محق فيما يعمل . أما « شكبير » فقد عرض إياجو يعمل الشر لذات الشر ويعترف  
فيما بينه وبين نفسه أنه يعمل لذلك الشر من غير أن يبرر عمله استناداً على دوافع وأسباب  
أخرى - كما هو المشاهد والمألوف في أغلب الجرائم والشرور !

« لم يكن شكبير صادقاً للحياة أميناً للطبيعة البشرية في شخصية « إياجو » . هكذا  
يقول أولئك النقادون !

ولنحن نقول إن أولئك النقاد على غير الصواب فه «إياجو» موجود في الحياة .  
«إياجو» الذي يعمل الشر لحساب الشر ويعرف فيما بينه وبين نفسه انه «الشر» ولا  
يسميه بغير ذلك من الأسماء . بل يجد لذته ويجد إشباع غريزته وإرواء العاطفة من نفسه  
في تلك المعرفة وذلك التحقيق !

وليس هذا إلا «إياجو» الذي رسمه «شكسبير» بالنادر القليل إذا فتحنا عيوننا إليه  
ونعنتنا في أعمال بعض الناس وأفعالهم !

## مازاريك =

استوقف نظري في « أهرام » أمس الأول صورة للرئيس « مازاريك » رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا حاملاً على أكتافه حفيده الصغير . وليس ذلك المطهر الإنساني بغير من مثل « مازاريك » العظيم !

فهذا الرجل هو من رجال العالم القلائل المعاصرين . وهو من ذلك الرهط الذى لاتنسيه ضجة الوظائف وسمو المراتب وصولاً للمجد والحكم أنه إنسان قبل كل شيء . وبعد كل شيء . وأن من الواجب عليه أن يعطى ذلك الجانب العامر من نفسه كل حقوقه وواجباته . فهو فيلسوف ولكنه إنساني فى فلسفته . وهو أديب ناقد ومفكر باحث وسياسى فذ . غير أن كل تلك الميراث لاتنسيه أنه إنسان . أو ربما كان هو من أجلها ذلك الرجل « العبرى » الذى يتضافر فيه الرجل والفيلسوف والسياسى ليكون كلا واحداً هو « مازاريك » العظيم .

والقارىء إن يعجب لشيء فأشد عجبه لهذا الشيخ الذى يجد الوقت الكافى من صجعة السياسة وزحمة العيش وتكاليف الزعامة لتتبع آخر تيارات الفكر والفن العالمى . وقل من الشبان أنفسهم من يقف على أعمال أديباء الشباب مثل وقوف « مازاريك » وعلمه . فهو يدرس « الدوس هكسلى » ويعجب به . وله نظرات صائبة فى فن « مايكل آرلن » القصصى وخلافه من الأديباء الفنانين المعاصرين .

وإذا عرف القارىء أن هؤلاء الكتاب الإنجليز هم من ناشئة الكتاب وأن مركزهم الأدبى لم يتوطد فى العالم بعد . عجب لإطلاع « مازاريك » وجهه الصادق .

فهذا الرجل لم يكتف بأن يكون مؤسس هذه الأمة الناشئة والنافخ فى روحها . حتى أصبحت لها مركز سياسى وأدبى وعن يذكران إلى جانب فنون العالم وآدابه .

وهو لم يكتف بالجهود الصالحة التى يوجهها نحو السلام العالمى وما يشابه من المثل العليا . بل يدرس الأدب ويساهم فى الفلسفة ويكون شعباً بأسره .

إننى حين أذكر الرئيس « مازاريك » أذكر كلمة « أفلاطون » الخالدة « لاتصلح الممالك إلا حين يكون ساستها فلاسفة » وفلاسفتها ساسة .

ولم يصلق ذلك المثل فى ظنى مثل صدقه فى جمهورية تشيكوسلوفاكيا ورئيسها الفيلسوف !

عن معاوية



## الشهيد معاوية

### قصيدة

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

« . . . أحتفل أدياء السودان بتأبين الأديب  
السوداني النابغ معاوية محمد نور . وقد لقي  
نصباً من سقامة وعوجل رحمه الله في ريعان  
صباه ، بعد أن بشر العالم العربي بأمل كبير لم  
تنجزه المقادير .

وقد أرسل الأستاذ العقاد هذه القصيدة  
لتلقى في يوم تأبينه .

أجل هذه ذكرى الشهيد معاوية	فيا لك من ذكرى على النفس قاسية
أجل هذه ذكراه لايوم عرسه	ولا يوم تكريم . ودياه باقية
فما أقصر الدنيا التي طول الضنى	أصائله فيها . وأشقى لياليه
وما أضيع الآمال آمال من رأوا	مطالعه في مشرق النور عاليه
ومن أيقنوا أن الهلال الذي بدا	على الأفق أخرى أن يعم نواحيه
بكائي عليه من فؤاد مفرج	ومن مقلة ماشوهدت قط باكيه
بكائي على ذلك الشباب الذي ذوى	وأغصانه تحتال في الروض ناميه
بكائي على ما أثمرت وهي غضة	وما وعدتنا . وهي في الغيب ماضيه
فضائل منها تحبة أزهرت لنا	لما . وأخرى لم تنزل فيه خافيه
تبنت فيه الخلد يوم رأيت	وما بان لي أن الخيبة آتية
وما بان لي أني اطالع سيرة	خواتيمها من بدتها جيدانه
وأن اسمه الموعود في كل مقول	سيمعه الناعون من فم ناعيه
أجل هذه ذكراه يانفس فاذكرى	فجميعتنا فيه . وما أنت ناسيه
أجل هذه ذكراه ياعين فاذرفسى	عليه شآبيب المدامع داميه
إذا قصرت أيام من نرجيهم	فياطول حزن النفس والنفس راجيه
وياطول حزن النفس وهي متية	إلى اليأس من عجز بها . وهي آيه
فيا يوم ذكراه سنلتاك كلما	رجعت إلينا والضمائر صاغيه

ويا عارفه لاتنصنوا بذكره      ففي الذكر رجى من يد الموت ناجيه  
 أعيروه بالتذكر ماضن دهره      به عيشة في مقبل العمر راضيه  
 وزيلوا النفيس النزر من ثمراته  
 بتكرارها في القلب أولى وثانيه  
 فإن لم تكن في العد كثرأ فباركوا  
 معانيها حباً ، ووفوا معانيه  
 عليه سلام لا يزال بعينه  
 ويبيحه شاد في الدبار وشاديه

## معاوية نور \*

### بقلم أنور الجندى

في محاولة لدراسة أعلام الأدب العربي المعاصر المغفورين لفت نظري « معاوية نور » الأديب السوداني الذى ملأ الصحف المصرية بكتاباته سنوات ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١ و ١٩٣٢ فى جريدة (السياسة الأسبوعية) و (البلاغ الأسبوعي) و (الهلل) هذه الكتابات التى لم تلبث أن انقطعت فترة طويلة ، ثم عادت فى دراسة مطولة للقصة المصرية نشرت (الرسالة) ثم توقفت مرة أخرى حتى أوائل عام ١٩٤٢ حيث نعاها الناعى .

ولقد حاولت فى خلال عشر سنوات تقريباً أن أحصل على مزيد من المعلومات عن حياة هذا الكاتب العربى الذى تدل آثاره على الذكاء والحيوية ونفاذ البصيرة على نحو يتوقع منه التبريز والشهرة وبلوغ المكانة فى ميدان الفكر العربى الحديث . غير أن هذه المحاولات لم تحقق شيئاً ، فكل اخواننا الذين اتصلنا بهم من السودان الشقيق كانوا يحيلوننا على الأستاذ العقاد الذى اتصل به الكاتب فترة إقامته فى مصر فى هذه السنوات التى نشر فيها أبحاثه .

ومع أن الكاتب سافر بعد ذلك إلى السودان ثم انقطع فترة عن الكتابة عاد يناقش كتاب القصة فى بحثه (بالرسالة) ثم صمت مرة أخرى .

ولعل آخر ماوصلنى من أنبائه هو ما ذكره الأستاذ عز الدين الأمين رئيس جماعة الأدب المتجدد فى الخرطوم فى رسالة شخصية لى وهو أن المرحوم « معاوية محمد نور » كان يكتب فى السياسة الأسبوعية (١٩٢٧ - ١٩٣٣) وكان يكتب فى المنقطف والبلاغ الأسبوعي (١٩٢٩ - ١٩٣٣) . وفى الفترة بين ١٩٣٤ و ١٩٣٧ كان يكتب فى جريدة الجهاد ، وعمل محرراً فى «الاجيشيان غازيت الانكليزية» . وله صلة وثيقة بالعقاد إذ كان صديقاً له . ولذلك فالعقاد خير من يتحدث عن معاوية ، ومعاوية سلسلة مقالات كتبها فى الرسالة بعنوان «أصدقائي الشعراء» وكان ذلك فى أوائل الثلاثينيات وقد نقد فيها إبراهيم ناجى وعلى محمود طه المهنتس .

وإني لأذكر أن المرحوم «محمد أمين حسونة» كان قد نعاها فى الرسالة (١٢ و ١٣ ر ١٩٤٢) وقال إنه كتب فى السياسة الأسبوعية منذ عام ١٩٢٩ . واشترك فى تأسيس جماعة

الأدب القومى برئاسة الدكتور هيكل . وكان قد تخرج حديثاً من كلية علوم بالخرطوم . وأراد أن يتم تعليمه فى كلية الآداب ( المصرية ) غير أنه صادف عقبات منعتة من الالتحاق بالجامعة ، فأرسله الأمير «عمر طوسون» فى بعثة خاصة على نفقته إلى الجامعة الأميركية فى بيروت . وبعد أن نال إجازتها فى الآداب عاد إلى القاهرة واتصل بالأوساط الأدبية . وزاول مهنة الصحافة فى صحف شتى كالأهرام والحلال والاجبشيان ميل ، ثم عين سكرتيراً للفرقة التجارية بالخرطوم ، ثم وقعت فاجعة أليلة له وانتهت باختلال قواه العقلية ومات وهو فى زهرة شبابه .

ولعل هذه الصورة الغامضة والحياة القصيرة التى أنهاها «معاوية نور» على هذا النحو هى التى لفتت نظرى إلى الكاتب فى عديد من أبحاثه وكتباته فى المجلات المصرية . وهى مقالات بدأها فى ربيع عام ١٩٢٩ من بيروت . وكانت تصور جودة أسلوبه . وقدرته على البحث والاستيعاب . ونفاذ قلمه وعمق مرماته فى النقد . فهو ناقد كامل الأدوات على الرغم من أنه كان فى بداية الشوط بمعايدل على عبقرية كامنة لم تلت أذ انفجرت بعد عشر سنوات .

يقول : « ليس الأدب هو الشعر فحسب . وما أظن كائناً من كان يقول بذلك . وإنما الشعر فرع من فروع الأدب . فهناك الرواية ، وهناك الدراما والقصص القصيرة . وهناك البحوث الفكرية والأدبية ذات الصبغة الاجتماعية والفلسفة التقدمية . ويحزننى أن أقول إن زعماء نهضتنا إلى الآن لم يحاولوا الرواية ولم ينتجوا فيها شيئاً يذكر . ويتلخص عمل كتابنا الناضجين فى عدة مقالات نقدية وصفية تنشر بالصحف السبارة ، ثم تجمع فى كتاب وتقدم للجمهور .

« وأعجب من هذا أنك إذا أردت أن تعرف شيئاً عن فلسفتهم الأدبية أو الفكرة الأساسية . كما هو الحال عند كبار الكتاب . ومن ليس له فكرة أساسية يصدر عنها فى كل ما يكتب قمين به ألا يعد من زعماء النهضة .

« . نحن نطلب منهم مقاييس أدبية مبتكرة ونظرة خاصة للحياة والآداب . والآن أنظر معى إلى مؤلفات الأستاذ «سلامة موسى» والدكتور «هيكل» والدكتور «طه حسين» وأضرابهم . فهل ترى فى جميع كتاباتهم شيئاً مثل هذه الفكرة الأساسية ؟

« فأفراغ الفراغ للأستاذ هيكل ما هو إلا مجموعة مقالات ، وليس فيه أى فكرة أساسية . ما الذى عمله الدكتور طه حسين إلى الآن ؟ أعترف بأنه حينما يحلل القصص

الفرنسية وينقدها بلذ القارىء كثير أ. أو يدل على قوة نقدية رائعة . ولكن هل هذا هو كل ما نطلبه من زعيم نهضة ؟ وقد يقول قائل إن الدكتور طه مؤرخ آداب وناقد وليس بأديب . فمالك تطلب منه ذلك ؟ فأقول : أين هي مقاييسه المبتكرة في نقد الآداب وكتابة تاريخها ؟ فلننا نعلم أن كبار مؤرخي الأدب لهم فلسفة خاصة بهم أمثال « تين » و « سانت بييف » و « هالام » فأين الدكتور طه من هؤلاء وأين هي تأليفه ؟ ( حديث الأربعاء ) وما هو إلا حديث عن الشعراء ليس فيه فكرة أساسية . ( الشعر الجاهلي ) نعم فيه فكرة أساسية ولكنها منقولة من المستشرقين أمثال « نوالدكة » الألماني « نيكسون » الإنجليزي . ( فلسفة ابن خلدون ) هو الآخر ليس فيه فكرة أساسية . وإنما هو تحليل فقط وتطبيق لنظرية « تين » في دراسة الرجال . فهل مثل هذا الإحتكار لآراء علماء الغرب يجدر بزعماء النهضة ؟ وكتاب سلامة موسى ( حرية الفكر وأبطالها في التاريخ ) الذي كتب عنه بعض النقاد فأسماه كتاب السنة وما إلى ذلك من مثل هذا الهراء المحض : مأخوذ من كتاب تحرير الإنسانية للأستاذ « فان لون » وتاريخ الحركة الصكرية لمؤلفه « ج. ب. بى » فأى فضل له سوى فضل الترجمة والنشر ؟

« لا . نحن نود أدباً بكرأ ، ونود أن يميز الناس بين التفكير البكر وبين تعميم الآراء ... » هذه هي مطالع الحياة الأدبية « معاوية نور » ثم هو يواصل عمله هذا فيما بعد حينئذ أحمد زكى أبو شادى ( فى السياسة الأسبوعية ٢٨ يونيو ١٩٣٠ ) فى دبوانه ( الشفق الباكي ) نقداً مرأ فيقول :

« أنت تقرأ الديوان من الجلدة الى الجلدة . وقل أن تصادف فى هذا المقدار الضخم شعراً صحيحاً . . . فأنت ترى أن أبا شادى يرى من الشعر . ولا يمكننا أن نحرص له فى شيء من الجهد إلا حينما يكون للشاعر شعر وموضوعات شعرية . »

وهو معنى يعرض فنون الأدب الغربى الحديث وله فى ذلك عدد من الأبحاث .

١ — فلسفة الدراما : بحث فى الأدب المسرحى ( السياسة الأسبوعية . ٢ أغسطس ١٩٣٠ ) .

٢ — بحث فى أصول الفن القصصى ( الهلال أغسطس ١٩٣١ ) .

٣ — فن التراجم الجديد ( الهلال أبريل ١٩٣١ ) .

ومعنى هذا فى كتاباته المتعددة أنه معنى بنقد الشعر والقصة والنثر جميعاً . وأنه حفى بمختلف الدراسات الغربية التى ظهرت فى هذا المجال . ولما كان فن القصة فى هذه الفترة من الثلاثينات جديداً . فقد حاول معاوية أن يشترك مع بناء أساسه بمسا عرض من دراسات ونقادات . يقول فى مقاله عن القصة :

« قصارى هذه الكتابات التى تسمى قصصاً أن تكون واحدة من اثنين :

« أما أنها حوادث عادية لا تمتاز بشيء من الحكايات التى سمعناها فى أيام الطفولة .  
أو أنها بالمقالات الإنشائية أشبه .

« والسبب فى ذلك أن الدين يتصدون لكتابة القصة ، أما أنهم لم يتوفروا على الدراسة الواسعة والثقافة العالمية فى هذا الفن ، وأما أن من يتصدى للكتابة القصصية ليس عنده هذه السليقة الفنية الحسنة والطبع الفنى السليم » .

ثم يحاول أن يرسم للقصة منهجاً وعنده أن القالب فى الفن : هو أن يختار الكاتب الشكل الذى يناسب الأثر الفنى الذى يود إحداثه فى أذهان قارئه . فحركة الأسلوب مثلاً يجب أن تتمشى مع حركة العاطفة . أو الحادثة الشخصية ، فتجد الكاتب القصصى يستعير عدة الموسيقى فى هذا الصدد من حيث الإيقاع والإتساع والتدرج والموازنة .

ويرى أن الفن فى موضوعه قطعة من الحياة يعرضها أمامنا الأديب من خلال مزاجه الخاص . ويسألنا بما أوتيته من لودعية وتفنن أن نرى هاته القطعة كما يراها هو ، وعلى قدر عمقه فى الإحساس وتفنته فى العرض يقوم فنه وتنجلي عبريته .

ويرى معاوية نور : أن هناك طريقتين لرسم الشخصية القصصية وإحيائها . أولها الطريقة المباشرة التى تحدثك عن كل ماتود معرفته عن الشخصية عن طريق الوصف المباشر .

والطريقة الأخرى هى أن تعرض عليك القصص شخصه فى تفكيرهم وأعمالهم فتعرف أنت الشخصية عن طريق تفكيرها ونهج أعمالها وبلدات روحها . وعنده أن الطريقة الأولى أقل فناً . وأسهل كتابة . وأرخص فى ميدان النقد والتقدير من الطريقة الثانية التى تحتاج إلى قوة مبتكرة وإبداع يدل على الفطنة والذكاء .

ثم يعرض للفن التراجم فى استيعاب ودقة فيقول :

« بديسى أن التراجم لم تكن يوماً مجهولة فقد عرفها القدماء واعتنوا بها وكتبوا فيها الشيء الكثير . غير أن نظرهم إلى الترجمة كعمل فنى مختلف عن نظرنا فى الأغلب والأعم . فهم يؤرخون أو يترجمون لرجالهم ليشيلوا بذكرهم ويشعروهم بالثناء والمدح إلى مقرهم الأخير . أما المترجم الحديث فهو قل أن يعنى بالمدح وما إليه ، وهو لا يتقاضى عن سواد أبطاله ولا يفتنى من مواطن ضعفهم ، ولا يهول مما يحسب لهم فى الحسنة ، ولا يجعل لأى هوى أو غرض مكاناً فى نفسه وقته سوى غرض التصوير الحق ، وإحياء الشخص الميتة نفوساً تتحرك على الورق .

« وقد كانت التراجم القديمة في جملتها تقع في المجلدات الضخمة مكتوبة بالتواريخ والأسانيد والأرقام . أما درس ما يسمى بالمعاطف وتحليل الدواعي والسبع سبع نبضات القلب والقوس وراء السحابة النعوس وتصوير الأزمات النفسية والعرض للفتات الذهن . . . »

« فالترجم الحديث حريص على أن يبرز الصورة بكل ما فيها من ضعف وقوة . فيستعين بكتب بطله وكل ما كتب عنه . كما أنه يضع في المحل الأول خطابات الخاصة ورسائله ومذكراته حيث النفس هناك على سحنها . ثم يحاول تكوين الصورة الأولية لبطله وهو لا يشترط في كل عمله هذا طريقة خاصة . . . كما أن من خواص الترجمة الحديثة أنها لا تحكم . وإنما قصارها أن تفرض لا أن تجزم . فهي لاتهتم بمصر البطل إلا بقدر صغير يعين على فهمه ، وهي مستند إنساني يعرض صحيفة حياة إنسان لا إله ولا نصف إله . وهي لا تقرب من الإنسان وكأنه خير كله أو شر كله . وإنما الشر والخير أو ما يسمى كذلك كله قريب من الإنسان . »

وهكذا يبدو « معاوية نور » في إهاب الأديب المتعفف الواعي الذي أحرز قدراً كبيراً من الثقافة العالمية . وإستطاع أن يحيط بتياراتها المختلفة . وأن يتغل ذلك إلى الأدب العربي في أسلوب دقيق وعبارة نقية . غير أن صورته الذاتية كفكر لا تبدو واضحة في هذه النماذج التي نقلناها .

وقد إستجاب معاوية نور بخيله وللثقافة العربية حين اشترك مع الكتاب المصريين في الدعوة إلى الأدب القومي . وكان أحد الموقعين على الوثيقة التي نشرتها السياسة الأسبوعية في هذا الصدد . وكانت إحدى أعمال الدكتور هيكمل في مجال إحياء القومية وبعثها . غير أن « معاوية نور » كان ينهم (الأدب القومي) على أنه تصوير للمشاعر الوطنية القومية . ورسم لليئة نفسها . وخلق أدب فيه أنفاس الأمة وروحها وعواطفها ومشاعرها .

يقول في السياسة الأسبوعية — ٢٠ سبتمبر ١٩٣٠ « ليس معنى الأدب القومي أن نتحدث في موضوعات قومية . ولو كان هذا يدخل فيه . وليس إراماً على الأديب القومي أن يتكلم عن الحياة في الريف أو في المدن أو في وادي النيل . وإنما جوهر الأدب القومي إنما هو « الإحساس القومي » هو أن يكون الكاتب فتناً تمثلت فيه خصائص أمته الشعرية والفكرية . فأبرزها في العمل الفني في ثوب تفسيره الخاص بكثير من تلك الأمة . »

ولعله قد حاول ذلك حين رسم بعض ما أسماه « صور سودانية » تحت عنوان

( فى القطار ) . .

« . . بعد أن قطع القطار صحراء العثمور العاتية وما فيها من جبال ملتفة ، ورمال بيضاء منبسطة ، وأحجار سوداء متناثرة فى لجج ذلك الخضم الذى لا تقف منه العين على شىء من صور الحياة النابضة . سار ينساب إلى أرض لا تحوجه إلى مثل ذلك الكفاح والتضال القوى . بل راح راكضاً فى إتساق وسرعة على ضفاف وادى النيل . . . . . وكنت من قبل أنظر إلى هذه الصحراء وأمن النظر إليها : وكلما أعمت النظر جاشت بى الجواطر والتذكر . وخيل إلى أنى تأريخاً مع هذه الصحراء . وأنه محال أن تكون هذه هى المرة الثانية أو الثالثة التى أشاهد فيها هذه الصحراء . لما أشعر به من القرابة والعطف والإناس لهذه الحجارة التى ترمى بالقرب من سير القطار . .

« والقطار سائر إلى أن اقترب من مدينة شندى بعد أن مر بمدن عدة ، والمسافر لا يرى غير السهول الواسعة حيناً ، والأشجار المتناثرة الكثيفة حيناً آخر . وقد يرى بعض الأحيان أرضاً خضراء . ولا يرى غيرها سوى الرمال والحصى . غير أن النظرة إلى شجرة من هذا الشجر الذى تجده بين حين وآخر . واقفاً متدلى الأغصان فى أسى واكتئاب . وصبر ووحشة لا تغالطها بشاشة أو يمازجها فرح . لخرى بأن يحمل الإنسان إلى الاعتقاد بنضوب هذه البقاع من الحياة كما عرفها وذاقها بين المدن الصاخبة : وأنفاس الإنسان النابضة . ووثبة الحياة الدافقة .

« كل هذا وبعض أصحابنا المسافرين المترفين فى شغل عن الصحراء والسهول والأشجار وحديثها . هذا يدخن سيجارته . وغيره يقرأ كتاباً ، وثالث نائم ، وغيره وديع حالم : وما أن يقف القطار عند قرية صغيرة يحسبها الإنسان خلاء وقرراً . قبل أن يطلع عليه بعض أهلها من شبان وشيب ومعهم أشياء من الطعام يرغبون فى بيعها إلى المسافرين . أو أنواع من الخبز والآتية .

« . . وقف بنا القطار فى هدوء طارىء فى محطة من المحطات بعد أن إجتاز مدينة شندى . وكنت تسمع المسافرين ينادون بعضهم بعضاً : « اقبل الشباك ، اقبل الباب . . . » بين قصف الرياح وأصوات المسافرين . وذلك لأن الرياح قد ابتدأت تعصف بشدة . وتذر التراب فى العيون . والعاصفة تولول كالشارد المجنون . والشمس تخفى بين حين وآخر : لأن السماء الداكنة غمام يتجمع ويقلح حيناً ، ثم يتلاشى حيناً آخر : فتظهر الشمس سافرة . وكان النيل الذى وقفنا بالقرب منه يرسل أصواتاً هائجة من أمواجه النائرة . وهكذا وقف القطار بين ولولة العاصفة . وهدير الموج الصاخب ، ودكنة السماء . وحلوكة الجو . . . . »



هذه صورة للقطار بين القاهرة والخرطوم . وهذه صورة أخرى لتأملات في ليل  
الخرطوم على ضفاف النيل الأزرق . . .

« الوقت ليل . والكون ساج فائم . فما نسمع نائمة ولا توى حركة . ولا نخس  
سوى الركود والإغفاء والسكون الشامل والظلام الصامت . . .

« وقد نبيل إلى أن الحياة قد وقفت فجأة . وأن الوجود قد أخذ إلى نومة هادئة .  
ويعدني ذلك المشجو والسهوم فلا أستطيع أنا الآخر حركة أو قياماً . بل أظل أنبع حركة  
الماء الدافق أمامي ، وحركة ما يجري في خواطري وأحاسيسي ، وأنا جالس على أحد  
المقاعد على ضفاف النيل الأزرق في مدينة الخرطوم . والنيل ينساب في مشيته هادئاً  
كأنه صفحة المرأة المجلوة . وعلى يميني في النهر بضع سفن بخارية ، وأمامي الخرطوم  
بحري وجزيرة توتي . وعلى شمالي مدينة أم درمان . يحجم عليها النصب ويكسوها الليل  
ثوباً رقيقاً ، ويخيل إلى أن ذلك الشجر الحافي بعضه على بعض . والذي يظل شارع  
الشاطئ . وذلك النهر الهادئ بما فيه من قنطرة . وأمامه من مدينة وجزيرة . وما فوقه من  
سما تحسبها لشدة زرقتها وانكفائها على حدود النيل ، أن السماء نيل وأن النيل سماء . .

« . . . ظلت الساعات وأنا مأخوذ بسحر ذلك المنظر في شبه صلاة روحية وخشوع  
فكري ، وجلالة تغمر النفس وتخلع على الحياة شعراً ، وتحيطها بالأسرار والأطياف والأرواح .  
لم يظهر لي النيل في تلك الليلة بالشيء السائل المائي . وإنما هو بالتماسك أشبه . وإلى  
مادة كالزئبق أقرب .

« وبأني النيل الأبيض من الناحية الأخرى وهو أكثر زبدًا ورغياً وصخباً من النيل  
الأزرق ، قد ترى موجه المزبد يتكسر في عنف وشدة على الشاطئ . حتى إذا التقى بالنيل  
الأزرق عند الخرطوم شد من أزره . وأخذ يساعده وتكاتف الاثنان معا في مرحلة  
الحياة . وهكذا يسيران وقد صارا نيلًا واحدًا وقلت وحشتهم وزاد أنسهما . فتلحح  
نجاوهما وشعورهما بالرضاء الوادع . »

هذا في رأيي هو مفهوم الأدب القومي عند « معاوية نور » . ولم أصِل إلى أرائه  
الأخرى في مجال القومية العربية أو الأفريقية . ولعله كان من رأى الدكتور هيكل إذ  
ذاك - هذا الرأي الذي تحول عنه هيكل فيما بعد .

وقد كتب معاوية نور عدداً من الأقاصيص السودانية ذات الصبغة المحلية . وصور  
كثيراً من ملامح الطبيعة في السودان . وقال عن هذه الصور والأقاصيص إنها تهدف إلى  
درس الشخصيات درساً « يسكولوجياً » يعنى بالنتائج والأسباب كما يعنى بالدوافع

« وإنها ليست « سودانية » فى معنى الكلمة المحدود الضيق . حتى وإن كانت حقاً سودانية فى شخصيتها وجوها وإحساسها ، فإن خصائصها الفنية هى خصائص سكان هذا النيل المبارك ، وعبقريتها وصفها هى عبقريته هذا الوادى الحزين . »

وقد عاش « معاوية محمد نوره » حياة جميلة من الشباب الذكى المثقف المتطلع بطموح إلى أخذ مكانه فى صف النهضة . ولابد أنه قد واجه كثيراً من القلق . مصدره مفاهيمه والآراء التى إستفادها من ثقافته الواسعة . وضيق الحياة الإجتماعية فى السودان فى ظل الاحتلال . وعدم القدرة على التطور وسيطرة المحتل فى هذه الفترة . ولذلك إنطبع تفكيره بطابع الحزن والقلق .

ويبدو أنه بعد أن حصل على درجة الجامعة لم يتوقف عن العمل الصحفى فى القاهرة . وتطلع إلى وطنه لعله يجد مكان الصدارة الفكرية فيه . ويبدو أنه لقى عقوقاً وعتناً . فلم يكن يبرز فى هذه الفترة إلا المتصلون بالحكام . وهو الذى يبدو من وراء كتاباته عفيفاً عازفاً عن مثل هذه الأساليب . ما كان ليجد مكانه الحق .

ولدى صورة نفسية له لعلها تلقى بعض الأضواء على مشاعره : إنه يحاول أن يصور طفولته ويستعيد ذكراها . فلا يلبث أن يواجه اليتيم والفقر والحياة الضيقة . يقول : « إننى لأذكر (توتى) وأذكر أياماً لى بها . وأذكر زرعها . وأذكر مجدها . أذكر تلك الحضرة ملء العين والبصر نهاراً . وهى الجلال والخوف والأطياب ليلاً . . . »

« وأذكر أبى وأذكر بيت أبى : أذكر ذلك البيت القائم وسط الزرع . وحيداً لا أخ له . كالشارة المرسومة وسط ذلك الزرع الحافل : أين كل ذلك اليوم ؟ لقد مات أبى . واضمحل الزرع . وتهدم البيت . وهذا الشارع الجميل المنسق على صفوف النيل الأزرق : ماذا يترك فى نفسى من إحساس ؟ لاتزال صورته التى رأيتها وأنا طفل بأمر درمان مرسومة أمام ناظرى . وهى صورة فيها من الحنين والشوق مالا سبيل إلى وصفه .

« وإني لأذكر ليالى المدرسة . وسماعى لذلك البورى الذى يهز كياني هزاً . ويلعب نفسى ويذكرها بمن مات من أهلى وأحبابي . »

هذه صورة الطفولة . وهذا كل ما استطعت أن أحصل عليه من آثار « معاوية نوره » وهى مبعثرة فى صحف كثيرة .

ولإني أتطلع اليوم إلى حفل ضخم يقام فى الخرطوم من أجل إحياء ذكراه . وطبعاً أكثاره . والتنويه به فى العالم العربى كله .



## هذا الكتاب

يسر قسم التأليف والنشر بجامعة الخرطوم أن يقدم إلى القراء الجزء الثاني من مؤلفات الكاتب السوداني الفذ المرحوم معاوية محمد نور ١٩٠٩-١٩٤١. وهو يحوى مجموعة من القصص القصيرة تعتبر محاولات رائدة في هذا المجال ليس في السودان فحسب وإنما على نطاق العالم العرب فقد قام معاوية بكتابتها في العشرينات عندما كان فن القصة القصيرة يشق طريقه في عصر إلى رحاب الأدب العربى.

كما يضم الخواطر الذكية التى يسطرها براع معاوية يومياً أثناء اضطراره بأعباء تحرير جريدة مصر فجاءت صوراً قلمية رائعة ولمحات فكرية مشرفة لا تحصى جديداً ولا تفنى طرافتها.

ويحوى أيضاً مقالات إجتماعية وسياسية بعضها عن السودان هاجم فيها الإستعمار متشكلاً في تجربته الإدارة الأهلية وقصور أدائه في مجال الصحة والتعليم، أضف إلى ذلك بحوث متفرقة في الأدب والفن اتسمت بالعمق وسعة الأفق.

قام بجمع مؤلفات معاوية الأستاذ رشيد عثمان خالد الذى اهداها مشكوراً إلى جامعة الخرطوم. وقسم التأليف والنشر بالجامعة إذ يشيد بهذه الروح الكريمة بحمد الأستاذ رشيد ما أسدى للأدب السودانى من جميل يبعثه لهذا التراث القيم.